

الحجاج بن يوسف الثقفي

بين الطاغية ورجل الدولة

تأليف

أحمد محمد كامل



مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع



رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادي

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة: الأولى

الكتاب: الحجاج بن يوسف الثقفي
(بين الطاغية ورجل الدولة)

المؤلف: أحمد محمد كامل

تصنيف الكتاب:

التصميم والإخراج: م/محمد سالم

المقاس: ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع: ٢٠٣٥٥ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي: 2- 771- 776- 977- 978

العنوان: المكتبة والمطبعة: ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون: ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email: yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك: مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۖ (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۖ (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً
مِّنْ لِّسَانِي ۖ (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ۖ (٢٨) ﴾

(طه ٢٥ : ٢٨)

إهداء

إلى أصحاب الفضل الحقيقيين بعد الله سبحانه وتعالى
إلى كل من شجعنى على إتمام هذا العمل
إلى كل من دعمنى بكلمة طيبة
جزاكم الله عنى خيراً

المؤلف

أحمد محمد كامل

المقدمة

إن الحمد لله وحده نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله
وصفيه من خلقه وحبيبه

أما بعد ، ، ،

نتعرف في هذا الكتاب على واحد من أكثر الشخصيات جدلية في
التاريخ الإسلامي .. رجلٌ اجتمعت في شخصه كثير من التناقضات
حتى أن المتتبع لسيرته ليشعر بالحيرة حين يحاول إبداء رأيه
الشخصي فيه فتارة يجد نفسه متحاملاً ناقماً عليه فيصفه بالوحشية
والدموية .. وتارة يجد نفسه أمام بعض صفاته الحسنة فيثنى عليه
ولربما امتد الأمر إلى عذره على أفعاله وفي النهاية يتأكد له أن
محاولة تكوين رأى بقناعة كاملة يعد أمراً صعباً فيذهب إلى أسلم
الحلول وهو دراسة مواقفه بتجرد قدر الإستطاعة ثم ترك حرية
الرأى للقارىء ..

الحجاج بن يوسف الثقفى .. واحدة من أشهر الشخصيات في
التاريخ الإسلامي .. اكتسب شهرته بالأساس بسبب قسوته ودمويته



حتى غطت تلك السمعة على بعض خصاله الحسنة وتصاغت أمامها إنجازاته العسكرية التي أفادت الدولة الإسلامية في زمانه أيما استفادة .. والمتتبع لسيرة الحجاج إذا كان من الرافضين لسياسته فإنه سيجد العديد من الدلائل على ما يريد إثباته ولصار سهلاً عليه أن يُظهر الحجاج في صورة الطاغية حتى ليكون الشيطان قزماً بجواره .. أما إذا كان من المؤيدين لسياسته فإنه سيجد العديد من مميزات الحجاج العسكرية منها والإدارية ولصار سهلاً عليه أيضاً أن يظهر الحجاج في صورة رجل الدولة الذى ضحى بالكثير من سمعته في سبيل قمع الفتن التي كادت تهدم دعائم الدولة ولربما علا به ليضعه في مقام المصلحين العظام عبر التاريخ ..

وما بين الطاغية ورجل الدولة هناك مساحة كبيرة يقف فيها كثير من الناس لا يعرف إلى أى الرايين يميل ولأجل هؤلاء الكثر الذين يقفون في تلك المساحة قررت أن أكتب عن الحجاج رجل الأضداد ..

فى هذا الكتاب حاولت تناول حياة الحجاج منذ ميلاده وحتى وفاته فى إطار سردي تصاعدي راعيت فيه التدرج الزمني لحياته حيث خصصت الفصل الأول لشرح الظروف السياسية التي واكبت نمو الحجاج وتشكيل شخصيته وكيف أنها أثرت على تكوين شخصيته وقناعاته .. ثم فى الفصل الثانى تناولت كيفية إتصاله بالبيت الأموى

ووصله إلى قيادة الجيش الذى حارب عبد الله بن الزبير فى مكة .. ثم خصصت الفصل الثالث لمرحلة ولاية الحجاج للحرمين الشريفين ثم ولايته للعراق ومواقفه مع أهله .. ثم خصصت فصلاً للحديث عن علاقته بالخوارج ومعاركه معهم وكيف استطاع أن ينهى خطرهم .. ثم فصلاً آخر للحديث عن الثورات التى قامت عليه وكيفية قضاؤه عليها وإقرار الأمن وتثبيت أركان الحكم .. ثم انتقلت فى الفصل الذى يليه للحديث عن بعض إنجازات الحجاج سواء على مستوى الفتوحات أو على المستوى الإدارى والتنظيمى .. ثم فصلاً آخر عن المواقف التى حدثت فى حياة الحجاج محاولاً إبراز التناقض فى شخصيته وكيف أنه اتسم بالكثير من الصفات المتضاربة مثل القسوة والحلم والتواضع وغرابة الأطوار .. ثم الفصل الأخير الذى خصصته للحديث عن الأيام الأخيرة فى حياته ..

وكما هى العادة فالكاتب هنا لا يدعى أن هذا الكتاب هو أفضل ما كتب عن الحجاج بن يوسف الثقفى وإنما اعتمد فيه على أسلوبه فى الطرح وترتيبه للأحداث لجعل هذا الكتاب وسيلة سهلة لكى يتعرف القارئ على شخصية الحجاج والتى يجد البعض صعوبة فى تحليلها أو تتبع أخبارها ..

و نسأل الله عز وجل أن يوفقنا فى إخراج هذا العمل بالشكل الذى يرضيه عنا وأن يجعل الجهد المبذول فيه فى ميزان حسناتنا يوم

القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم
وصل اللهم وبارك على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم

أحمد محمد كامل

القاهرة في ٧ / ١٠ / ٢٠١٨

الفصل الأول

الأوضاع السياسية فى فترة نشأة الحجاج

- ولاية معاوية بن أبى سفيان وأخذ البيعة ليزيد
- الحسين بن على .. الثائر الشهيد
- معارضة عبد الله بن الزبير للحكم الوراثى
- موقعة الحرّة
- الهجوم على ابن الزبير فى مكة
- بنى أمية بعد وفاة يزيد



ولاية معاوية بن ابي سفيان وأخذ البيعة ليزيد

تغيرت الأمور كثيراً منذ وفاة عمر بن الخطاب .. بويح عثمان بن عفان وبسبب أسلوبه الحليم مقارنة بعمر تجرأ عليه بعض السفهاء وبدأوا في تزكية نار الفتنة حتى وصل بهم الأمر لمطالبته بخلع نفسه .. بالطبع لم يخلع عثمان نفسه وظل متمسكاً بحقه فتكتلوا عليه وقتلوه .. الفوضى في كل مكان .. استقرت الناس وقتها على تولية علي بن أبي طالب كخليفة للمسلمين .. الجميع بايع إلا معاوية بن أبي سفيان ولى دم عثمان بن عفان .. لا يمكن أن يمر الأمر بهذه البساطة .. قال إنه على استعداد لمبايعة علي ولكن بعد أن يسلمه قتلة عثمان فيقتص منهم .. أما علي رضي الله فرفض تسليمهم بسبب الظرف السياسي وقتها وأن القتلة كانوا مسيطرين تماماً على مفاصل المدينة المنورة وقبل أن يسلمهم يجب أن تجتمع كلمة الناس أولاً فيكون موقفهم أقوى أثناء مواجهتهم ..

كانت الأوضاع متشابكة وبدأ أن الوصول لحل يرضى الطرفين لا يلوح في الأفق واستغل المنافقين هذا وزادوا في فجوة الخلاف بين الرجلين حتى وصل الأمر للإقتتال .. في البداية معركة الجمل ثم معركة صفين ثم لجوء الطرفين لتحكيم كتاب الله ووقف القتال حرصاً على دماء المسلمين وعندها زادت اوجاع الأمة بظهور الخوارج الذين

رفضوا أن يحتكموا إلى كتاب الله رغم أنهم أول من وقف في وجه الإمام عليّ وضغطوا عليه ليقبل به .. كانت الأمور تسير من سيء لأسوأ .. الأمة تتحزب وتتفرق وكل طرف يرى أنه على الحق .. فتنة عظيمة المت بالأمة في ذلك الوقت ..

* * *

الخوارج استغلوا ذلك الوضع وقاموا بقتل الإمام عليّ رضي الله عنه فزادت الأمور سوءاً وبدأ الحديث يكثر عن وجوب الثأر ووجوب قتال الخوارج من ناحية وقتال معاوية بن أبي سفيان مرة أخرى ليعود لصفوف الجماعة من ناحية أخرى وتم وضع كل تلك الأمور أمام الحسن بن عليّ الذي بوبع بالخلافة بعد أبيه وبينما يتجهز الجميع لحرب جديدة بين أهل العراق وأهل الشام إذا بالحسن رضي الله عنه يختار أن يحقق دماء المسلمين ويعقد إتفاقاً بينه وبين معاوية رضي الله عنه يقضى بأن يتنازل له عن الخلافة على أن تعود الخلافة إليه مرة أخرى بعد وفاته فتتوحد بهذا كلمة الأمة بعد أن كانت على شفير الإقتتال الأهلي .. وقد كان تنازله هذا دليلاً على كرم أخلاقه وقوته حيث أن جيش العراق وقتها كان أكثر عدداً وأعلى تجهيزاً وأكبر قدرة على حسم الأمور إلا أن الحسن رضي الله عنه لم ينظر لنقاط القوة تلك ووضع تركيزه على حقن الدماء وتوحيد الكلمة .. حدث هذا عام واحد وأربعين هجرياً .. أطلق على ذلك العام عام

الجماعة بسبب إجتماع كلمة المسلمين بعد سنين من الحروب ..
معاوية بن أبى سفيان أصبح رسمياً أميراً للمؤمنين ..

معاوية كان نعم الحاكم الذى ساس رعيته بالحكمة والرفق
وبسبب حسن إدارته إتسم عهده بالإستقرار السياسى والإجتماعى
.. أربعون عام قضاها معاوية فى مناصب القيادة نصفها فى ولاية
الشام ونصفها الآخر فى إمارة المؤمنين اكتسب من خلالها خبرة
إدارية وسياسية مكنته من تطوير الهيكل الإدارى للدولة بشكل
هائل .. متى بدأت المشاكل إذاً ؟

بدأ كل شيء مع وفاة الحسن بن على رضى الله عنه ..

أحد شروط الصلح فى عام الجماعة كان تولى الحسن بن على رضى
الله عنه لإمارة المؤمنين بعد معاوية إلا أن القدر سبق وتوفى الحسن
رضى الله عنه قبل معاوية وبوفاته شعر معاوية أن الفتنة يمكن أن
تعود لتظل برأسها مرة أخرى إذا ما توفى قبل أن ينظم أمور الدولة
خاصة أن عمره وقت وفاة الحسن كان ثمانية وستون عاماً .. قرر
معاوية أن يستخلف فى حياته سائراً فى هذا على خطى أبو بكر
الصديق ..

لم تكن المشكلة فى طريقة الإختيار ..
وإنما فى الإختيار ذاته ..

ب وفاة الحسن بدأ الحديث يكثر فى دمشق عن ضرورة عدم خروج
الإمارة من بنى أمية وحجتهم فى هذا أن الشرط الأساسى الذى بنى
عليه الصلح فى عام الجماعة انتفى .. الحسن بن على توفاه الله ..
إذا فنحن أحق بالإمارة من غيرنا خاصة وأننا الآن أهل الحل والعقد
وأصحاب اليد الطولى والأكثر عدة وعتاداً .. رغبة قوية فى الإحتفاظ
بالإمارة اعترت بنى أمية وقتها وكان معاوية يلحظها ويعلم مآلاتها
.. إن لم يختار ولياً لعهد فى حياته لاندلعت الحرب مرة أخرى
بعد وفاته .. كما قلنا هذا لم يكن أصل المشكلة .. المشكلة كلها
تبلورت فى الإختيار ذاته .. معاوية بن أبى سفيان قرر أن يختار
ابنه يزيد ولياً لعهد ..

اختيار يزيد بالطبع وافق هوى بنى أمية وأتباعهم فقبلوا به
ولم يعترضوا فقرر معاوية على الفور إرسال الوفود إلى أقطار الدولة
ليأخذ البيعة منهم فوافق الجميع ولم يتبقى إلا أهم ولاية فى ولايات
الدولة الإسلامية وقتها .. المدينة المنورة ..

بسبب أهميتها الدينية ومكانتها فى نفوس المسلمين وأيضاً بسبب إقامة كثير من أبناء كبار الصحابة فيها صار أمر أخذ البيعة من المدينة أكثر ما يؤرق معاوية بن أبى سفيان وقتها .. أبناء كبار الصحابة أصحاب رأى معتبر وعموم الناس يأخذ به فإن قبلوا بلا مشاكل قبل الناس أيضاً وسارت الأمور كما يحب معاوية ويريد .. أما إذا رفضوا فعندها قد يفتح باب جديد لفتنة لا يعلم مداها إلا الله..

* * *

أهل المدينة رفضوا مبايعة يزيد ورفضهم كان نابعاً بالأساس من رفض أسماء لها ثقلها .. الحسين بن على .. عبد الرحمن بن أبى بكر .. عبد الله بن عباس .. عبد الله بن الزبير .. عبد الله بن عمر .. بسبب رفضهم اضطر معاوية إلى الذهاب إلى المدينة بنفسه ليأخذ البيعة منهم بنفسه وظن أن ذهابه إليهم قد يجعلهم يقبلوا البيعة تخرجاً منه ..

أما الحسين فقد خرج من المدينة إلى مكة قبل وصول معاوية رافضاً للبيعة .. وأما عبد الرحمن بن أبى بكر فقد رفض البيعة وقال لمعاوية :

(إنك والله لوددت أنا وكلناك فى أمر ابنك إلى الله .. وإنا والله لا نفعل .. والله لتردن هذا الأمر شورى فى المسلمين أو لتفرنّها عليك جذعة^(١))

(١) أى يتحول الأمر لفتنة

ثم خرج إلى مكة وهو رافض للبيعة وتوفى وهو على أبوابها ..
أما ابن الزبير فقال :

(إن كنت قد مللت الإمارة فاعتزلها وهلم ابنك فلنبايعه .. أرايت
إذا بايعت ابنك معك .. لأيكما نسمع ؟ .. لأيكما نطيع ؟ .. لا تجتمع
البيعة لكما أبداً)

و كان ابن الزبير يريد بمقولته هذه التملص من البيعة وهو أذكى
من أن يظن ان البيعة ستكون لهما في نفس الوقت .. كان يعلم تمام
اليقين أن البيعة ليزيد بعد وفاة معاوية ولكنه قال ما قال لأنه لم
يرد أن يبايع .. بعدها غادر هو الآخر إلى مكة واجتمع بالحسين
هناك .. أما عبد الله بن عمر فرفض المبايعة في البداية واختار أن
يبايع بعد مبايعة الناس كلها وقال لمعاوية :

(إنه قد كان قبلك خلفاء لهم أبناء ليس ابنك خيراً منهم فلم يروا
في ابنهم ما رأيت في ابنك ولكنهم اختاروا للمسلمين حيث علموا
الخيار .. وإنك تحذرني أن أشق عصا المسلمين ولم أكن لأفعل .. وإنما
أنا رجل من المسلمين فإذا اجتمعوا على أمرٍ فإنما أنا واحد منهم)^(١)

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي - ص ١٢٦

وقد ذكر ابن كثير رواية أخرى قال فيها أن معاوية قابل الخمسة المعترضين كل على حده وهددهم وخطب في الناس وهم قعود أمامه في الصف الأول ولم يعترض منهم أحد والله أعلى وأعلم ..

* * *

إجمالاً فإن كل من سبق ذكرهم لم يرفضوابيعة يزيد رفضاً لشخص يزيد وإنما كان أساس رفضهم هو مبدأ التوريث فيتحول الأمر من الشورى إلى ملكاً يتوارثه فرع واحد دون عامة المسلمين .. وفيما يخص معاوية نفسه فقد قيل أن إختياره ليزيد نابعاً من حب الوالد لولده وأنه رأى فيه تميزاً دنيوياً وكفاءة إدارية لم يجدها في غيره ورغم حبه ليزيد وقناعته به إلا أنه روى عنه أنه قال في خطبته :

(اللهم إن كنت تعلم أنى وليته لأنه فيما أراه أهل لذلك فأتهم له ما وليته .. وإن كنت تعلم أنى إنما وليته لأنى أحبه فلا تتم له ما وليته)^(١)

- يقول بن خلدون في مقدمته :

(والذى دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل

(١) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء الثامن - ص ٨٠

الحل والعقد عليه حينئذ من بنى أمية إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل الغلب منهم .. فأثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك .. وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه .. فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادهة وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق ^(١)

- ويقول الذهبي في أمر معاوية:

(حسبك بمن يؤمره عمر ثم عثمان على إقليم - وهو ثغر - فيضبطه ويقوم به أتم قيام ويرضى الناس بسخائه وحلمه وإن كان بعضهم تألم مرة منه وكذلك فليكن الملك .. وإن كان غيره من أصحاب رسول الله خيراً منه بكثير وأفضل وأصلح .. فهذا الرجل ساد وساس العالم بكمال عقله وفرط حلمه وسعة نفسه وقوة دهائه ورأيه وله هنات وأمور والله الموعود .. وكان محبباً على رعيته عمل نيابة الشام عشرين سنة والخلافة عشرين سنة ولم يهجه أحد في دولته بل دانت له الأمم وحكم على العرب والعجم وكان ملكه على الحرمين

(١) المقدمة لابن خلدون - الفصل الثلاثون - في ولاية العهد

ومصر والشام والعراق وخراسان وفارس والجزيرة واليمن والمغرب
وغير ذلك^(١)

فرحم الله معاوية والحسين والزبير وابن عمر وسائر صحابة
رسول الله ﷺ وغفر الله لهم ولأمة المسلمين جميعاً .. وإنما يجب
علينا أن نحسن الظن بهم جميعاً أيما إحسان .. فما أخذ أحدهم قراراً
ولا عارض أحدهم معارضة إلا إرضاءً لله ولعزة الإسلام .. ولم تكن
لهم أبداً مصلحة دنيوية في ملك أو سلطة وإنما هو الرأي والاجتهاد
لما فيه صالح الأمة ..

* * *

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي - الجزء الثالث - ص ١٣٢ : ١٣٣

الحسين بن علي .. الثائر الشهيد

بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان تقلد ابنه يزيد مسؤولية الإمارة فكان أول ما فكر فيه هو أخذ البيعة ممن امتنعوا عن بيعته في حياة والده وعلى رأسهم الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير فأرسل إلى واليه على المدينة الوليد بن عتبة لكي يأخذ البيعة منهما وبالفعل أرسل إليهما فذهب إليه الحسين واجتمع معه وسمع منه خبر وفاة معاوية وقرأ عليه كتاب يزيد يدعوه فيه إلى البيعة فلما انتهى قال الحسين :

(إنا لله وإنا إليه راجعون .. أما ما سألتني من البيعة فإن مثلي لا يعطى بيعته سراً ولا أراك تجتزئ بها مني سراً دون أن نظهرها على رؤوس الناس علانية)

فقال الوليد :

(أجل)

فقال :

(فإذا خرجت غداً إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا معهم فكان أمراً واحداً)^(١)

(١) تاريخ الطبري - الجزء الخامس - ص ٣٣٩ : ٣٤٠

وكان رضى الله عنه يؤجل المبايعة لغرض فى نفسه ألا وهو الخروج إلى مكة .. خبر خروجه وجد طريقه بشكل ما إلى العراق وتحديدًا إلى الكوفة .. والكوفة كانت المكان الذى اتخذه والده على بن أبى طالب رضى الله عنه مقراً للخلافة وبها أكبر عدد من المواليين له ولإبنه الحسن من بعده .. أهل الكوفة لما سمعوا بما حدث رأوا أنها أنسب فرصة لأن يتولى الحسين الخلافة فقاموا بالإجتماع فى بيت زعيمهم سليمان بن صرد واتفقوا على أن يرسلوا إلى الحسين رسائل يحثونه فيها على القدوم إلى الكوفة ليبايعونه .. وبالفعل بدأت الرسائل فى الوصول إلى الحسين تباعاً ..

(بسم الله الرحمن الرحيم .. لحسين بن على من شيعته من المؤمنين والمسلمين .. أما بعد .. فحيها .. فإن الناس ينتظرونك ولا رأى لهم فى غيرك .. فاعجل العجل والسلام عليك)

(أما بعد فقد أخضر الجنب وأينعت الثمار وطمّت الجمام .. فإذا شئت فأقدم على جند لك مجند والسلام)

تتابع الرسائل وكثرتها جعل الحسين يفكر فى الخروج إلى الكوفة بالفعل ولكنه أراد أن يستوثق منهم فقرر أن يبعث إليهم بكتاب قال فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم .. من الحسين بن علي إلى الملاء من المؤمنين والمسلمين .. أما بعد .. فإن هانياً وسعيداً^(١) قدما على بكتبكم وكانا آخر من قدم على من رسلكم .. وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم ومقالة جُلِّكم أنه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله يجمعنا بك على الحق والهدى .. وإنى باعث إليكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلماً بن عقيل وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم .. فإن كتب إلى أنه قد أجمع رأى ملاكم وذوى الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت على به رسلكم وقرأت كتبكم فإنى أقدم إليكم وشيكاً إن شاء الله والسلام)^(٢)

وصل مسلم بن عقيل إلى الكوفة فى أوائل شهر شوال عام ستين هجرياً ونزل فى دار المختار بن أبى عبيد الثقفى وبدأت الناس فى القدوم إليه لمبايعة الحسين وبالطبع كثرة التحركات لفتت الأنظار وهو ما التقطته العيون وأوصلته إلى يزيد بن معاوية الذى غضب بسبب عدم اتخاذ النعمان بن بشير عامله على الكوفة أى إجراء لإيقافه فقرر على الفور أن يعزله من منصبه وعين بدلاً منه رجلاً عُرف عنه الشدة والحزم .. عبيد الله بن زياد ..

(١) يقصد هانياً بن هانيء السبيعى وسعيد بن عبد الله الحنفى

(٢) تاريخ الطبرى - الجزء الخامس - ص ٣٥٣

فى تلك الأثناء وقبل أن يعلم مسلم بن عقيل أمر تولى ابن زياد ولاية العراق كان قد أرسل رسالة إلى الحسين رضى الله عنه قال فيها:

(أما بعد .. فإن الرائد لا يكذب أهله .. وأن جميع أهل الكوفة معك .. وقد بايعنى منهم ثمانية عشر ألفاً .. فعجل الاقبال حين تقرأ كتابى هذا)^(١)

كان هذا هو القول الفصل الذى انتظره الإمام الحسين ..

حان الآن وقت الخروج ..

بينما يتجهز الحسين ومن معه للخروج كان عبيد الله بن زياد يرتب الأوراق من جديد فى الكوفة .. أخذ الناس باللين تارة وبالشدة تارة أخرى .. أطلق عيونه فى الطرقات وبدأ يجمع المعلومات .. بدأ فى تضيق الخناق على حلفاء الحسين .. استغل الخدعة والمكيدة لمعرفة مكان إقامة مسلم بن عقيل .. بدأ فى الحصار النفسى على أتباع الحسين فرفع راية أمان لمن يتخلى عن ابن عقيل .. بدأ فى تخذيل الناس عن دعم الحسين وأصحابه .. كل هذا والتهديد بإيقاع أشد العقاب على من يثبت تورطه فى هذا التمرد يسرى بين الناس

(١) تاريخ الطبرى - الجزء الخامس - ص ٣٧٥

ليل نهار .. لم تكن النتيجة أكثر وضوحاً .. وجد مسلم بن عقيل نفسه وحيداً وقد انفض عنه من كانوا حوله فتم الإمساك به وأمر بن زياد بقتله ..

أثناء ذلك كان الحسين يتجهز للخروج وقد انتشر الخبر بين الناس ومع إنتشاره هرع إليه كثير من الصحابة محاولين إثنائه منعاً لشق الصف .. كثير من الصحابة حذروه إلا أنه تمسك برأيه وقد يكون تمسكه نابع من كثرة الرسائل والتطمينات التي وصلتته من الكوفة عن إستتباب الأمور هناك .. أخاه محمد بن الحنفية .. عبد الله بن عمر .. عبد الله بن جعفر .. حتى عبد الله بن الزبير أحد أكبر المعارضين ليزيد حذره وقتها قائلاً :

(أين تذهب .. إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك)^(١)

أما عبد الله بن عباس فقال له :

(استشارني الحسين بن علي في الخروج فقلت .. لولا أن يُزرى بى وبك)^(٢) لشبثت يدي في رأسك)^(٣)

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي - الجزء الثالث - ص ٢٩٣

(٢) الإزراء : التهاون بالشيء والمراد يستهان بنا

(٣) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء الثامن - ص ١٥٩

أما أبو سعيد الخدري فقال له :

(يا أبا عبد الله .. إنى لك ناصح ومشفق .. وقد بلغنى أن قوماً من شيعتكم كاتبوك فلا تخرج .. فإنى سمعت أباك بالكوفة يقول .. والله إنى لقد مللتهم وأبغضونى وملونى وما بلوت منهم وفاء ومن فاز بهم فإنما فاز بالسهم الأخيب .. والله ما لهم ثبات ولا عزم ولا صبر على السيف)^(١)

إحدى النساء تدعى عمرة بنت عبد الرحمن كتبت إليه قائلة :

(حدثتنى عائشة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : يقتل الحسين بأرض بابل)
فلما قرأ كتابها قال :

(فلا بد إذاً من مصرعى)^(٢)

كانت التحذيرات كثيرة ومتعددة ولكنه رضى الله عنه كان قد عقد العزم على الخروج ..

(١) تاريخ الإسلام للذهبي - الطبقة السابعة - حوادث سنة إحدى وستين

(٢) من مشكاة النبوة - ص ١١٧

لما علم يزيد بن معاوية بأمر الحسين أرسل كتاباً إلى عبيد الله بن زياد قال فيه :

(بلغني أن الحسين بن علي قد توجه إلى العراق فضع المناظر والمسالح واحترس على الظن وخذ على التهمة غير لا تقتل إلا من قاتلك^(١))

و بناءً على ذلك جهز عبيد الله سرية قدرت بأربعة آلاف جندي وأخرج على رأسها قائد شرطته الحصين بن نمير لحين تجهيز باقي الجيش .. الحصين بدوره أخرج فرقة من السرية قدرت بألف جندي وضع عليها الحر بن يزيد ليسرع ويعترض طريق الحسين .. في ذلك الوقت كان عبيد الله قد سيطر على الكوفة تماماً فأصبح الحسين في طريقه وحيداً لا يرافقه إلا قرابة الثمانين فرد أغلبهم من أهل بيته ولم يمر وقت طويل حتى وجدت السرية الحسين وأصحابه فاستوقفوهم وأخبروهم بما حدث في الكوفة وأن مسلم بن عقيل قد قتل وأن شيعته قد تفرقت عنه فحزن الإمام الحسين أيما حزن وقرر أن يعود إلى مكة مرة أخرى فقال للحر ومن معه :

(أيها الناس .. إنها معذرة إلى الله وإليكم إنني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا إمام لعل الله أن يجعلنا بكم

على الهدى فقد جئتمكم .. فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم أقدم مصركم وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلنا منه)

إلا أن الحر وفرقته حالوا بينهم وبين الإنصراف فقال له الحسين :

(ما تريد ؟)

فقال الحر :

(أريد والله أن انطلق بك إلى عبيد الله بن زياد)

فرفض الحسين ورفض الحر غير ذلك وكثر الجدل بينهما حتى قال له الحر :

(إنى لم أؤمر بقتالك وإنما أمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة .. فاذا أبيت فخذ طريقاً لا تدخل الكوفة ولا تردك إلى المدينة لتكون بينى وبينك نصفاً حتى أكتب إلى ابن زياد وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية إن أردت أن تكتب إليه أو إلى عبيد الله بن زياد إن شئت .. ففعل الله إلى ذاك أن يأتى بأمر يرزقنى فيه العافية من أن أبتلى بشيء من أمرك)^(١)

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير - ٤/٤٥ - ص ٥١٠

استمرت مسيرة الطرفين حتى وصلوا إلى كربلاء في الثاني من محرم عام واحد وستين هجرياً وما هي إلا فترة قصيرة حتى لحق بهم الجيش الذي أعده عبيد الله لملاقاة الحسين وكان على رأسه عمر بن سعد بن أبي وقاص فعسكر الجيش على مقربة من ركب الحسين وبدأت المفاوضات بين الفريقين فكان عمر يطلب منه العودة إلى الكوفة فيسلمه إلى عبيد الله والحسين يرفض العودة ويعرض خيارات أخرى وهي :

– أن يعود من حيث أتى

– أن يخرج إلى ثغر من الثغور فيجاهد في سبيل الله

– أن يذهب إلى يزيد في الشام فيصل معه إلى حل

وهي خيارات كانت هي الأوقع وقتها وتنزع فتيل الأزمة وتضع الحل النهائي في يد يزيد بن معاوية .. حلولا استحسناها عمر بن سعد فقرر على الفور أن يبعث بها إلى عبيد الله بن زياد فقال :

(أما بعد .. فإن الله تعالى قد أطفأ النائرة وجمع الكلمة وأصلح أمر الأمة .. هذا الحسين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى أو أن يسير إلى ثغر من الثغور فيكون رجلاً من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم أو أن يأتي أمير المؤمنين يزيد فيضع يده في يده فيرى فيما بينه وبينه رأيه .. وفي هذا لك رضى ولأمة صلاح)

فلما قرأ بن زياد الكتاب أثنى عليه وقال :

(هذا كتاب ناصح لأميره مشفق على قومه)

إلى هنا كان كل شيء يسير على ما يرام لولا وجود أحد شياطين
الإنس بجوار بن زياد ..

شمر بن ذى الجوشن ..

شمر كان واحداً من أصحاب الفتن وكان آخر ما يتخيله هو قبول
بن زياد بهذا الكتاب فقرر أن يدخل إليه من باب الكبرياء والكرامة
فاستثاره قائلاً :

(أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك .. والله لئن رحل
من بلادك ولم يضع يده فى يدكم ليكونن أولى بالقوة والعز ولتكونن
أولى بالضعف والعجز .. فلا تعطه هذه المنزلة فإنها من الوهن ولكن
لينزل على حكمك هو وأصحابه .. فإن عاقبت فأنت ولى العقوبة وإن
غفرت كان ذلك لك)

ثم أكمل يريد أن يوغر صدر ابن زياد من عمر بن سعد فقال :

(والله لقد بلغنى أن حسيناً وعمر بن سعد يجلسان بين العسكرين
فيحدثان عامة الليل)

وجدت مقولة شمر صداها في نفس عبيد الله للأسف فأرسل كتاباً غاضباً مع شمر إلى عمر بن سعد يأمره فيه بأن يأتي بالحسين جبراً وإلا فليقاتلهم وهدده بأنه إذا لم يقم بقتالهم فليتنحى عن قيادة الجيش ويسلمها لشمر بن ذى الجوشن فانطلق شمر سعيداً بما حققه وسلم الكتاب إلى عمر الذى صدم مما فيه فقال له :

(ما لك ويلك لا قرب الله دارك وقبح الله ما قدمت به على .. والله إنى لأظنك أنت الذى نهيتك أن يقبل ما كتبت به إليه وأفسدت علينا أمراً كنا قد رجونا أن يصلح .. لا يستسلم والله حسين .. إن نفس أبيه لبيّن جنبه)

فقال له شمر :

(أخبرنى بما أنت صانع .. أتمضى لأمر أميرك وتقاتل عدوه .. وإلا فخل بينى وبين الجند والعسكر)
قال :

(لا .. ولا كرامة لك .. ولكن أنا أتولى ذلك دونك)^(١)

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر - الجزء الخامس والأربعين - ص ٥١ : ٥٢

أرسل عمر بن سعد الرد النهائي إلى الحسين الذي رفض الإستسلام ووقف وقد نظم صفوف جيشه الصغير وانتظر هجوم جيش الكوفة ولم يبدأهم بالقتال .. فى الناحية الأخرى كان الترقب والقلق واضحاً جلياً على الجنود .. لم يكن يتوقع أحداً أن تصل الأمور إلى تلك المرحلة .. إنه الحسين .. ابن بنت رسول الله ﷺ .. ريحانته من الدنيا هو وأخيه الحسن .. الذى قال عنهم رسول الله ﷺ :

(اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما)

كان الوضع صعباً للغاية ولكن فى النهاية لم يكن أحد ليستطيع رفض أمر عبيد الله بن زياد وهو القائد المباشر الذى أمر باستخدام أسلوب التخويف من الشقاق فكان قادة السرايا ينادون فى الجنود :

(يا أهل الكوفة .. الزموا طاعتكم وجماعتكم ولا ترتابوا فى قتل من مرق من الدين وخالف الإمام)^(١)

كانوا يستحثون الجيش على الطاعة ولزوم الجماعة معتبرين الحسين رضى الله عنه وأصحابه مارقون من الدين ولا حول ولا قوة إلا بالله ..

أما عن المعركة فكانت قصيرة لم تستمر طويلاً بسبب إختلال ميزان القوى .. هنا جيش كامل مجهز بالعدة والعتاد وهناك مجموعة

(١) تاريخ الطبرى - الجزء الخامس - ص ٤٣٥

لا تتخطى الثمانون رجلاً .. فى البداية بدأ الرماة يمطرون الحسين وأصحابه بالسهم فأصيب منهم من أصيب .. بعدها ضغطت السرية التى يقودها شمر على الباقين من أصحاب الحسين ودار بينهما القتال لمدة ساعة تقريباً صمد فيها أصحاب الحسين قدر استطاعتهم ولما انقشع الغبار ظهر أن أكثر من نصف جيش الحسين قد وقع صريعاً والباقي منهم مستمر فى الدفاع عنه وهو وسطهم تقريباً ..

بعد أقل من ساعة لم يتبقى من الجيش أحد ..

لم يتبقى منهم إلا الحسين نفسه ..

لم يتبقى فى الميدان إلا الحسين وكلما اقترب منه أحد الجند ليقتله لا يجرؤ فيرجع عنه .. لم تستطع أخته زينب الصبر على ما يجرى فخرجت وكان عمر بن سعد يقف على مسافة مما يجرى فنظرت ناحيته وصاحت :

(يا عمر .. أرضيت أن يقتل أبو عبد الله وأنت تنظر ؟)

فلم يتمالك نفسه وانهمرت دموعه وصرف وجهه عنها فلما رأى الجنود ذلك منه انصرفوا عن الحسين وتراجعوا .. ربما لكان الموقف انتهى عند هذا وكان انتهى الامر بالقبض على الحسين

إلا أن شيطان ذلك الزمان وقف لذلك بالمرصاد .. شمر بن ذى الجوشن مرة أخرى لما رأى الجنود يحجمون عن التقدم وقف وصرخ فيهم:

(ويحكم .. ماذا تنتظرون بالرجل .. اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم)^(١)

فقام أحد أتباعه برمييه بسهم أصابه فى نحره سقط بسببه على الأرض وبسقوطه اجتمع عليه ملاً من القوم يضربونه بالسيف والرمح فضربه زرعة بن شريك التميمي على كتفه اليسرى وضربه بعضهم على عاتقه ثم انفضوا عنه وهو يكبو على الأرض يحاول الوقوف فلما رآه سنان بن أنس النخعي يحاول القيام مرة أخرى طعنه بالرمح فأسقطه على الأرض واحتز رأسه وأعطاها لخولى بن يزيد الأصبحي وقيل فى رواية أخرى أن الذى ذبحه هو شمر بن ذى الجوشن ..

وانتهت المعركة بمقتل الحسين وقد وجد فى جسده الشريف ثلاثة وثلاثون جرحاً وتوفى معه كل أصحابه ما عدا ابنه على زين العابدين لأنه كان مريضاً فى ذلك اليوم ..

(١) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء الثامن - ص ١٨٧

بعدها أرسلت رأس الحسين إلى عبيد الله بن زياد في الكوفة فجعلوه في طست ووضعوه أمامه فراح يحرك رأسه الشريف بقضيب كان في يده وقتها قائلاً له :

(لقد كنت جميلاً)

فقال له أنس بن مالك :

(والله إنه كان أشبههم برسول الله ﷺ وكان مخضوباً بالوسمة)^(١)

و يبدو أنه لما قال له ذلك خاف بن زياد وانقبض قلبه وبدأ يشعر بالندم وحاول أن يصلح ولو قليلاً مما فعله فأمر لنساء الحسين وأهله بمنزل في مكان معتزل عن الناس وأجرى لهم الرزق وأمر لهم بنفقة وكسوة .. وبالرغم من كون ندمه جاء متأخراً جداً إلا أن بعض الروايات ذكرته ومنها رواية ابن كثير التي قال فيها :

(انطلق غلامان ممن كانا مع الحسين من أولاد عبد الله بن جعفر فأتيا رجلاً من طيء فلجئاً إليه مستجيرين به ف ضرب أعناقهما وجاء برأسيهما لابن زياد فغضب ابن زياد وهم بضرب عنقه وأمر بداره فهدمت)^(٢)

(١) مشكاة المصابيح للتبريزي - الجزء الأول ص ١٨

(٢) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء الثامن - ص ١٧١

أما بخصوص يزيد بن معاوية فقد وصلته الأخبار وهو في الشام وأشهر الروايات التي حكّت ذلك الموقف هي رواية ابن كثير التي رواها عن أحد شهود العيان وهو الغاز بن ربيعة الجرشي حين قال :

(والله إننى لعند يزيد بن معاوية بدمشق إذ أقبل زحر بن قيس فدخل على يزيد فقال له يزيد : ويحك .. ما وراءك ؟ فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله عليك ونصره ورد علينا الحسين بن علي بن أبي طالب وثمانية عشر من أهل بيته وستون رجلاً من شيعته فسرنا إليهم فسألناهم أن يستسلموا وينزلوا على حكم الأمير عبيد الله بن زياد أو القتال فاختاروا القتل .. فغدونا إليهم مع شروق الشمس فأحطنا بهم من كل ناحية حتى أخذت السيوف مأخذها من هام القوم فجعلوا يهربون إلى غير مهرب ولا وزر .. ويلوذون منا بالآكام والحفر لوإذا كما لاذ الحمام من صقر .. فوالله ما كانوا إلا جزر جزور أو نومة قائل^(١) حتى أتينا على آخرهم .. فهاتيك أجسادهم مجردة وثيابهم مزملة وخدودهم معفرة تصعرهم الشمس وتسفى عليهم الريح زوارهم العقبان والرّخم^(٢))

فدمعت عينا يزيد بن معاوية وقال :

(١) يقصد فترة قصيرة

(٢) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء الثامن - ص ١٩١

(قد كنت أَرْضى من طاعتكم بدون قتل الحسين .. لعن الله ابن سمية^(١) .. أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه ورحم الله الحسين)
و قيل أنه لما علم ببغض الناس له لقتله الحسين وسبهم إياه ندم على ما فعل وقال :

(وما على لو احتملت الأذى وأنزلت الحسين معى وحكمته فيما يريد وإن كان على فى ذلك وهن حفظاً لرسول الله ﷺ ورعاية لحقه .. لعن الله ابن مرجانة^(٢) فإنه أخرجته واضطره .. وقد كان سأل أن يخلى سبيله أن يرجع من حيث أقبل أو يأتينى فيضع يده فى يدى أو يلحق بثغر من الثغور فأبى ذلك عليه وقتله فأبغضنى بقتله المسلمون وزرع لى فى قلوبهم العداوة فأبغضنى البر والفاجر بما استعظموه من قتلى الحسين .. ما لى ولا بن مرجانة .. لعنه الله وغضب عليه)^(٣)

قتل الحسين يعتبر كارثة ومصيبة على أمتنا الإسلامية نعانى منها حتى يومنا الحالى ولا يزال الجرح ينزف لا نجد سبيلاً لعلاجـه ويكفى ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية فى هذا الشأن حين قال :
(قتل الحسين مصيبة من أعظم المصائب ينبغى لكل مسلم إذا ذكرها أن يقول إن الله وإننا إليه راجعون)

(١) يعنى عبيد الله بن زياد

(٢) يعنى عبيد الله بن زياد

(٣) الكامل فى التاريخ - ٨٨/٤ - ص ٥٢٣

معارضة عبد الله بن الزبير للحكم الوراثي

عبد الله بن الزبير بن العوام ..

جده لأمه هو أبى بكر الصديق أحد العشرة المبشرين بالجنة
وثانى اثنين إذ هما فى الغار .. أبوه هو الزبير بن العوام أحد العشرة
المبشرين بالجنة وهو أبى عمه النبى ﷺ صفية بنت عبد المطلب ..
أمه هى أسماء بنت أبى بكر ذات النطاقين .. خالته هى السيدة
عائشة أم المؤمنين وزوج رسول الله ﷺ ..

أما عبد الله بن الزبير نفسه فكان أول مولود للمسلمين فى المدينة
بعد الهجرة وقد فرحوا به فرحاً عظيماً ذلك لأن اليهود أشاعوا
أنهم قد صنعوا سحر للمسلمين فلا يولد لهم ولد فكان ميلاد عبد الله
تكذيباً وخزياً لهم ..

عبد الله وما أدراكم من هو عبد الله .. أول ما ولد وضعوه فى حجر
النبى ﷺ فطلب أن يأتوه بتمره فمضغها ثم تفل فى فم عبد الله فكان
أول ما دخل جوفه هو ريق رسول الله ﷺ وهو من أسماء عبد الله ..
لما ولد حمله جده أبو بكر وطاف به المدينة إبطالاً لشائعة اليهود
فكان المسلمون يكبرون خلفه فرحاً به ..

عبد الله بن الزبير العالم الوقور الزاهد العابد الفقيه في الدين
على الهمة شديد الخشوع .. أقرب الناس شبيهاً بجده أبي بكر في
الهيئة والشكل ونبرة الصوت وطريقة الكلام حتى إذا تحدث ظن
الناس أن أبا بكر لا زال حياً ..

رضي الله عن عبد الله بن الزبير ..

هو بطل صفحاتنا التالية ..

كما أسلفنا فبعد تولية يزيد ركز جهوده على أخذ البيعة ممن
رفضوا مبايعته في حياة والده وعلى رأسهم الحسين بن علي وعبد الله
بن الزبير وانتهى أمر الحسين بمقتله في كربلاء فتوجهت أنظاره
بعدها ناحية بن الزبير الذي كان يدرك خطورة موقفه وما زاد من
تلك الخطورة هو عدم تحرك الناس بعد مقتل الحسين .. نعم الضيق
والتذمر كان واضحاً عليهم لكن أحداً منهم لم يتحرك فقرر ابن الزبير
أن يستغل تلك المشاعر التي اختلجت في صدور الناس وينميها دعماً
لموقفه الرافض من المبايعة فوقف يوماً بين الناس وخطب فيهم قائلاً:

(إن أهل العراق غدر فُجر إلا قليلاً .. وإن أهل الكوفة شرار أهل
العراق وإنهم دعوا الحسين لينصروه ويولوه عليهم فلما قدم عليهم
ثاروا عليه فقالوا : إما أن تضع يدك في أيدينا فنبعث بك إلى ابن

زياد ابن سمية فيمضى فيك حكمه وإما أن تحارب فرأى والله أنه هو وأصحابه قليل في كثير فإن كان الله لم يطلع على الغيب أحداً أنه مقتول ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة فرحم الله الحسين وأخزى قاتله .. أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه .. كثيراً في النهار صيامه .. أحق بما هم فيه منهم وأولى به في الدين والفضل .. أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء .. ولا بالبكاء من خشية الله الحداء .. ولا بالصيام شرب الخمر .. ولا بالمجالس في حلق الذكر تطلاب الصيد^(١) فسوف يلقون غياً^(٢)

خطاب مثل هذا واجتماع الناس على ابن الزبير بهذا الشكل بالطبع سيصل إلى يزيد الذي رفض أن تتعقد الأمور أكثر مع شخصية مثل ابن الزبير خاصة بعد ما حدث مع الحسين في كربلاء فآثر السلامة وأرسل إلى ابن الزبير كتاباً يذكره فيه بفضائله قال فيه :

(أذكرك الله في نفسك فإنك ذو سن من قريش وقد مضى لك سلف صالح وقدم صدق من اجتهاد وعبادة .. فأربب صالح ما مضى ولا تبطل ما قدمت من حسن وادخل فيما دخل فيه الناس ولا تردهم في فتنة ولا تحل ما حرم الله)

(١) بهذا هو ينتقص من يزيد

(٢) تاريخ المقريزي الكبير - الجزء الرابع - ص ٢٢٣

فى ناحية يوجد يزيد الذى يرى أنه الخليفة الشرعى وأمير المؤمنين الواجب طاعته بعد مبايعة الناس له .. وفى الناحية الأخرى يوجد بن الزبير الذى يرى أن اختيار يزيد لم يتم بالشورى وإنما باختياره تحولت الخلافة من الشورى إلى الوراثة فكان يعتبر خروجه عليه وتغييره للواقع بقوة السلاح إنما هو تقرباً إلى الله وجهاداً فى سبيله ..

و قد روى عنه أنه قال يوم وفاته :

(والله لقد مللت الحياة .. ولقد جاوزت سن أبى هذه .. لى سنتان وسبعون سنة .. اللهم إنى قد أحببت لقاءك فاحبب لى .. وجاهدت فىك عدوك فأثبني ثواب المجاهدين)^(١)

كانت الأمور متشابكة والدوافع تقريباً واحدة ومتكررة .. خليفة يؤمن بشرعية خلافته .. ومعارضة ترى أنها على الحق .. بالأمس كان الحسين .. واليوم يوم ابن الزبير ..

رفض ابن الزبير كتاب يزيد وأبى أن يبائع واستمر فى تذكير الناس بنواقصه وما يتردد عليه من شبهات فغضب يزيد مما تصرفاته

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر - الجزء الثامن والعشرون - ص ٢٢٦

وفى ذروة غضبه أقسم ألا يقبل بيعته إلا بعد أن يأتيه مغلولاً فى جامعة^(١) .. قسماً وإن قيل فى لحظة غضب إلا أن يزيد أصر على تنفيذ هذه على الرغم من محاولة ابنه معاوية بن يزيد أن يثنيه عنه لعلمه بشخصية ابن الزبير وأنه سيرفض هذا بالتأكيد إلا أن يزيد أصر على البر بقسمه وأرسل لابن الزبير وفداً من الشام ومعه جامعة من فضة وبرنساً من خَز^(٢) ليُعطى به فلا يعلم الناس أنه مقيد وظن أنه بهذا سيحافظ على صورة بن الزبير فيغريه بالقبول وأمر وفده بالتلطف معه وهو ما حدث حين أتى الوفد مكة فتكلم عنه ابن عضاة الأشعري فقال :

(يا أبا بكر .. قد كان من أثرك فى أمر الخليفة المظلوم^(٣) ونصرتك إياه يوم الدار ما لا يُجهل .. وقد غضب أمير المؤمنين بما كان من إبانك مما قدم عليك فيه النعمان بن بشير وحلف أن تأتيه فى جامعة خفيفة لتحل يمينه فالبس عليها برنساً فلا ترى .. ثم أنت الأثير عند أمير المؤمنين الذى لا يُخالف فى ولاية ولا مال)^(٤)

(١) الجامعة هى قيد يوضع فى العنق ويتصل بالمعصمين فتكون الأيدى مقيدة بالعنق

(٢) صوف

(٣) يعنى عثمان بن عفان

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر - الجزء الثالث والسبعون - ص ٢٣١

فلما سمع ابن الزبير منهم استأذنهم بضعة أيام للتفكير استشار فيها أمه أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنها فقالت :

(يا بنى .. عش كريماً ومت كريماً ولا تُمكن بنى أمية من نفسك فتلعب بك فالموت أحسن من هذا)

فجاءهم رده بالرفض مرة أخرى وهو ما جعل ابن عضاة يحتد عليه ويهدده بالقتل فقال له بن الزبير :

(إنما أنا بمنزلة حمام من حمام مكة .. أفكنت قاتلاً حماماً من حمام مكة ؟)

فقال ابن عضاة :

(نعم .. وما حرمة حمام مكة .. يا غلام ائتنى بقوسى وأسهمى)

فلما أتاه بهما أخذ سهماً ثم سدده نحو حمامة من حمام المسجد وقال :

(يا حمامة .. أيشرب يزيد الخمر .. قولى نعم .. فوالله لئن فعلت لأرمينك .. يا حمامة .. أتخلعين يزيد بن معاوية وتفارقين أمة محمد ﷺ وتقيمين فى الحرم حتى يُستحل بك .. والله لئن فعلت لأرمينك)



فقال ابن الزبير :

(ويحك .. أو يتكلم الطائر ؟)

قال :

(لا .. ولكنك يا ابن الزبير تتكلم .. أقسم بالله لتبايعن طائعاً
أو مكرهاً أو لتعرفن راية الأشعريين في هذه البطحاء .. ولئن أمرنا
بقِتالِك ثم دخلت الكعبة لنهدمناها أو لنحرقنها عليك)

فقال ابن الزبير :

(أو تستحل الحرم والبيت ؟)

قال :

(إنما يستحله من أحد فيه)

فحبسهم شهراً ثم ردهم إلى يزيد دون أن يعطيه شيئاً وسار بين
الناس يقول :

(اللهم إني عائذ ببيتك)^(١)

رفضاً يليه رفض ..

هذا لن يستمر إلى الأبد بالتأكيد ..

(١) تاريخ المقريزي الكبير - الجزء الرابع - ص ٢٢٥

فى نفس العام حجَّ عبد الله بن الزبير مع عمرو بن سعيد عامل يزيد على الحجاز فلم يصل بصلاته ولم يفيض بإفاضته وكان هذا أحد أكثر الأعمال ثورية من قبل بن الزبير حيث أنها تعنى المفارقة الكاملة لسلطة الدولة فأصبح يتصرف بأمره الشخصى دون إعتبار لسلطة يزيد حتى إنه منع الحارث بن خالد المخزومى نائب عمرو بن سعيد على مكة من الصلاة بالناس .. هذا مستوى آخر من التحدى .. مستوى غير مسبوق إذا شئنا الدقة .. لما علم يزيد بما حدث أمر عمرو بن سعيد أن يُسَير إلى بن الزبير جنداً فاحتار عمرو فيمن يرسل على الجند فسأل من هو أكثر الناس عداءً لابن الزبير فقالوا له شقيقه عمرو بن الزبير فاختره على رأس الجند ..

عُرف عن عمرو بن الزبير أنه كان كثير العجب بنفسه وأنه كان موال لبني أمية وأنه كان كارهاً لأخاه عبد الله بسبب خروجه على طاعة يزيد .. أيضاً عرف عنه أنه كان يعذب من كان يذكر أخاه عبد الله بخير أو حتى يُظهر التعاطف معه حتى هرب منه الكثير ولجأ إلى عبد الله بن الزبير فى مكة من شدة الإضطهاد ..

خرجت فرقة عمرو بن الزبير من المدينة المنورة فى ألف جندى ووضع عمرو على مقدمتها أنيس بن عمرو الأسلمى فى سبعمائة من الجند ثم تفرقا فنزل أنيس بذى طوى ونزل عمرو بالأبطح وما أن

وصل عمرو حتى أرسل إلى أخيه أن يمثل ليمين يزيد وبدأت المفاوضات بينهم وعبد الله يرفض أن يلبس الجامعة طالباً منه أن يخاطب يزيد فرفض عمرو مخاطبته وتعدت المفاوضات بينهما .. بعد ذلك التعثر قرر ابن الزبير بعد مشاورة أصحابه أن يهاجم الفرقة الأموية فأرسل فرقتين للإحاطة بهم وبالفعل نجحوا في هزيمتهم وقتل أنيس بن عمرو في ذي طوى بينما هزم عمرو بن الزبير قائد الجيش في الأبطح واستجار بأخاه الثالث عبيدة بن الزبير ليتوسط له عند عبد الله وقد حاول بالفعل إلا أن عبد الله قال له :

(أما حقى فنعم .. وأما حق الناس فلاقتصن منه لمن أذاه في المدينة)

ولما كان عمرو بن الزبير قد عذب كثيراً من الموالين لعبد الله في المدينة فقد مات تحت السياط وهم يقتصون منه ..

بمقتل عمرو بن الزبير طويت أولى صفحات القتال بين بنى أمية وابن الزبير الذي استطاع بذكائه أن يجمع حوله كثير من الناس واستطاع أيضاً أن يُظهر يزيد بمظهر الحاكم المتسلط الغير مؤهل لولاية المسلمين وبدأ في استغلال أخطائه في خدمة قضيته ..

- استخدم تسرع يزيد في قسمه .. فلن يقبل الصحابة وأبناءهم في مكة بإقتياد صحابي جليل مثل ابن الزبير بهذه الطريقة
- استخدم خطأ يزيد بتسيير جيش إلى مكة وهي البلد الحرام
- استخدم غضب الناس وحزنهم على مقتل الحسين
- استخدم الشبهات التي تردت على يزيد في ذلك الوقت
- استخدم تجبر أخاه عمرو بن الزبير وتعذيبه للموالين له في المدينة
- استخدم العامل النفسى فأطلق على نفسه إسماً مؤثراً هو العائد بالله
- كل تلك العوامل أظهرت ابن الزبير بمظهر المدافع عن بيت الله الحرام وأن يزيد وعماله هم من يتجرأون على البلد الحرام فيغزونها ويُسَيِّرون الجيوش للهجوم عليها وأن يزيد ما هو إلا رجل لم يتم إختياره بالشورى وبالتالي فمعارضته صحيحة والخروج عليه وقاتله ضرورة استوجبتها مقتضيات الأمور ..

موقعة الحرّة

مقتل الحسين بن علي كان أمراً فارقاً .. ما بعد مقتل الحسين ليس كما قبله بالتأكيد .. وكما أسلفنا فقد تركزت المعارضة في مكة والمدينة بحكم أنه يعيش بهما صحابة رسول الله ﷺ وكثير من التابعين وهم أكثر من احتكوا بالخلافة الراشدة وبالتالي كانوا أكثر الناس رفضاً لفكرة توريث الحكم .. مقتل الحسين كانت القشة التي قصمت ظهر البعير وبدأ أن أهل المدينة قد مالوا إلى رأى عبد الله بن الزبير وبدأ الحديث يكثر عن يزيد وأفعاله وعن الشبهات التي أحاطت بأسلوب معيشته .. يزيد اعتبر أن تداول مثل هذه الأحاديث دون تدخل من عمرو بن سعيد لمنعها يعتبر تساهلاً من طرفه فقام بعزله وعين مكانه الوليد بن عتبة أملاً في ضبط أوضاع المدينة وهو ما لم يأتى بنتيجة تذكر فقام بعزله هو الآخر وعين بدلاً منه عثمان بن محمد بن أبي سفيان فقرر عثمان أن يجمع وفداً من أهل المدينة ليذهبوا لمقابلة يزيد في الشام لعل بلقائهم يصلح الله ما بينهم ..

وصل الوفد إلى دمشق فالتقى بهم يزيد وأكرمهم وأحسن إليهم وأجازهم بمئة ألف درهم ثم عادوا مرة أخرى إلى المدينة وما أن عادوا حتى بدأوا في ذم يزيد وشتمه وأمعنوا في إنتقاصه حتى وصل بهم الأمر أن قالوا :

(قدمنا من عند رجل ليس له دين .. يشرب الخمر .. وتعزف عنده القينات بالمعارف .. وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه)^(١)

فلما سمع يزيد بما جرى من الوفد وكان ضمنه المنذر بن الزبير أكثر من سبه منهم قال :

(اللهم إني آثرته وأكرمته ففعل ما قد رأيت فأدركه وانتقم منه)^(٢)

و يبدو أن الوضع السياسي وقتها وكراهية أهل مكة والمدينة ليزيد بسبب مقتل الحسين قد جعلوا لشهادة الوفد وجهة لا يمكن إنكارها فأعلنوا خلع يزيد وولوا عليهم عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر فأرسل يزيد إليهم النعمان بن بشير ليحذرهم مغبة فعلهم ويخوفهم الفتنة والشقاق وأن يلزموا الجماعة فقال لهم النعمان :

(إن الفتنة وخيمة وأن لا طاقة لكم بأهل الشام)

فقال له عبد الله بن مطيع :

(ما حملك يا نعمان على تفريق جماعتنا وفساد ما أصلح الله من أمرنا ؟)

(١) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء الثامن - ص ٢١٦

(٢) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء الثامن - ص ٢١٦

فقال :

(أما والله لكأنى بك لو قد نزلت تلك التى تدعو إليها^(١) وقامت الرجال على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف ودارت رحا الموت بين الفريقين .. وكأنى بك قد ضربت جذب بغلتك إلى مكة^(٢) وخلفت هؤلاء المساكين^(٣) يُقتلون فى سلكهم ومساجدهم وعلى أبواب دورهم^(٤))

حديث النعمان رغم واقعيته لم يجد صدى عندهم ويجوز أن ذلك بسبب تكرار الحديث عن نواقص يزيد ولهوه ولعبه فكان هذا كافياً لهم وتضاغرت أمامه أقوال من يريد إثناؤهم عن المواجهة ..

و هل هناك آخرين حاولوا ؟

بالطبع هناك ..

(١) يقصد الحرب

(٢) أى تركتهم وهربت

(٣) يعنى أهل المدينة

(٤) تاريخ الطبرى - الجزء الخامس - ص ٤٨١

عبد الله بن عمر جمع أهله وقال ناصحاً لهم :

(ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة .. وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله .. وإنى لا أعلم غدرًا أعظم من أن يبايع رجل على بيعة الله ورسوله ثم ينصب له القتال .. وإنى لا أعلم أحداً منكم خلعه ولا تابع فى هذا الأمر إلا كانت الفيصل بينى وبينه)^(١)

موقف آخر لعبد الله بن عمر لما رأى عبد الله بن مطيع يحاول الهروب من المدينة بعد موقعة الحرّة تهرباً من البيعة ليزيد فقال له :

(أين تريد يا ابن عم ؟)

فقال :

(لا أعطيهم طاعة أبداً)

فقال ابن عمر :

(لا تفعل)^(٢) .. فإنى أشهد أنى سمعت رسول الله يقول : من مات ولا بيعة عليه مات ميتة جاهلية)^(٣)

(١) المذهب فى إختصار السنن الكبير للبيهقى - الجزء السادس - ص ٣٢٦٢

(٢) أى لا تخرج

(٣) مسند الإمام أحمد - الجزء الخامس - ص ١٠٨

محمد بن الحنفية شقيق الإمام الحسين جادلهم ونفى تهمة شرب الخمر عن يزيد ولم يشارك أهل المدينة طوال فترة القتال وكان معه على بن الحسين .. سعيد بن المسيب اعتزل الفتنة ولزم المسجد من النهار إلى الليل .. أما عبد الله بن جعفر فكان في الشام عند يزيد قبل تحرك الجيش وحاول أن يثنيه عن قتال أهل المدينة فذكره بفضائلهم وسابقتهم فقال :

(إنما تقتل بهم نفسك)

فتجاوب معه يزيد وقال :

(فإنني أبعث أول جيش وأمرهم أن يمروا بالمدينة إلى ابن الزبير فإنه قد نصب لنا الحرب ويجعلوها طريقاً ولا يقاتلوهم .. فإن أقر أهل المدينة بالسمع والطاعة تركهم)

فكتب عبد الله إلى أهل المدينة يخبرهم بذلك فقال :

(استقبلوا ما سلف واغنموا السلامة والأمن ولا تعرضوا لجنده ودعوهم يمضون عنكم)

فكان ردهم :

(لا يدخلها علينا أبداً)^(١)

(١) طبقات بن سعد - الجزء السابع - ص ١٤٥

عثمان بن محمد بن أبي سفيان والى المدينة كان شاباً صغيراً
 فطمع به أهل المدينة وعزلوه ثم سيطروا على الأماكن الحيوية بها
 .. المسجد .. بيت المال .. دار القضاء .. وما أن إمتلكوا زمام الأمور
 حتى بدأوا فى مطاردة من يعيش فى المدينة من بنى أمية فحاصروهم
 فى دار مروان بن الحكم وقيل أن عددهم كان قرابة الألف شخص
 فلما وصل أمرهم إلى يزيد غضب غضباً شديداً وأمر الجيش الذى كان
 قد جهزه لملاقاة ابن الزبير بأن يتوجه إلى المدينة فيقاتل من تراجع
 عن بيعته وكان على رأس الجيش مسلم بن عقبة المرى وكان شيخاً
 كبيراً فقال له يزيد :

(ادع القوم ثلاثاً فإن أجابوك وإلا فقاتلهم .. فإذا ظهرت عليهم
 فانهبها ثلاثاً فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو
 للجنود .. فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس وانظر على بن الحسين
 فاكفف عنه واستوص به خيراً فإنه لم يدخل مع الناس وإنه قد أتانى
 كتابه)

فسار مسلم بالجيش حتى وصل إلى الحرّة فى أواخر ذى الحجة
 عام ٦٣ هجرية فدعا أهل المدينة قائلاً :

(إن أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل .. وإنى أكره إراقة دماءكم ..
 وإنى أؤجلكم ثلاثاً .. فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرف

عنكم وسرت إلى هذا المحل الذى بمكة .. وإن أبيتم كنا قد أعذرنا إليكم)

فلما مضت الثلاث قال :

(يا أهل المدينة .. ما تصنعون ؟ .. أتسلمون أم تحاربون ؟)

فقالوا :

(بل نحارب)

فقال لهم :

(لا تفعلوا .. بل ادخلوا فى الطاعة ونجعل جدنا وشوكتنا على أهل هذا المحل^(١) الذى قد جمع إليه المُرَّاق والفُسَّاق من كل أوب)

فقالوا له :

(يا أعداء الله .. لو أردتم أن تجوزوا إليه ما تركناكم .. نحن ندعكم أن تأتوا بيت الله الحرام فتخيفوا أهله وتلحدوا فيه وتستحلوا حرمة .. لا والله لا نفعل)^(٢)

(١) يقصد ابن الزبير

(٢) الكامل فى التاريخ لابن الأثير - ١١٠/٤ : ١١٤/٤ - ص ٥٢٩ : ٥٣٠

و نشب بينهم القتال فكانت مقتلة عظيمة قتل فيها بعض الصحابة والكثير من التابعين والصالحين وسيطر الجيش الأموي بعدها على المدينة فاقتحمت البيوت وتم نهبها ووصل عدد القتلى إلى سبعمائة رجل من حملة القرءان منهم ثلاث أو أربع من الصحابة حسب رواية الإمام مالك وهذا هو العدد الأصح والأقرب للدقة ..

لماذا نقول أن هذا هو العدد الأقرب للدقة ؟

لأن فتنة الحرّة نالها مثلما نال غيرها من الفتن من مبالغات في أحداثها أو تقدير عدد قتلها فقليل أن عدد القتلى قرابة العشر آلاف بينهم أطفال ونساء وقيل أن نساء المدينة قد اغتصبت وكل ذلك لم يحدث مطلقاً لأسباب منطقية وبديهيّة يقبلها عقل أى مسلم فى زماننا الحالى فما بالنّا بالمسلمين فى ذاك الزمان ومنها :

– أن النهب شمل المدينة المنورة بالكامل وهو ما لم يحدث وإنما شمل بيوت من شاركوا بالقتال فقط فلم نسمع أن على بن الحسين أو عبد الله بن عمر أو محمد بن الحنفية على سبيل المثال قد انتهبت دورهم

– أن عدد القتلى كان عشرة آلاف وهى رواية عن الواقدي وهو متروك وقد وصل إلينا رواية أكثر قوة وهى رواية الإمام مالك ورواية شيخ الإسلام بن تيمية

- أن جيش الشام قد نتفوا لحية أبو سعيد الخدرى وهو ما لم يحدث إذ كيف يقبل العقل أن يفعل جيش الشام هذا بواحد ممن اعتزلوا الفتنة ولم يشارك بالقتال

- أن جيش الشام قد انتهك أعراض النساء فى المدينة حتى حملت النساء ألف طفل سفاح - عيذاً بالله - وهو إتهام لا يمكن قبوله عقلاً ولا منطقاً لأننا لم نسمع فى السير عن أحد هؤلاء المولودين سفاحاً ولم يُذكر ولو إسم شخص واحد منهم .. أيضاً فالمدينة كان بها كثير من الصحابة والتابعين ممن اعتزلوا الفتنة وهؤلاء بلا شك لن يقفوا موقف المتفرج والإنتهاكات تجرى فى حق المسلمات من أهل المدينة ولكانت اعتراضاتهم سجلتها صفحات التاريخ ..

- أخيراً .. لم يصلنا أبداً ولو لمرة واحدة أن جيش من جيوش المسلمين قد استباح أعراض النساء حتى فى المعارك مع الأمم الكافرة فهل يتصور أحد أن تلك الأفعال تحدث مع بنات وأخوات صحابة رسول الله ؟

- يقول الدكتور على الصلابى :

(إن انتهاك أعراض نساء المدينة لا أساس له من الصحة وإنها روايات جاءت متأخرة وبدافع حزبى بغىض يتخذ من الكره والتعصب ضد التاريخ الأموى دافعاً له وتهدف إلى إظهار جيش

النشام - الذى يمثل الجيش الأموى - جيشاً بربرياً لا يستند لأسس دينية أو عقائدية أو أخلاقية وهذا الاتهام لا يقصد به اتهام الجيش الأموى فقط بل إن الخطورة التى يحملها هذا الاتهام تتعدى إلى ما هو أعظم وهو اتهام الجيش الإسلامى الذى فتح أصقاعاً شاسعة فى تلك الفترة (

أخيراً ..

وقعة الحرّة حدثت بالفعل ومات فيها كثير من المسلمين الأوائل نوى الفضل والسابقة وانتهبت فيها البيوت ثلاثة أيام وكل هذا حدث بأمر من يزيد بن معاوية بالفعل وهو أمر ثابت تاريخياً وبعض المؤرخين والفقهاء قد حمل يزيد مسؤولية الدماء التى أريقت وبعضهم حملها على أهل المدينة الذين خرجوا على يزيد ونقضوا مبايعته إلا أن الأقرب للحقيقة أنها فتنة شملت الجميع فى النهاية قد سفكت دماء المسلمين وعلى ما يبدو فإن من إعتزل الفتنة كانوا هم الأقرب للصواب والله أعلى وأعلم ..

الهجوم على ابن الزبير فى مكة

بعد أن انتصر جيش الشام فى موقعة الحرة سار مسلم بن عقبة بالجيش نحو مكة يريد قتال ابن الزبير وقبل أن يصلوا إليها توفى مسلم وتولى قيادة الجيش بعده الحصين بن نمير فما أن وصل حتى نشر جيشه وحاصر مكة لأكثر من شهر دون قتال لعل ابن الزبير وأصحابه يستسلمون إلا أن هذا لم يحدث فقرر الحصين الهجوم على مكة فى منتصف شهر صفر ونجح جيش الشام فى السيطرة على بعض الجبال المحيطة بمكة ثم استمر تراجع ابن الزبير حتى سيطر جيش الشام على كل المناطق المحيطة بالمسجد الحرام تقريباً فلما رأى ابن الزبير ذلك إحتمى ومن معه بالحرم فنصبوا خيامهم بجانب الكعبة ووضع بعض الألواح حول الحرم حماية لها ولم يعد هناك خيارات كثيرة .. إما استمرار الهجوم وإما الحصار إلى ما شاء الله ..

الحُصين إختار الهجوم وقرر أن يكون هجومه عن طريق المنجنيق فنصب منجنيقه وبدأ فى توجيه القذائف ناحية أصحاب ابن الزبير وفى أحد الأيام تسببت إحدى القذائف فى إندلاع بعض الشرر وكانت الريح شديدة فعلقت النيران بالخيام المحيطة بالكعبة فوصلت النيران إلى الكعبة فأحرقت أستارها ولم ينجح جيش مكة

فى السيطرة عليها وإطفاءها .. حدث مثل هذا جعل القتال يتوقف
ونال الذهول من الطرفين ..

- يقول الذهبى :

(لما فعل يزيد بأهل المدينة ما فعل مع شربه الخمر وإتيانه
المنكرات اشتد عليه الناس وخرج عليه غير واحد ولم يبارك الله فى
عمره وسار جيش الحرة إلى مكة لقتال ابن الزبير فمات أمير الجيش
بالطريق فاستخلف عليهم أميراً وأتوا مكة فحاصروا ابن الزبير
وقاتلوه ورموه بالمنجنيق ذلك فى صفر سنة أربع وستين واحترقت
من شرارة نيرانهم أستار الكعبة وسقفها وقرنا الكبش الذى فدى الله
به إسماعيل وكان فى السقف وأهلك الله يزيد فى نصف شهر ربيع
الأول من هذا العام)^(١)

ما أن تم السيطرة على الحريق حتى اشتبك الجيشين مرة أخرى
حتى وصل خبر وفاة يزيد وقد وصل الخبر إلى جيش بن الزبير قبل
أن يصل إلى جيش الشام فوقف المكيين ونادوا فى جيش الشام :

(يا أهل الشام .. لماذا تقاتلون .. لقد هلك يزيد)

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى - ص ١٦٤

بالطبع لم يصدقوهم واستمر القتال بينهم حتى وصلهم الخبر فتوقف القتال وبدأت المراسلات بين عبد الله بن الزبير والحصين بن نمير ..

طلب الحصين بن نمير مقابلة ابن الزبير فلما قابله قال له :

(إن يك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر .. هلم فلنبايعك .. ثم اخرج معي إلى الشام فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم .. فوالله لا يختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك)

فقال بن الزبير :

(لا أفعل .. ولأقتلن بكل رجل عشرة)

فقال الحصين :

(قد كنت أظن أن لك رأياً .. أنا أدعوك إلى الخلافة وأنت تعدني بالقتل)^(١)

وكان قد خشى أن يذهب إلى الشام فيضع نفسه رهن أهواء أهلها وقد لا يقبلوا مبايعته وهو من هو فاستقر على الإستمرار في مكة

(١) المنتظم في تاريخ الملوك لابن الجوزي - الجزء السادس - ص ٢٣

التي احتمتى بها طوال الفترة الماضية فرجع عنه الحصين بعد أن أخبره أن هذا هو أنسب وقت يبايع لك فيه أهل الشام فلا يوجد ليزيد أبناء كبار ولن يعارضك أحد منهم لمكانتك وفي حالة عدم سفرك فإن بنى أمية سيفضلون تولية أحدهم بلا شك وهو ما يفتح الباب لتجدد القتال بينهم حتى وإن تأجل ..

أما عن يزيد بن معاوية وكيفية التعامل مع ذكره وسيرته :

– يقول الذهبي في السير :

(ويزيد ممن لا نسبه ولا نخبه .. وله نظراء من خلفاء الدولتين وكذلك في ملوك النواحي بل فيهم من هو شر منه .. وإنما عظم الخطب لكونه ولي بعد وفاة النبي ﷺ بتسع وأربعين سنة .. والعهد قريب والصحابة موجودون كابن عمر الذي كان أولى بالأمر منه ومن أبيه وجده)^(١)

– أما شيخ الإسلام بن تيمية فقال عنه :

(بل يزيد مع ما أحدث من الأحداث من قال فيه إنه كافر مرتد فقد افتري عليه .. بل كان ملكاً من ملوك المسلمين كسائر ملوك

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي - الجزء الرابع - ص ٣٦

المسلمين وأكثر الملوك لهم حسنات ولهم سيئات .. وحسناتهم عظيمة وسيئاتهم عظيمة .. فالطاعن في واحد منهم دون نظرائه إما جاهل وإما ظالم .. وهؤلاء لهم ما لسائر المسلمين منهم من تكون حسناته أكثر من سيئاته .. ومنهم من قد تاب من سيئاته .. ومنهم من كفر الله عنه .. ومنهم من قد يدخله الجنة .. ومنهم من قد يعاقبه لسيئاته .. ومنهم من قد يتقبل الله فيه شفاعته نبي أو غيره من الشفعاء .. فالشهادة لواحد من هؤلاء بالنار هو من أقوال أهل البدع والضلال^(١)

(١) مجمع الفتاوى لشيخ الإسلام بن تيمية - الجزء الرابع - ص ٢٨٩

بنى أمية بعد وفاة يزيد

بعد وفاة يزيد بن معاوية احتار بنى أمية فى اختيار الخليفة الجديد خاصة ان ابنه معاوية كان ابن اثنين وعشرين عاماً وكان مريضاً لا يستطيع النهوض بمسئولية الإمارة أما ابن الزبير فبينه وبينهم ما قد سلف وهو بالأساس رفض القدوم إلى دمشق فلم يجدوا بداً من توليه معاوية بن يزيد رغم مرضه .. وبالرغم من توليته إلا انه أمضى فترة خلافته مريضاً وكان يسير أمور الدولة بدلاً منه الضحاك بن قيس وكان رحمه الله تقياً زاهداً صادقاً مع نفسه ومع من بايعوه فقد روى أنه بعد دفن والده ومبايعة الناس له نادى فى الناس أن الصلاة جامعة وخطب فيهم قائلاً :

(أما بعد .. فإنى ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده .. فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم .. فأنتم أولى بأمركم فاخترأوا له من أحببتكم^(١))

ثم نزل ودخل منزله فلم يخرج منه حتى توفى وقد استمرت خلافته ما بين الشهرين والثلاث على الأكثر وروى أنه لما حضرته الوفاة إجتمعوا له وسألوه أن يعهد لأحد من أهل بيته فقال :

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير - ١٢٩/٤ - ص ٥٣٤

(والله ما ذقت حلاوة خلافتكم فكيف أتقلد وزرها .. وتتعجلون أنتم حلاوتها وأتعجل مرارتها .. اللهم إني بريء منها متخل عنها)^(١)

فى تلك الأثناء كان ابن الزبير يدعو لنفسه من مكة كخليفة للمسلمين وبدأت المبايعات تأتيه من أقطار المسلمين فبايعه أهل الحجاز واليمن ومصر وجزءاً من أهل العراق وحتى جزء من أهل الشام وهم القيسيون أتباع الضحاك بن قيس ولم يبق لبني أمية مبايعين فى الدولة الإسلامية إلا المواليين من اليمنيين المقيمين فى الشام بزعامه حسان بن مالك الكلبى وبدأ أن الأمر قد حُسم لابن الزبير لسابقته وفضائله وعلمه وبينما كان ابن الزبير يوطد خلافته ويسير العمال كان بنو أمية يواجهون إنقساماً داخلياً واحتار أمرهم بين تولية خالد بن يزيد ومروان بن الحكم حتى مالت كفة مروان فبايعوه أميراً عليهم فى مؤتمر الجابية ..

لما تولى مروان الأمر إكتشف صعوبة موقفه وكيف أن كثيراً من الناس قد بايع ابن الزبير وهو بهذا قد صار الخليفة الشرعى للمسلمين بإجتماع غالبية الناس على مبايعته حتى إنه هم بالذهاب

(١) النظرية المتكاملة فى الشورى لأمجد ربيع - ص ٩٠

إلى مكة لمبايعته لولا عودة عبيد الله بن زياد إلى الشام بعد هروبه من العراق الذي اضطربت أموره ولولا أيضاً دعم الحصين بن نمير وروح بن زنباع الجذامي الذين أثاروا حمية بنى أمية وطالبوهم بعدم التنازل عن ملكهم ومنازعة ابن الزبير عليه ..

بعد مبايعة مروان بن الحكم تجمع المبايعين لعبد الله بن الزبير واستعدوا للهجوم على بنى أمية بحكم أنهم الآن هم الخارجين على ولى الأمر الشرعى بعد إتفاق الناس عليه فتجمعت قوات الضحاك بن قيس وانضم لهم قوات النعمان بن بشير وقوات زُفر بن الحارث فى مرج راهط ودارت هناك معركة انتصر فيها جيش الأمويين حسمت بها بنو أمية أمر الشام واستقر الوضع لهم فيها وبهذا خسر بن الزبير أول أضلاع خلافته ..

بدأت المرحلة الثانية من خطة مروان بن الحكم لاستعادة ملك بنى أمية مرة أخرى بتوجهه إلى مصر ليستردها من عامل ابن الزبير عليها عبد الرحمن بن جحدم فلما علم بقدومهم خرج اليهم بجيشه لملاقاتهم ودارت المعركة بينهم واستمرت لفترة دون أن يحسمها أحد الطرفين فقررا الإصطلاح حقناً للدماء على أن تتبع مصر لبنى أمية وفى المقابل يتم إقرار بن جحدم على ولايتها ووافق مروان على هذا إلا أنه بعد فترة انسلك من وعده لابن جحدم فعزله وسيطر على

الأمر تماماً في مصر فاتحاً خزائنه للناس مجزلاً لهم العطايا فأقبل عليه الناس مبايعين وبهذا خسر ابن الزبير ثاني أضلاع خلافته ..

الوضع السياسي للدولة الإسلامية وقتها كان منقسماً بشدة فقد تقسمت الدولة إلى ثلاث مناطق رئيسية تشعر وكأن كل جزء منها يسير وفق خطته الخاصة ..

– الحجاز واليمن كانوا تحت سيطرة ابن الزبير

– الشام ومصر كانوا تحت سيطرة بنى أمية

– العراق منقسم بين ابن الزبير والمختار الثقفي والخوارج ومن بعيد يتربص به مروان بن الحكم لاستعادته

العراق تحديداً كان يعتريه الفتن في ذلك الوقت فالمختار الثقفي رفع شعاراً يا ثارات الحسين مطالباً بالتأثر ممن شارك في قتله وكان معقله الكوفة .. ابن الزبير بعث جيشاً بقيادة أخيه مصعب بن الزبير للسيطرة على كامل العراق وكان معقله البصرة .. مروان بن الحكم أرسل جيشاً بقيادة عبيد الله بن زياد لاستعادة العراق تحت حكم بنى أمية مرة أخرى .. الخوارج في خندقهم الخاص فهم ضد كل من سبق ذكرهم .. وأهل العراق منقسمون بين الجميع لا يستقر أمرهم لأحد ولا يستمر لهم والياً ..

وبينما تجرى كل تلك الأمور كان أحدهم يتابع ما يحدث باهتمام .. يتابع ويقيم الوضع برؤيته الثاقبة على الرغم من صغر سنه .. أربعة وعشرون عاماً فقط كان عمره وقت حدوث تلك الأحداث .. رأى العراق وفتنها .. رأى ابن الزبير وخروجه على يزيد .. رأى بعينه هبوط وصعود دولة بني أمية .. رأى مروان بن الحكم وما أحدثه من طفرة في وقت قصير .. كان يعيش في جزيرة العرب .. تحديداً في ثقيف .. ذلك الشاب الذي امتلك الكثير من الطموح علم أن عبد الملك بن مروان تولى إمارة الشام خلفاً لأبيه المتوفى ..

– عبد الملك بن مروان !!؟

– ألا يوحى لكم هذا الإسم بشيء ؟

– بالطبع يوحى ولا شك ..

– هو الخليفة الذي سيلمع في ولايته بطل قصتنا ..

– الحجاج بن يوسف الثقفي ..

الفصل الثاني

الحجاج بن يوسف من الطفولة إلى القيادة العسكرية

- الحجاج طفلاً وصبياً وشاباً
- اتصال الحجاج بعبد الملك بن مروان
- الحرب على عبد الله بن الزبير



الحجاج طفلاً وصبياً وشاباً

ثقيف .. أكبر القرى العربية بعد مكة المكرمة .. العام الأربعون هجرياً ..

المغيرة بن شعبه الثقفي يدخل منزله نهاراً فيرى امرأته الفارعة بنت همام وهي تتخلل^(١) فيخرج غضباناً ويبعث إليها بطلاقها .. فلما علمت ما فعل ذهبت إليه وقالت له :

(لم بعثت إلى بطلاقي .. هل لشيء رابك مني ؟)

قال لها :

(نعم .. دخلت عليك في السَّحَر وأنت تتخللين .. فإن كنت بادرت الغداء فأنت شرهة .. وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة)

فقالت :

(كل ذلك لم يكن .. ولكنني تخللت من بقايا السواك)^(٢)

يندم المغيرة أشد الندم ويخرج أسفاً على تسرعه وظنه في زوجته

(١) أى تخلل ما بين أسنانها ليخرج ما بينها من أذى

(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان - الجزء الثاني - ص ٣٠

وبعد فترة قصيرة يقابل أحد أصدقائه اسمه يوسف بن أبى عقيل
الثقفى فيقول له :

(هل لك إلى خير أدعوك إليه ؟)

قال :

(وما هو ؟)

فقال المغيرة :

(تزوج الفارعة بنت همام فأنى قد طلقتها .. وإنها لخليقة أن
تأتى برجل يسود)

فتزوجها يوسف ولما بنى بها واقعها وفى نفس الليلة وبينما هو
نائم قيل له فى النوم :

(يا يوسف .. ما أسرع ما ألقحت بالمُبِير^(١))^(٢)

فكانت ثمرة زواجهما أحد أكثر الشخصيات إثارة للجدل فى
التاريخ الإسلامى ..

(١) المبير هو المهلك كثير الإسراف فى قتل الناس

(٢) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء التاسع - ص ١١٨

كَلِيب ..

أبو محمد ..

الحجاج بن يوسف بن أبي عقيل الثقفي ..

والدة الحجاج هي الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي .. أشرف نساء ثقيف وأكثرهم ثراءً وحلياً وهي حفيدة الصحابي عروة بن مسعود رضى الله عنه سيد ثقيف في زمان النبي ﷺ .. في أحد الأيام وقبل إسلامه وبينما كان رسول الله ﷺ يدعو الناس في مكة إلى الإسلام استعجب الوليد بن المغيرة من نزول القرآن على النبي ﷺ فقال :

(لو كان ما يقول محمد حقاً لأنزل القرآن على أو على عروة بن مسعود الثقفي)

فنزلت فيه الآية :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَبَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف : ٣١)

فكان رجلاً عظيماً .. شريفاً .. سيداً لقريّة عظيمة هي أكبر القرى مع مكة المكرمة .. وفي قصة استشهاد دليلاً آخر على عظمة هذا الصحابي الجليل حيث ألقى الله الإسلام في قلبه فذهب إلى

رسول الله ﷺ في المدينة وأسلم على يديه ثم استأذنه أن يعود لقومه ليدعوهم إلى الإسلام فقال له النبي ﷺ :

(إن فعلت فإنهم قاتلوك)

فقال له عروة :

(يا رسول الله .. أنا أحب إليهم من أبقارهم)

و كان فيهم رضى الله عنه مرجواً ومحبباً فكان يطمع في إسلامهم دون اعتراض لمكانته منهم فلما ذهب وأخبرهم بالخبر ثاروا عليه ونهروه وأسمعوه ما لا يحب فتركهم وذهب إلى بيته عازماً على دعوتهم للإسلام بأى طريقة ممكنة .. حتى إذا ما جاء فجر اليوم التالى توضأ وصعد فوق منزله وأذن للصلاة فما أن سمعته ثقيف حتى خرجت عليه ورموه بالسهم فأصابه سهم وقع بسببه على الأرض فحملوه إلى داره وسألوه :

(ما ترى فى دمك ؟)

قال :

(كرامة أكرمنى الله بها .. وشهادة ساقها الله إلى .. فليس فى إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرحل عنكم)^(١)

(١) الوافى بالوفيات للصفدى - الجزء التاسع عشر - ص ٣٦٠ : ٣٦١

هذا هو نسب الحجاج وهذه هي البيئة التي نشأ بها سنوات
عمره الأولى ..

سليل أعلى بيوت ثقيف مكانة .

يعلم جيداً شرف الإمارة ..

يعلم جيداً شرف القيادة ..

لم يخلو ميلاد الحجاج من الغرابة وإثارة الجدل وهو ما اتسمت
به حياته عامة فقد عرف عنه أنه ولد مشوهاً حيث ولد دُبراً
واضطروا أن يثقبوا له دُبراً حتى يستطيع قضاء حاجته .. أيضاً رفض
الرضاعة من ثدى أمه أو غيرها حتى أعياهم أمره ولم يجدوا حلاً
لإطعامه .. فى هذه النقطة هناك رواية رواها ابن خلكان ولا يُعلم
مدى صحتها وهى تقول :

إن الشيطان تصور لأهل ثقيف فى صورة الحارث بن كلدة طبيب
العرب وأشهر أطباء زمانه^(١) فلما مر بهم قال :

(ما خبركم ؟)

(١) بعض الروايات ومنها رواية ابن خلكان ورواية ابن كثير تقول أن الحارث بن كلدة
هو زوج أم الحجاج الأول وليس المغيرة بن شعبة

فقالوا :

(بُنى ولد ليوسف من الفارعة .. وقد أبى أن يقبل ثدى أمه أو غيرها)

فقال :

(اذبحوا جدياً أسود وأولغوه دمه^(١) فإذا كان فى اليوم الثانى فافعلوا به كذلك .. فإذا كان فى اليوم الثالث فاذبحوا له تيساً أسود وأولغوه دمه .. ثم اذبحوا له أسود سالخاً^(٢) فأولغوه دمه واطلوا به وجهه فإنه يقبل الثدى فى اليوم الرابع)

ففعّلوا به ذلك فكان أول ما استساغه الحجاج فى حياته هى الدماء وإذا ما صحت تلك الرواية فإنما كانت دليلاً على ما أصبح عليه الحجاج لاحقاً حيث كان لا يصبر عن سفك الدماء وكان يقول عن نفسه أن أشد لذاته هى سفك الدماء وإقدامه على أمور لا يستطيع غيره فعلها أو سبقه إليها أحد ..^(٣)

ذلك هو الحجاج طفلاً ..

فماذا عن الحجاج صبيّاً ؟

(١) أى دعوه يستسيغه بأطراف لسانه

(٢) ثعبان شديد السواد

(٣) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان - الجزء الثانى - ص ٣٠

سليم بن عنز التجيبي .. أحد كبار التابعين .. رجل زاهد ..
عابد .. قاضى مصر فى عهد معاوية بن أبى سفيان .. فى أحد زيارات
يوسف الثقفى إلى مصر جلس فى مسجدھا وكان معه ابنه الحجاج
فمر بهم سليم بن عنز فما أن رآه يوسف حتى قام خلفه فسلم عليه
وجلس بين يديه وقال له :

(إنى ذاهب إلى أمير المؤمنين .. فهل من حاجة لك عنده ؟)

قال :

(نعم .. تسأله أن يعزلنى عن القضاء)

فاندھش يوسف وقال :

(سبحان الله .. والله لا أعلم قاضياً اليوم خيراً منك)

ثم عاد إلى الحجاج مرة أخرى فما أن جلس حتى بادره الحجاج
بالسؤال :

(يا أبى .. أتقوم إلى رجل من تجيب وأنت ثقفى ؟)

فقال له :

(يا بنى .. والله إنى لأحسب أن الناس يرحمون بهذا وأمثاله)

قال :

(والله ما على أمير المؤمنين أضر من هذا وأمثاله)

فقال :

(ولم يا بنى ؟)

قال :

(لأن هذا وأمثاله يجتمع الناس إليهم فيحدثونهم عن سيرة أبى بكر وعمر فيُحَقِّرُ الناس سيرة أمير المؤمنين ولا يرونها شيئاً عند سيرتهما فيخلعونهُ ويخرجون عليه ويبغضونه ولا يرون طاعته)

ثم نظر إليه وأكمل :

(والله لو خُصَّ لى من الأمر شيء لأضربن عنق هذا وأمثاله)

فقال له أبوه :

(يا بنى .. والله إنى لأظن أن الله عز وجل خلقك شقياً)^(١)

من تلك الرواية يتضح لنا طبيعة شخصية الحجاج والتي تشكلت فى تلك الفترة بالتأكيد .. ما كان يهم الشاب الصغير هو أن معاوية

(١) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء التاسع - ص ١١٨ : ١١٩

بن أبى سفيان هو أمير المؤمنين وأن أمره يجب أن يطاع .. وأن كل معارض لرأيه هو مخرب يريد شق عصا المسلمين ويجب التصدى له .. وهو لم يقصد بالمعارضين هنا المخالفين فى رأى فقط وإنما كل من يرى فيهم الحجاج تهديداً - ولو كان غير مقصوداً - مثلما رأى فى تذكير سليم بن عنز التجيبي بالخلفاء الأوائل .. كل هؤلاء يجب التعامل معهم بالسيف .. تلك هى فلسفة الحجاج التى سيسير عليها طوال عمره ..

أما عن فترة شباب الحجاج فقد عاش بجوار والده يعمل معه محفظاً للقراء والحديث الشريف بدون مقابل وقد عرف عنه بلاغته وحسن خطابه وذكائه الشديد ونبوغه فى حفظ القرآن فكان تقياً ورعاً يقيم حدود الله ويقف عندها .. صفة أخرى لازمت الحجاج وقتها ألا وهى الطموح .. عرف عنه من صغره طموحه الزائد ورغبته فى الوصول لأعلى المناصب وهو ما جعل مهنة محفظ القرآن لا تشبع رغباته ولا تلبي طموحه المتزايد يوماً بعد الآخر ..

ولد الحجاج فى عام الجماعة الموافق واحد وأربعين هجرياً مع تولى معاوية بن أبى سفيان إمارة المؤمنين والذى استمرت ولايته حتى عام ستين هجرياً وهذا يعنى أن الحجاج عاش طفولته وصباه

وشبابه تحت ظل ولاية معاوية في مرحلة مستقرة تماماً للدولة الإسلامية .. مرحلة لا يعترئها الفتن ولا إختلاف الرأي .. كان أمير المؤمنين إذا أمر سمع له الجميع واطاع .. كان لهذا أكبر الأثر عليه ورسخ في نفسه مبدأ مهم وهو أن طاعة ولي الأمر بخلاف أنها واجبة شرعاً فإنها أيضاً السبيل الوحيد للإستقرار الذي تعيشه الدولة الإسلامية ..

كثيرة هي الأحداث التي مرت على الحجاج .. تفاصيل كثيرة شكلت فكر وأسلوب ومنهجية الطفل الذي أسمته أمه كليب .. إستقرار عهد معاوية رضى الله عنه .. أخذ البيعة ليزيد ثم ولايته .. معارضة الحسين وبن الزبير .. استشهاد الحسين .. الهجوم على المدينة ثم الهجوم على ابن الزبير في الحرم .. انهيار ملك بني أمية حتى كاد يزول .. ثم نجاح مروان بن الحكم في استعادة كثير من ملك بني أمية مرة أخرى .. كلها مواقف واختبارات مرت على الحجاج وكان عليه أن يكوّن رأياً ويتخذ قراراً .. وقد اختار أن ينضم لبني أمية ..

في عمر الرابعة والعشرين قرر الحجاج أن يتجه إلى دمشق .. حاضرة الخلافة الأموية .. متمرداً على واقعه ووظيفته ومعتمداً على

طموحه ليصل إلى مبتغاه من السلطة .. تمرد لم يكن يشمل محل الإقامة أو طبيعة العمل فقط وإنما امتد حتى للإسم .. كُليب أطلق على نفسه اسم الحجاج .. وقد كان أقرب ما يكون لشخصيته .. ستتأكدون من هذا حين تعلمون أن معنى اسم الحجاج هو .. محطم العظام ..

إتصال الحجاج بعبد الملك بن مروان

فى ذلك الوقت كانت الدولة الإسلامية تتمزق بين عدة أطراف .. عبد الله بن الزبير الذى يرى كثيراً من المؤرخين أنه كان الخليفة الشرعى وقتها وكان تحت إمرته الحجاز واليمن والبصرة .. ثم مروان بن الحكم وكان تحت إمرته الشام ومصر .. ثم العراق وما اعتراها من فتن بقيادة المختار بن عبيد الله الثقفى الذى رفع شعار يا ثارات الحسين مطالباً بقتل من شاركوا فى قتل الإمام الحسين رضى الله عنه .. ثم أخيراً الخوارج الذين أرادوا أن تكون لهم الكلمة العليا دون كل من سبق ذكرهم .. ومن تلك الخريطة يتضح أن عبد الله بن الزبير هو من يخضع لحكمه أغلب ولايات الدولة وبالتالي فحسمه لمعركته مع بنى أمية مسألة وقت لا أكثر ونظرياً يعد هذا أقرب للواقع .. من رأى هذا رأى أغفل أن أحد أهم ولايات الدولة الإسلامية وهى العراق كان متنازع عليها وليس لابن الزبير السيطرة الكاملة عليها خاصة إذا ما اعتبرنا أن العراق لا يمكن أن تحتسب بمفردها فالعراق لا تأتى إلا ومعها ما تلاها من بلاد فارس .. إذاً هناك عاملاً مهماً فى المعادلة تفقده كل الأطراف وهو عامل السيطرة على بلاد العراق .. ابن الزبير أدرك هذا .. مروان بن الحكم أيضاً أدرك هذا ..

جهز عبد الله ابن الزبير جيشاً بقيادة شقيقه مصعب بن الزبير وأرسله لقتال المختار الثقفي والسيطرة على العراق وبالفعل تم له ما أراد وقتل مصعب المختار وصار عاملاً لابن الزبير على العراق وبهذا صار الأمر ينحصر بين بنى أمية بقيادة عبد الملك بن مروان الذي بويح بالإمارة بعد وفاة والده وبين جيش الزبيرين بقيادة مصعب بن الزبير .. عبد الملك بن مروان كان ذكياً واسع الحيلة وكما استخدم ذكائه في السيطرة على مصر من قبل استخدمه مرة أخرى في العراق للقضاء على مقاومة جيش مصعب بن الزبير .. أرسل عبد الملك إلى كل وجهاء العراق من قادة مصعب بن الزبير يعدهم ويمنيهم بولاية العراق إذا ما تخلوا عن جيش مصعب فقبل جميعهم إلا إبراهيم بن الأشتر النخعي الذي ذهب برسالته إلى مصعب محذراً إياه من غدر أهل العراق ونصحه بقتل هؤلاء القادة إلا أنه رفض خشية إنقلاب قبائلهم عليه فنصحه بسجنهم وتولييه غيرهم فيكون ولاءهم له إلا أنه رفض أيضاً ..

تجهز الجيشين عند منطقة تسمى دير الجثاليق وظهرت عندها خيانة قادة أهل العراق لمصعب بن الزبير وبالرغم من هذا فقد كانت معركة حامية الوطيس قتل فيها من جيش الزبيرين إبراهيم بن الأشتر النخعي وباقي قادته المتبقين معه وظل مصعب مستمراً في القتال حتى ما بقى معه سوى سبعة أشخاص فقط وقتل في النهاية

بعد أن أرسل لأخيه بن الزبير في مكة بما حدث .. بمقتل مصعب بن الزبير في العراق دانت العراق وما تلاها لملك بنى أمية وبدا واضحاً أن الجيش الرئيسى لابن الزبير قد هزم ولن يستطيع تجهيز آخر مثله فى وقت قريب .. بهذا لم يتبقى لبنى أمية سوى السيطرة على أرض الحجاز ..

ضمن جيش الأمويين الذى انتصر فى تلك المعركة كان هناك أحد القادة الذى بدأ اسمه فى البزوغ مؤخراً .. قائد اتسم بالشدة بل والقسوة إذا ما شئنا الدقة .. قائد اتسم أداؤه بالولاء التام لبنى أمية ولعبد الملك بن مروان تحديداً .. قائد اسمه الحجاج بن يوسف الثقفى ..

ماذا ؟! .. لا تعرفون كيف وصل الحجاج إلى تلك المكانة ؟

معكم حق .. إذا لنعد إلى الوراء قليلاً ..

كما ذكرنا فالحجاج سافر إلى دمشق ولما وصل بدأ فى مراقبة الوضع الداخلى هناك .. لعله بدأ فى بعض أعمال التجارة أو حتى عمل بمهنته السابقة ولكن ذلك لم يطل لأن الحجاج وضع عينه على وظيفة أهم .. من مراقبته للوضع وبصداقته للعديد من أهل دمشق رأى أن أمر الشرطة لا يسير على ما يرام .. على ما يبدو فإن

الأحداث التي مرت على بنى أمية جعلت الوضع الداخلى عندهم فيه بعض الإهتراء .. أفراد الشرطة كان أغلبهم إن لم يكن كلهم غير مستقيمون .. الأمن الداخلى به بعض القصور .. الإنحلال والتسيب كانوا سمة واضحة فيهم على الرغم من وجوب الإلتزام لمن يعمل فى هذه الوظيفة .. رأى الحجاج فى هذا فرصته التى سافر أساساً من أجلها فبدأ فى إيصال أمر أفراد الشرطة المستهترين إلى أسماع القادة الكبار حتى وصل إلى روح بن زنباع الجذامى أحد وزراء عبد الملك بن مروان وصاحب شرطته فاعجب روح بحماس الشاب وقام بتعيينه فى أحد مناصب القيادة فى الشرطة ..

الحجاج استغل هذا أفضل استغلال ممكن وبالفعل ضبط أمور فرقة الشرطة التى رأسها فى وقت قياسي فاعجب به روح بن زنباع بشدة ونال ثقته أكثر مما سبق .. استمرت الظروف فى خدمة الحجاج حين كان روح بن زنباع عند عبد الملك بن مروان فى أحد المرات فاشتكى له عبد الملك إنحلال عسكره وكيف أنهم لا ينزلون بنزوله ولا يرحلون برحيله وفى هذا سوء أدب فى حق الخليفة حيث كان بعضهم يقصر فى مهام التأمين والحراسة فيأتون متأخرين عنه أحياناً ويرحلون بعد رحيله فى أحيان أخرى .. عندها قال له روح :

(إن فى شرطتى رجالاً لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحل الناس برحيله وأنزلهم بنزوله يقال له الحجاج ابن يوسف)

فقال عبد الملك بن مروان :

(فإننا قد قلدناه)

فأصبح لا يتخلف أحدهم عن النزول أو الرحيل إلا فرقة روح بن زنباع إعتماًداً منهم على منصب روح وقربه من عبد الملك بن مروان وهو ما أغضب الحجاج كثيراً فمر عليهم يوماً بعد أن رحل عبد الملك بن مروان و كانوا يأكلون فقال لهم :

(ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟)

فقالوا له :

(انزل يا ابن اللخناء^(١) فكل معنا)

قال لهم :

(هيهات .. ذهب ما هنالك)

ثم أمر رجاله بالقبض عليهم فجلدوهم وطاف بهم على باقى فرق الشرطة وأمر بفساطيطهم^(٢) فأحرقها فلما وصل الخبر إلى روح بن زنباع ذهب إلى عبد الملك بن مروان غضباً حزيناً وقال :

(١) سبة بمعنى يا ابن المنتنة

(٢) خيامهم

(يا أمير المؤمنين .. إن الحجاج الذى كان فى شرطتى ضرب
غلمانى وأحرق فساطيطى)

فقال :

(على به)

فلما دخل عليه قال له :

(ما حملك على ما فعلت ؟)

قال مندهشاً :

(أنا ما فعلت)

قال عبد الملك وقد أصابته الدهشة :

(ومن فعل ؟)

قال :

(أنت فعلت .. إنما يدي يدك .. وسوطى سوطك .. وما على
أمير المؤمنين أن يخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين وعوض الغلام
غلامين ولا يكسرني فيما قدمني له)^(١)

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان - الجزء الثانى - ص ٣٠ / ٣١

فاعجب عبد الملك بذكاء الحجاج وقام بتعويض روح بن زنباع
ومنذ تلك اللحظة تقدم الحجاج كثيراً عند عبد الملك بن مروان ..

بعد فترة علم عبد الملك بن مروان أن جيش مصعب بن الزبير
ينوى الخروج إلى دمشق فخشي على ملك بني أمية و أراد جمع أكبر
عدد ممكن من أهل الشام لغزو مصعب في العراق قبل أن يغزوه هو
وكان أهل الشام في ذلك الوقت قد أصابهم التكاثر فلما رأى الحجاج
منه حيرة في كيفية حث الناس على القتال طلب منه أن يُسلطه
عليهم فلم يجد عبد الملك بن مروان بداً من ذلك وأطلق يده عليهم ..

استغل الحجاج الصلاحية التي منحها له عبد الملك بن مروان
فخرج على الناس بملاح صارمة وصاح بهم :

(إن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خارج لقتال مصعب بن
الزبير في العراق وقد أولاني أمركم .. وإنني أمهلكم ثلاث .. وايم الله
أيما رجل وجدته قادراً على حمل السلاح ولم يخرج لأقتلنه .. ثم
لأحرقن داره .. ثم لأنتهبن ماله)^(١)

(١) طاغية بني أمية لمنصور عبد الحكيم - ص ٨٩

ثم أمر المنادى أن يمر على الناس يخبرهم بالخبر وانتظر مرور
الثلاثة أيام ثم طاف بالبيوت باحثاً عن تخلف وذهب إلى أحد
المعترضين عليه كان يعلم أمره مسبقاً فقتله .. فما أن علمت الناس أن
الحجاج نفذ وعيده إلا وخرج الجميع ولحقوا بعداد الجيش وما بقي
منهم أحدٌ في بيته ..

الحرب على عبد الله بن الزبير

بعد استتباب الأمر لعبد الملك بن مروان في العراق والشام ومصر بدأ يفكر في الخطوة القادمة ألا وهي إقصاء عبد الله بن الزبير رضى الله عنه من ولاية الأمر في الحجاز واليمن .. المناوشات بينهم لم تنقطع منذ توليه الأمر في الشام .. كل ما هناك أنه حان وقت الإنهاء من هذا الأمر .. عبد الملك بن مروان منذ بداية توليه أمر الشام وهو يرسل جيوش أو فرق عسكرية إلى المدينة المنورة إما رغبة في إشغال بن الزبير وإما بغرض إظهار السيطرة على الأراضي التي تقع ضمن نطاق سيطرة ابن الزبير ..

في المواجهة الاولى أرسل عروة بن أنيف في ستة آلاف جندي فعسكر خارج المدينة واستمر بها شهراً ولم يبعث له ابن الزبير أحداً لمواجهته ..

في المواجهة الثانية أرسل عبد الملك ابن الحارث في أربعة آلاف فهرب عامل ابن الزبير على خيبر واسمه سليمان بن خالد الزرقى فتبعته فرقه لعبد الملك حتى أمسكوه وقتلوه فلما علم ابن الزبير بمقتله أرسل فرقة من ستمائة وأربعون فارساً استطاعت الثأر لسليمان وقتلت قاتليه ..

بعدها أرسل عبد الملك بن مروان أحد رجاله يدعى طارق بن عمرو

ليمنع قوات ابن الزبير من التكتل فالتقته فرقة فرسان ابن الزبير ولكنهم هزموا أمامه وتراجعوا انتظاراً للمدد فأمددهم ابن الزبير بألفى فارس كان قد أرسلهم عامله على البصرة لكنهم فشلوا فى إلحاق الهزيمة بالأمويين وقتل منهم عدد كبير ..^(١)

من السابق يتضح أن عبد الله بن الزبير فقد بهزيمة أخيه مصعب فى العراق الرافد الأساسى له لمواجهة الأمويين على مستوى العدد وحتى على مستوى الكفاءة القتالية ففى كل المعارك الجانبية التى سبق ذكرها كانت فرق ابن الزبير أقل عدداً وأقل مهارة قتالية وهو ما كان يغرى عبد الملك بن مروان فى الحشد لإنهاء سيطرة ابن الزبير على الحرمين فقرر أن يرسل جيشاً إلى مكة وعرض الأمر على عامة قاداته فرفضوا جميعاً قيادة ذلك الجيش .. هو فى النهاية عبد الله بن الزبير ومكانته معروفة للجميع وجميعهم على علم أنه لن يستسلم بعد كل ما حدث وأن القائد الذى سيخرج على الجيش لابد وأن يكون جريئاً بشكل كبير ليتحمل وزر قتل رجلاً مثل عبد الله بن الزبير .. كلهم رفضوا إلا واحد .. الحجاج بن يوسف يقدم فروض الطاعة مجدداً ويستغل كل الفرص التى تتاح أمامه ..

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير - ٣٤٧/٤ - ص ٥٩٦

رأى الحجاج أن كل القادة تتراجع عن قيادة ذلك الجيش فقام وقال لعبد الملك بن مروان :

(يا أمير المؤمنين .. إنى رأيت فى منامى أنى أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فابتعثنى إليه وولنى قتاله)^(١)

فوافق عبد الملك على طلبه وأرسله فى ألفى فارس وأعطاه أماناً لابن الزبير ومن معه إن رأوا أن يستسلموا .. خرج الحجاج بالجيش الصغير ونزل بالطائف مسقط رأسه ولم ينزل بالمدينة وبدأت المناوشات بعد وصوله بفترة وجيزة إذ كان الحجاج يبعث بفرقة من فرسانه إلى جبل عرفة ليتحروا الأمر فيبعث بن الزبير بفرقه مقابلة فيتقاتلا فتنهزم خيل بن الزبير وتظفر خيل الحجاج واستمر هذا الوضع فترة من الزمن ورأى الحجاج من نتائج تلك المناوشات أن البقاء على هذا الوضع لن يحسم الأمر وسيطول هذا الأمر دون نتيجة فرأى أن يبعث لعبد الملك بن مروان يطلعه بما حدث ويستأذنه فى حصار بن الزبير فى الحرم وهو ما تم الموافقة عليه فى النهاية مع دعم الحجاج بخمسة آلاف فارس إضافى وهم جيش طارق بن عمرو ..

حصار بن الزبير في مكة استمر ستة أشهر وسبعة عشر يوماً حسب أشهر الروايات^(١) استخدم فيها الحجاج كل الطرق الممكنة لإجباره على الإستسلام .. أتى مكة ومعه خمسة مجانيق^(٢) فنصبها على الجبال وبدأ في رمي ابن الزبير وأصحابه بالحجارة فأصابته الحجارة خلقاً كثيراً وأحجم الناس عن الطواف بالكعبة وكان ممن خرجوا للحج في هذا العام عبد الله بن عمر فأرسل للحجاج قائلاً :

(اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فإنك في شهر حرام وبلد حرام وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً .. وإن المنجنيق قد منعهم عن الطواف فاكفف عن الرمي حتى يقضوا ما يجب عليهم بمكة)

فأوقف الحجاج رمي الحجارة حتى انتهى موسم الحج ثم نادى في الناس :

(انصرفوا إلى بلادكم فإننا نعود بالحجارة على بن الزبير الملحد)^(٣)

(١) قيل خمسة أشهر وسبعة عشر يوماً وقيل ثمانية أشهر وسبعة عشر يوماً

(٢) آلة حربية تقذف الحجارة والمفرد منجنيق

(٣) تاريخ المقريزي الكبير - الجزء الثالث - ص ٢٩

على الرغم مما فات فإن عبد الله بن الزبير لم يستسلم وأصر على القتال للنهائية وهو ما جعل الحجاج ينتقل إلى المستوى التالي .. الحصار .. ركز قواته على الجبال المحيطة بمكة .. قطع الطرق .. احتل الشعب والوديان .. منع الطعام والمياه من الوصول لأهل مكة فشرب أهلها من بئر زمزم واستنفذ بن الزبير كل الحبوب التي كان قد خزنها في بيته لإطعام الناس .. انتشر الغلاء في مكة وأصاب الناس مجاعة حتى وصل الأمر بابن الزبير أن يذبح فرسه ليوزعها في أصحابه .. بيعت الدجاجة بعشرة دراهم وبيع مُد الذرة^(١) بعشرين درهماً .. هل من جديد ؟ .. لا .. ابن الزبير لازال مستمراً في القتال إلى النهاية ..

بالتوازي مع الحصار عاد الحجاج لضرب مكة بالمجانيق مرة أخرى ومع الرمي كان الحجاج يأمر قواته بالهجوم على ابن الزبير فكان يقف لهم مع أصحابه ويصدهم خارج الحرم مرة أخرى .. وبينما كان جند الشام يرمون بالمنجنيق رعدت السماء وبرقت وعلا صوت الرعد فخاف الجند منه وتركوا الرمي فغضب عليهم الحجاج وصار يحمل الحجارة بنفسه ويرمي بها حتى إذا ما أصبحوا جاءتهم صاعقة فقتلت من أصحاب الحجاج إثني عشر رجلاً فانكسر الجند

(١) حوالى ٥٥٠ جرام

وتراجعوا فلما رأى الحجاج ذلك صاح بهم :

(يا أهل الشام .. لا تنكروا هذا .. فإنى ابن تهامة وهذه صواعقها .. وهذا الفتح قد حضر فأبشروا)^(١)

فلم يتجاوبوا جميعهم خاصة أن الصاعقة أحرقت منجنيقاً لهم
فرأى الحجاج منهم تهاوناً وتراجعاً فصاح بهم :

(ويحكم .. ألم تعلموا أن النار كانت تنزل على من كان قبلنا
فتأكل قربانهم إذا تقبل منهم ؟ .. فلولا أن عملكم مقبول ما نزلت
النار فأكلته)

وخدمته الظروف حين أتت صاعقة أخرى فى اليوم التالى فقتلت
عدداً من أصحاب ابن الزبير فاستغل الحجاج ذلك وقال لأصحابه :
(ألم أقل لكم إنهم يصابون مثلكم وأنتم على الطاعة وهم على
المخالفة)

ومسألة الطاعة هى ما كان يعتمد عليه الحجاج بالأساس فقضية
الطاعة لولى الأمر كانت أولى أولوياته وكان يظن أنه مأجور على
أفعاله وكان دائماً ما يحث جنوده بقوله :

(يا جند الشام .. الله الله فى الطاعة)

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير - ٣٥١/٤ - ص ٥٩٧

فكان عبد الله بن الزبير رضى الله عنه بالنسبة إلى الحجاج مجرد شخص فارق الجماعة وأراد شق عصا المسلمين فتضعف قوتهم ولم يكن أبداً ينظر إليه على أنه الخليفة الشرعى الذى بايعته كل أقطار المسلمين ما عدا الشام الذى يقف الحجاج الآن على رأس جيشه .. منطق مغلوط هذا الذى آمن به الحجاج إذ أنه رأى ابن الزبير خارجاً على طاعة الخليفة على ما كان من بيعة الناس له ولم يرى فى بنى أمية خارجين على طاعة الخليفة رغم أن من بايعهم بعض أهل الشام فقط .. الأعجب أن هذا المنطق سرى بين جند الشام أيضاً وآمنوا به فكانوا يقولون :

(يا ابن الزبير طالما عصيكا^(١) وطالما عنيتنا إليك لتُجزين بالذى أتىكا^(٢))

استمر حصار الحجاج لمكة واستمر معها قذف الحجارة على من فيها فتأثرت الناس من شدة الحصار وبدأوا فى الخروج إلى الحجاج طالبين الأمان منه وبدأت الناس تتخلى عن ابن الزبير تدريجياً .. تخلى عنه غالبية الناس حتى ابناه حمزة وخبيب .. قيل أن من

(١) عصيت

(٢) أتيت به

تخلى عنه كانوا قرابة العشرة آلاف .. فلما رأى ابن الزبير ذلك ذهب لأحد أولاده وكان اسمه الزبير وقال له :

(خذ لنفسك أماناً كما فعل أخواك .. فوالله إنى لأحب بقاءكم)

فقال :

(ما كنت لأرغب بنفسى عنك)

فلما رأى أصحاب الزبير ذلك قالوا له :

(ألا تكلمهم فى الصلح ؟)

قال :

(والله لو وجدوكم فى جوف الكعبة لذبحوكم جميعاً .. والله لا أسألهم صلحاً أبداً)

ثم دخل على أمه أسماء بنت أبى بكر وقال لها :

(يا أماه .. قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلنى ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونى ما أردت من الدنيا .. فما رأيك ؟)

فقال رضى الله عنها :

(يا بني .. أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حق فاصبر عليه فقد قتل عليه أصحابك .. ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية .. وإن كنت تعلم أنك إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت .. أهلكك نفسك وأهلكك من قتل معك .. وإن كنت على حق فما وهن الدين .. وإلى كم خلودكم في الدنيا ؟ .. القتل أحسن)
فقبل رأسها وقال :

(هذا والله رأيي .. والله ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمة ولكنني أحببت أن أعلم رأيك فزديني بصيرة مع بصيرتي .. فانظري يا إمامه فإني مقتول في يومي هذا فلا يشدد حزنك وسلمي لأمر الله فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر .. ولا عمل بفاحشة قط .. ولم يجز في حكم الله .. ولم يغدر في أمان .. ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد .. ولم يبلغني ظلم عن عامل فرضيته بل أنكرته .. ولم يكن عندي أثر من رضى ربي عز وجل)

ثم أكمل :

(اللهم إني لا أقول هذا تزكية لنفسي .. اللهم أنت أعلم بي مني ومن غيري ولكني أقول ذلك تعزية لأمي لتسلو عني)

فقالت :

(إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسناً .. إن تقدمتني أو
تقدمتك ففي نفسي .. اخرج يا بني حتى أنظر ما يصير إليه أمرك)

فقال :

(جزاك الله يا أماه خيراً فلا تدعى الدعاء قبل وبعد)

فقالت :

(لا أدعه أبداً لمن قتل على باطل فلقد قتلت على حق .. اللهم
ارحم طول ذلك القيام وذلك النحيب والظماً في هواجر المدينة ومكة
وبره بأبيه وبى .. اللهم إني قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما
قضيت فقابلني في عبد الله بن الزبير بثواب الصابرين الشاكرين)

ثم ضمته إليها لتودعه فشعرت بأنه يرتدى درعاً من حديد
فقالت :

(يا بني .. ما هذا لباس من يريد ما تريد من الشهادة)

فقال :

(يا أماه .. إنما لبسته لأطيب خاطرك وأسكن قلبك به)

فقلت :

(لا يا بني ولكن انزعه)^(١)

فنزعه درعه وساوى ملابسه وتحفظ في ملبسه من أسفل حتى لا تنكشف عورته إذا ما مات وخرج على أصحابه فصلى بهم ثم استدار لهم وقال :

(اكشفوا وجوهكم حتى أنظر إليكم)

و كانوا يلبسون المغافر^(٢) .. فلما نزعوها قال لهم :

(يا آل الزبير .. لو طبتم بى نفساً عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطلحنا في الله .. فلا يرعكم وقع السيوف .. فإن ألم الدواء للجراح أشد من ألم وقعها .. صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم .. غضوا أبصاركم من البارقة وليشغل كل امرئ قرنه .. ولا تسألوا عني .. فمن كان سائلاً عني فإنني في الرعيل الأول^(٣) .. احمّلوا على بركة الله)

فقال له بعض أصحابه :

(١) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء الثامن - ص ٣٣٠

(٢) المغافر درع على قدر الرأس ليحميه أثناء المعارك

(٣) أى من السابقين

(لو لحقت بموضع كذا)

يقصدون أن يهرب من مكة فيركن إلى فئة ينصرونه .. فقال لهم :

(بنس الشيخ أنا إذا في الإسلام لنن أ وقعت قوماً فقتلوا ثم فررت

عن مثل مصارعهم)

ثم خرج فقاتل قتالاً عنيفاً وكان شيخاً في الثانية والسبعين من عمره وقد روى عنه أنه كان بارعاً في القتال تفوق براعته من هم في عمر الشباب وكان ذا هيبة ووقار فكان جند الشام يحملون عليه فيصدّهم وحده لبراعته ولهيبته في نفوسهم .. قيل في وصف شجاعته أنه كان يصلى عند الكعبة وقت الحصار فكانت حجارة المنجنيق تقع قربة فلا يتأثر بها .. كان الحجاج يأمر بقذف الحجارة فتسقط بجانبه حتى إنها لتأخذ طرف ثوبه فلا يهتز منها أو يفرع .. كان يهجم وحده على فرق أهل الشام وكان بها قرابة الخمسمائة مقاتل فيجبرهم على التراجع والخروج من باب الحرم ..

استمر القتال على هذه الحال فلما شعر الحجاج بإحجام جنوده عن قتال بن الزبير جعل يسير بينهم ويدفعهم دفعاً لقتاله ووسط كل ذلك إذا بأحد أحجار المنجنيق تصيبه في رأسه فارتعش جسده من قوة الضربة وسال الدم من رأسه فسقط على الأرض وهو يقول :



(فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا .. ولكن على أقدامنا تقطر الدما)

فحاول النهوض فلم يستطع فاتكأ على مرفقه الأيسر وهو يضرب بالسيف كل من حاول الإقتراب منه فجاءه رجل من أهل الشام فضربه بالسيف فقطع رجله وعندها تكاثر القوم عليه فقتلوه وحزوا رأسه وأوصلوها للحجاج فلما رآها سجد على الأرض ودخل إلى الحرم وبرفقتة طارق بن عمرو حتى وصلوا إلى جثمانه فقال طارق بن عمرو :

(ما ولدت النساء أذكر من هذا)

فقال الحجاج :

(تمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين ؟)

قال :

(نعم .. هو أعذر لنا .. ولولا هذا لما كان لنا عذر .. لأننا محاصروه وليس هو في حصن ولا خندق ولا منعة ينتصف منا بل يفضل علينا في كل موقف)^(١)

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير - ٣٥٤/٤ ص ٥٩٨

الفصل الثالث

الحجاج والياً

- ولايته للحرمين الشريفين
- ولايته للعراق
- الحجاج والصحابي أنس بن مالك



ولايته للحرمين الشريفين

قتل عبد الله بن الزبير وبمقتله تحولت مكة لمأتم كبير وذرفت النساء الدموع عليه فبلغ ذلك الحجاج فوقف خطيباً في الناس وقال :

(يا أهل مكة .. بلغني إكباركم واستعظامكم قتل ابن الزبير ..
فإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الدنيا ونازع
الخلافة أهلها فخلع طاعة الله وألحد في حرم الله .. ولو كانت مكة
شيئاً يمنع القضاء لمنعت آدم حرمة الجنة وقد خلقه الله بيده ونفخ
فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء فلما عصاه
أخرجه من الجنة وأهبطه إلى الأرض .. وآدم أكرم على الله من بن
الزبير وإن ابن الزبير غيّر كتاب الله)

فقال له عبد الله بن عمر :

(لو شئت أن أقول لك كذبت لقلت .. والله إن ابن الزبير لم يغير
كتاب الله .. بل كان قواماً به صواماً عاملاً بالحق)

فسكت عنه الحجاج ولم يراجعه إلا أنه قام بصلب جسد ابن
الزبير قرب جبل يسمى بجبل الحجون وأرسل رأسه ورأس عبد الله
بن صفوان ورأس عمارة بن حزم إلى عبد الملك بن مروان فسر بمقتل
بن الزبير وكافىء الرسول بخمسائة دينار^(١) ..

(١) البداية والنهاية - الجزء الثامن - ص ٣٣٢

الحجاج صلب ابن الزبير رغبة منه في إظهار سيطرته على مقاليد الأمور وأن ما حدث له إنما كان من عمل يده إلا أن الناس كانت تمر على الجسد فتترحم عليه وتبكي وممن مروا عليه عبد الله بن عمر فكان يقول :

(السلام عليك أبا حُبيب - وكررها ثلاثاً - أما والله لقد كنت أنهلك عن هذا - وكررها ثلاثاً - أما والله إن كنت ما علمت صواماً قواماً وصولاً للرحم .. أما والله لأمة أنت شرها لأمة خير)

فبلغ ذلك الحجاج فأمر بدفن ابن الزبير فدفن في الحجون وقيل أن الحجاج ألقاه في مقابر اليهود .. والحجاج بكل هذا كان يرغب في إظهار قوته وتمكنه وإظهار أن الأمر عاد لبني أمية إلا أن أفعاله غالباً ما كانت ترتد عليه .. وقد روى أنه استدعى أسماء بنت أبي بكر فأبت أن تأتيه فأعاد إليها الرسول ليقول لها :

(لتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك)^(١)

فرفضت مرة أخرى وقالت :

(والله لا آتيه حتى يبعث إلي من يسحبني بقروني)

(١) أى يجرها من ضاغطها

فقال الحجاج :

(أروني سبّيتي)^(١)

فأخذ نعليه ثم انطلق يتوزف^(٢) حتى دخل عليها فقال :

(كيف رأيّتي صنعت بعدو الله ؟)^(٣)

قالت :

(رأيّتك فسدت عليه دنياه وأفسدت عليك آخرتك .. بلغني أنك تقول يا ابن ذات النطاقين .. أنا والله ذات النطاقين .. أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ وطعام أبي بكر وأما الآخر فنطاق المرأة التي لا تستغنى عنه .. أما إن رسول الله حدثنا أن في ثقيف كذاباً ومُبِيراً فأما الكذاب فرأيناه^(٤) وأما المبير فلا أخالك^(٥) إلا إياه)^(٦)

(١) السبّية هي نعل مدبوغ من الجلد والمراد إئتوني بنعل

(٢) يسرع وقبل يتبختر

(٣) يقصد ابنها عبد الله بن الزبير

(٤) تعني المختار بن عبيد الله الثقفي

(٥) أظنك

(٦) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء الثامن - ص ٣٤١

فى ظل نجاحه فى القضاء على عبد الله ابن الزبير كان طبيعياً أن يكافى عبد الملك بن مروان الحجاج بولاية مكة فجعله عليها لشهور قليلة قبل أن يعزل طارق بن عمرو عن ولاية المدينة المنورة ويضمها إلى الحجاج فكانت مكة والمدينة والطائف والحجاز تحت قيادة الحجاج لقراءة العام ونصف العام ..

وفى أمر ولاية الحجاج لمكة والمدينة فقد وردت بعض الروايات التى قالت بأنه أساء معاملة الصحابة الكرام وكيف أنه ختم على أيدي وأعناق بعضهم لإذلالهم ولأمانة الطرح فإن أسانيد بعض تلك الروايات منقطع أو بعض من رووها فيهم ضعف وقد نقلت أغلب تلك الروايات من الواقدي وهو لا يعد مصدراً موثقاً ويُضعفه كثير من أصحاب الرأى فيقول عنه الإمام الذهبي رحمه الله :

(وقد تقرر أن الواقدي ضعيف يحتاج إليه فى الغزوات والتاريخ ونورد آثاره من غير احتجاج .. إن قد انعقد الإجماع اليوم على أنه ليس بحجة وأن حديثه فى عداد الواهى رحمه الله)^(١)

و عليه فإننى لا أجزم بصحة الروايات ولا أنكرها أيضاً فقد تكون حدثت بالفعل وهى إن حدثت فهى توافق المؤكد والمعلوم عن الحجاج وجرأته على الدماء ..

(١) سير أعلام النبلاء ٤٦٩/٩

وللحجاج مواقف مع بعض الصحابة أثناء ولايته لمكة والمدينة
مثل سهل بن سعد وجابر بن عبد الله وهذا بخلاف سبه للصحابي
عبد الله بن مسعود فقد روى أن الحجاج بعث إلى سهل بن سعد
الساعدي فقال له :

(ما لك لم تنصر أمير المؤمنين عثمان بن عفان ؟)

فقال :

(قد فعلت)

فقال الحجاج كذبت ثم أمر بختمه فى عنقه .. وروى أيضاً أن
جابر بن عبد الله أتى إلى الحجاج فلم يعطه يده للسلام عليه فأمر
الحجاج بختم يده .. أما عن كراهيته لعبد الله بن مسعود رضى الله
عنه فكان بسبب أن ابن مسعود قرأ القرآن بغير قراءة الخليفة عثمان
بن عفان رغم أنه رجع إلى عثمان رضى الله عنه وأخذ موافقته عليها
فكان هذا سبباً كافياً لكراهيته رغم أنه توفى قبل ولاية الحجاج لمكة
بأثنتان وأربعون عام وكان يقول فيه :

(ولا أجد أحداً يقرأ على قراءة ابن أم عبد^(١) إلا ضربت عنقه ..
ولأحكنّها من المصحف ولو بضلع خنزير)

(١) إسم والدته عبد الله بن مسعود

وقد كان دائم الإساءة إلى عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه وكان يقول فيه :

(عبد الله ابن مسعود رأس المنافقين .. لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه)^(١)

و كان يقول ما يقول رغم أن عبد الله ابن مسعود هو من قال فيه رسول الله ﷺ :

(من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد)
و لكنه كان دأب الحجاج وتلك كانت جراته على كثير من الصحابة الكرام ..

تعامل مثل هذا - بفرض صحة الروايات - لم يكن ليستسيغه أهل الحرمين وقد كان فيهما أصلح أهل الأرض ذلك الوقت فكان طبيعياً أن يتحینوا الفرصة لكي يدفعوا الحجاج عن ولاية الأمر فيهما ..

القصة بدأت بعد أن تولى الحجاج الحرمين فاختر إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله وقربه في المنزلة وفي المقابل وبحكم واقع الظروف

(١) البداية والنهاية - الجزء التاسع - ص ١٢٨

فإن إبراهيم أراد أن يأمن شر الحجاج فتألفه في الحديث وكان يعظمه ويجلّه وينزله منزلته وفي أحد المرات خرج الحجاج إلى عبد الملك بن مروان زائراً واصطحب معه إبراهيم بن طلحة فلما دخل على عبد الملك بن مروان دخل وحده وترك إبراهيم بالباب فلم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال :

(قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز لم أدع له والله فيها نظيراً في كمال المروءة والأدب والرئاسة والديانة والستر وحسن المذهب والطاعة والنصيحة مع القرابة ووجوب الحق .. إبراهيم بن طلحة بن عبيد الله .. وقد أحضرته بابك ليسهل عليه إنك وتلقاه ببشرك وتفعل ما يفعل بمثله ممن كانت مذاهبه مثل مذاهبه)

فقال عبد الملك :

(ذكرتنا حقاً واجباً ورحماً قريبة .. يا غلام .. ائذن لإبراهيم بن طلحة)

فلما دخل عليه قرب به حتى أجلسه على فراشه ثم قال له :

(يا ابن طلحة .. إن أبا محمد أذكرنا ما لم نزل نعرفك به من الفضل والأدب وحسن المذهب مع قرابة الرحم ووجوب الحق فلا تدعن حاجة في خاص أمرك ولا عامّه إلا ذكرتها)



قال :

(يا أمير المؤمنين .. إن أولى الأمور أن تفتح بها الحوائج وترجى
بها الزلف ما كان لله عز وجل رضى ولحقّ نبيه ﷺ أداء ولك فيه
ولجماعة المسلمين نصيحة .. وإن عندي نصيحة لا أجد بداً من ذكرها
ولا يكون البوح بها إلا وأنا خال فأخلى ترد عليك نصيحتي)

قال :

(دون أبي محمد ؟ !)

قال :

(نعم)

قال :

(قم يا حجاج)

فلما خرج قال :

(قل يا بن طلحة نصيحتك)

فقال :

(إنك عمدت إلى الحجاج مع تغطرسه وتعجرفه وبعده عن الحق وركونه إلى الباطل فوليته الحرمين وفيهما من فيهما وبهما من بهما من المهاجرين والأنصار والموالى المنتسبة الأخيار أصحاب رسول الله ﷺ وأبناء الصحابة يسومهم الخسف ويقودهم العسف ويحكم فيهم بغير السنة ويطؤهم بطغام أهل الشام^(١) ورعاع لا روية لهم فى إقامة حق ولا إزاحة باطل .. ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله ينجيك وفيما بينك وبين رسول الله ﷺ يخلصك إذا جاثاك^(٢) للخصومة فى أمته ؟ .. أما والله لا تنجو إلا بحجة تضمن لك النجاة فابق على نفسك أو دع .. فقد قال رسول الله ﷺ : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)

فاستوى عبد الملك جالساً وكان متكئاً فقال :

(كذبت - لعمر الله - ومننت^(٣) ولؤمت^(٤) .. قد ظن بك الحجاج ما لم يجد فيك وربما ظن الخير لغير أهله .. قم فأنت الكاذب المائن^(٥))

(١) أى رعاعهم وحقراءهم

(٢) الجثو هو الجلوس على الركبة والمراد هنا الإختصام أمام الله

(٣) كذبت

(٤) المقصود تلاءمت من اللؤم فيما جئت به

(٥) الكاذب الحاسد

يقول إبراهيم :

(فقامت والله ما أبصر طريقاً فلما خلفت الستر لحقني لاحق من قبله فقال للحاجب : احبس هذا الرجل وأدخل أبا محمد الحجاج .. فلبثت ملياً وأنا لا أشك أنهما في أمرى ثم خرج الآذن^(١) فقال : قم يا ابن طلحة فادخل)

فلما كشف لي الستر لقيني الحجاج وأنا داخل وهو خارج فاعتنقني وقبل ما بين عيني ثم قال :

(إذا جرى الله المتآخين بفضل توصلهما فجزاك الله أفضل ما جرى به أحاً .. فوالله لئن سلمت لك لأرفعن ناظرك ولأعلن كعبك ولأتبعن الرجال غبار قدميك)

يقول إبراهيم :

(فقلت : يهزأ بي)

فلما وصلت إلى عبد الملك أدنانى حتى أجلسنى في مجلسى الأول ثم قال :

(١) الحارس

(يا ابن طلحة .. لعل أحداً من الناس شاركك في نصيحتك ؟)

قال :

(لا والله .. ولا أعلم أحداً كان أظهر عندي معروفاً ولا أوضح يداً من الحجاج ولو كنت محابياً أحداً بديني لكان هو .. ولكني آثرت الله عز وجل ورسوله ﷺ والمسلمين .. ولو أردت الدنيا لكان لي في الحجاج أمل)

فقال :

(قد علمت ذلك .. وقد أزلت الحجاج عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما وأعلمته أنك استنزلتني له عنهما استصغاراً ووليته العراقيين^(١) لما هناك من الأمور التي لا يرحضها^(٢) إلا مثله وأعلمته أنك استدعيتني إلى التولية له عليهما استزادة له ليلزمه من ذمامك^(٣) ما يؤدي به عنى إليك أجر نصيحتك فاخرج معه فإنك غير ذام صحبته مع تقريظه^(٤) ويدك عنده)^(٥)

(١) يقصد عراق العرب وعراق العجم

(٢) الرحض هو الغسل والمراد يقدر عليها

(٣) عهدك وأمانك

(٤) مدحه إياك

(٥) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان - الجزء الثاني - ص ٤١ / ٤٢

ويتضح لنا هنا أن عبد الملك بن مروان استشف صدق نيه إبراهيم بن طلحة وكيف أنه ينصحه الله ولرسوله ويثبت منها أن الحجاج قد تجاوز كثيراً في حق أهل الحرمين وهم من هم فقبل نصيحته بعد أن أخذه الغضب في البداية ولم يكتفى بقبول نصيحته فقط وإنما أضاف عليها أن رفع مكانته عند الحجاج بأن ادعى أن إبراهيم هو من نصح عبد الملك بأن يولى الحجاج العراق إستعظماً لقدراته الإدارية الفذة فيظل الحجاج حاملاً له إياها طوال عمره ..

على أى حال مرحلة ولاية الحجاج للحرمين لم تطل كثيراً وقد توفي بشر بن مروان والى العراق وشقيق عبد الملك ولعل شخصاً مثل الحجاج يستطيع أن يضبط أمور أهل العراق فالناس هناك لا تستقيم لوالى ولا تنزل على طاعته إلا قليلاً ..

كان هذا فى الماضى ..

الحجاج فى الطريق إليهم الآن ..

ولايته للعراق

أبرز مراحل حياة الحجاج .. عشرون عاماً من الحكم المتواصل للعراق وما تلاها .. وإذا تحدثنا عن حكم الحجاج للعراق فأول ما سيأتى على خاطرنّا هو خطبته الشهيرة التى خطبها فى أهل الكوفة عاصمة العراق وقتها .. الحجاج بعد أن تسلم عهده على العراق من عبد الملك بن مروان أخذه وخرج فى جمع من إثنى عشر رجلاً فوصلوا إلى الكوفة صباح يوم جمعة فاغتسل وبدل ثيابه ولبس عمامة حمراء من صوف وألقى عذبة العمامة^(١) بين كتفيه ثم تقلد سيفه وتنكب قوسه ودخل على الناس فى صحن المسجد ومشى بينهم متبختراً حتى وصل المنبر فإذا بالناس بدأوا يتهامسون فيما بينهم .. بعضهم ظنه وأصحابه من الخوارج .. إلا أنه فى النهاية انتشر بين الناس أنه أمير بنى أمية الجديد على العراق فتجمع له الناس ينتظرون أن يبدأ حديثه ..

أهل الكوفة فى ذلك الزمان كانوا يحسنون الإهتمام بمظهرهم فكان الرجل منهم يلبس أوفر الثياب ويدخل المسجد وحوله عشرة أو عشرون من مواليه فلما رأوا لباس الحجاج استهانوا به .. صعد الحجاج المنبر وسكت .. أطلال السكوت جدا إذا أردنا الدقة .. ضج

(١) طرفها

الناس من سكوته وهموا أن يحصبوه^(١) وكانوا معتادين على هذا مع أمراءهم وقد فعلوا هذا مع بشر بن مروان شقيق خليفتهم أفلا يفعلوه مع هذا الصامت ..

رجل اسمه محمد بن عمير تناول بعض الحصى في يده ثم قال
لرجل كان يجلس بجواره :

(هل لك أن أحصبه ؟)

فقال له :

(لا .. حتى أسمع كلامه)

ثم قال :

(لعن الله بنى أمية .. يستعملون علينا مثل هذا .. لقد ضيع العراق حين يكون مثل هذا أميراً عليه)

في البداية كان الهرج شديداً .. ثم هدا الأصوات .. ثم خفتت .. حتى ساد الصمت تماماً .. ذلك الرجل الصامت يلبس عمامة تغطي غالبية وجهه فلا يظهر منها إلا عيناه .. يجلس مسنداً ذقنه على إبهمه و واضحاً أصبعه السبابة على فمه .. ينظر يمنة ويسرة ثم .. ثم ماذا ؟! .. لا شيء يحدث .. الرجل لا يتحرك تقريباً .. ووسط

(١) يقذفوه بالحصى

كل تلك الأفكار التي تدور في أذهان الناس يقف الحجاج فجأة كاشفاً عن وجهه صائحاً فيهم :

(أنا ابن جلا ^(١) وطلاع الثنايا ^(٢) .. متى أضع العمامة تعرفوني)

ثم أكمل :

(أنا الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود ..
أما والله إنى لأحمل الشر بثقله وأحذوه بنعله وأجزيه بمثله ..
والله يا أهل العراق إنى لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها ..
وإنى لصاحبها .. والله لكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحي قد
شمرت عن ساقها تشميراً .. إنى والله يا أهل العراق ما أغمز كتغماز
التين ^(٣) ولا يُقَعِّع لى بالشَّنان ^(٤) ولقد فررت عن ذكاء وجريت إلى
الغاية القصوى ^(٥))

(١) الجلا هو طلوع الصبح والمراد هنا أنه واضح وصريح

(٢) الثنايا جمع ثنية وهي الطريق في الجبل والمراد هنا أنه شخص قوى خبر الحياة

وعركها

(٣) تغماز التين هو الضغط عليه ليعرف إذا ما كان ناضج أم لا والمقصود هنا أنه رجلاً

غليظاً لا يمكن الضغط عليه

(٤) الشَّنان جمع شَن وهو الجلد اليابس وكانوا يضعونه على مؤخرة الإبل والقعقة هو

تحريك هذا الجلد فتفزع منه الإبل وتسير حيثما أرادوا والمراد هنا أنه شخص لا يهاب شيئاً ولا يخشى أحداً

(٥) كناية عن تمام سنه وذكاه

و قرأ :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾^(١)

ثم قال :

(وأنتم أولئك وأشباه أولئك .. يا أهل العراق .. يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق .. والله إن كان أمركم ليهمنى قبل أن أتى إليكم ولقد كنت ادعوا الله أن يبتليكم بى .. ولقد سقط منى البارحة سوطى الذى أؤدبكم به فاتخذت هذا مكانه " وأشار إلى سيفه " .. والله لآخذن صغيركم بكبيركم .. وحرکم بعبدکم .. ثم لأرصعنكم رضع^(٢) الحداد الحديدية والخباز العجينة)

ثم أكمل :

(إن أمير المؤمنين عبد الملك نشر كنانته^(٣) فعجم^(٤) عيدانها فوجدنى أمرها عوداً وأصلبها مكسراً فوجهنى إليكم ورمى بى فى

(١) النحل : ١١٢

(٢) ضرب

(٣) الكنانة هى جعبة الأسهم

(٤) عضها فاختر قوتها

نحوركم .. فإنكم أهل بغى وخلاف وشقاق ونفاق فإنكم طالما أوضعتم في الشر وسننتم سنن الغى .. فاستوثقوا واستقيموا .. فوالله لأذيقنكم الهوان ولأمرينكم به حتى تدروا .. ولألحونكم لحو العود^(١) .. ولأعصبنكم عصب السلمة^(٢) حتى تذلو .. ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل^(٣) حتى تذروا العصيان وتنقادوا .. ولأقرعنكم قرع المروة^(٤) حتى تلينوا .. إني والله ما أعد إلا وفيت ولا أخلق إلا فريت^(٥) فإياي وهذه الجماعات فلا يركبن رجل إلا وحده .. أقسم بالله لتقبلن على الإنصاف ولتدعن الإرجاف وقيلاً وقالاً وما تقول وما يقول وأخبرني فلان^(٦) أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده .. فيم أنتم وذاك ؟ .. والله لتستقيمن على الحق أو لأضربنكم بالسيف ضرباً يدع النساء أيامى^(٧) والولدان يتامى حتى تذروا السُمهى^(٨) وتقلعوا عن ها وها ..

(١) لحو العود هو تقشير الشجر ولكن المراد هنا هو شتمهم وإذلالهم

(٢) العصب هو القطع والسلمة هي الشجرة العظيمة ذات الشوك والمراد كناية عن

تأديبهم حتى وإن كانوا يمثل أذى تلك الشجرة

(٣) الإبل الغريبة عن القطيع إذا ما وردت الماء معهم فكانت تضرب حتى تبتعد

(٤) المروة هو حجر أبيض رقيق كانوا يدقوه فيشكلوا منه ما يحتاجون فليل يصنع منه

سكاكين وما شابه وقيل يستخدم في إشعال النار

(٥) أى إذا قررت الأمر أمضيته

(٦) يقصد تداول الإشاعات على ألسنتهم

(٧) أرامل

(٨) الباطل

ألا إنه لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم ما جُبي في^(١) ولا قوتل عدو ..
وقد بلغني رفضكم المهلب^(٢) وإقبالكم على مصركم^(٣) عاصين مخالفين ..
وإني أقسم بالله لا أجد أحداً من عسكره بعد ثلاثة إلا ضربت عنقه
وأنهبت داره)

فما أن انتهى عند هذا إلا وتساقطت الحصوات من يد محمد بن
عمير دون أن يدرى بها وهو الذي كان يريد أن يحصيه منذ دقائق ..
بعدها أكمل الحجاج خطبته فأمر غلامه بأن يقرأ على الناس
كتاب عبد الملك بن مروان فجعل يقرأ :

(بسم الله الرحمن الرحيم .. من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين
إلى من بالعراق من المؤمنين والمسلمين .. سلام عليكم .. فإني أحمد
إليكُم الله)

فسكت الناس .. فقال الحجاج للغلام :

(إقطع)

(١) الفيء هو كل ما حصل عليه المسلمون من ممتلكات الحربيين بدون قتال مثل
الجزية والخراج وما شابه

(٢) يعني المهلب بن أبي صفرة قائد عسكر الأمويين

(٣) بلدكم والمراد رفضكم الخروج للجهاد

ثم نظر إليهم وقال :

(يا عبيد العصا .. يُسلم عليكم أمير المؤمنين فلا يرد راد منكم السلام .. أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب)

ثم قال للقارئ :

(اقرأ)

فقرأ حتى وصل إلى سلام عليكم فقال جميعهم :

(سلام الله على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته)

فتركهم ولم يكمل الرسالة ودخل قصر الإمارة وهو يقول :

(ألحقوا الناس بالمهلب .. واثتوني بالبراءات بموافاتهم .. ولا تغلقن أبواب الجسر ليلاً ولا نهراً حتى تنقضى هذه المدة)

وبالفعل تركوا الجسر مفتوحاً ينتظر المبادرين بالإلتحاق بجيش المهلب فالتحق من التحق وتأخر من تأخر فلما كان اليوم الثالث سمع الحجاج تكبيراً فى السوق فخرج حتى جلس على المنبر فقال :

(يا أهل العراق وأهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق .. إني سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذى يراد به وجه الله ولكنه التكبير

الذي يراد به الترهيب .. وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قصف^(١)
 .. يا بني اللكيعة^(٢) وعبيد العصا وأبناء الأيامى ألا يريـع رجل منكم
 على ظلعة^(٣) ويحسن حقن دمه ويعرف موضع قدمه .. فأقسم بالله
 لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها وأدبا لما بعدها (

انظر للاستزادة :

- (*) الكامل في التاريخ لابن الأثير - ٣٧٥/٤ - ص ٦٠٤
- (*) تاريخ الطبري - الجزء السادس - ص ٢٠٢ : ٢٠٥
- (*) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء التاسع - ص ٧ : ٩

(١) العجاجة هم رعا ع الناس وغوغائهم والقصف هو شدة الصوت فكانما أراد أن يقول
 لهم أن هذا ما هو إلا صوت رعاكم
 (٢) اللكيعة من اللع وهو اللؤم والحق ويقال : رجل فيه لكاعة
 (٣) الظلع هو العرج والمراد ألا يظهر أحدكم عرجه وقد يكونوا ادعوا العرج حتى لا
 يخرجوا مع جيش المهلب

بعدها جاء له شيخاً كبيراً يرعش وقال له :

(أيها الأمير .. إني من الضعف على ما ترى .. ولي ابن هو أقوى
على الأسفار مني .. أفتقبله بدلاً مني ؟)

فقال الحجاج :

(نفعل أيها الشيخ)

فلما ولي قال له عُنْبُوسَةُ بن سعيد بن العاص :

(أتدرى من هذا أيها الأمير ؟)

قال :

(لا)

فقال :

(هذا عُمير بن ضابئ البرجُمي الذي قال أبوه في عثمان :

هممت ولم أفعل وليتني .. تركت على عثمان تبكي حلائله)

و عمير هذا دخل على عثمان بن عفان رضى الله عنه بعد مقتله
فلطم وجهه ووطىء صدره فكسر ضلعين من أضلاعه .. فقال الحجاج :

(ردوه)

فلما ردوه قال الحجاج :

(أيها الشيخ .. هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رحمه الله تعالى بديلاً يوم الدار ؟ .. إن في قتلك أيها الشيخ لصلاً للمسلمين .. يا حرسى .. اضربن عنقه)

وكان سبب ذلك أن والد عمير وكان يدعى ضابىء بن الحارث البرجمي وجب عليه حبس أيام الخليفة عثمان لأنه استعار كلباً من قوم فأعاروه إياه ثم طلبوه منه وكان فحاشاً فرمى أمهم بالكلب وقال :

(فأمركم لا تتركوها وكلبكم .. فإن عقوق الوالدات كبير)

فاشتكوه لعثمان رضى الله عنه فوجب عليه الحبس وحين جيء به شد سكيناً في ساقه ليقتل بها عثمان رحمه الله لكنهم أمسكوه وأحسنوا أدبه وفي تلك الواقعة قال :

(هممت ولم أفعل وليتنى .. تركت على عثمان تبكى حالته)^(١)

ثم أمر منادياً فنادى :

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان - الجزء الثاني - ص ٣٤

(ألا إن عُمير بن ضائبى أتى بعد ثلاثة وكان سمع النداء فأمرنا
بقتله .. ألا إن ذمة الله بريئة ممن لم يأت الليلة من جند المهلب)

فخرج الناس فازدحموا على الجسر حتى وصلوا إلى المهلب وكان
فى رامهرمز فلما رأهم قال :

(قدم العراق اليوم رجل ذكر .. اليوم قوتل العدو)

وكان الحجاج هو أول من عاقب بالقتل على التخلف عن الثغور
إذ كانت العقوبة فى العراق على عهد الخلفاء الراشدين أن تنزع
عمامة الرجل ويشهر أمره للناس فيعرفه العامة .. ولما ولى أمر
العراق مصعب بن الزبير زاد على ما سبق حلق الرؤوس واللحى ..
ولما ولى أمره بشر بن مروان زاد على ما سبق بأن يرفع الرجل عن
الأرض ويُسمر فى حائط فيدق فى كفيه مسماران فربما مات منهما
وربما خرق المسمار كفه ونجى .. فلما ولى أمر العراق الحجاج بن
يوسف الثقفى قال :

(هذا لعب .. اضربوا عنق من يخل مكانه فى الثغر)

الحجاج والصحابي أنس بن مالك

بعد أن أنهى الحجاج أمر الكوفة أراد أن يحشد المزيد من الجنود لدعم جيش المهلب بن أبي صفرة في حربه ضد الخوارج فتحرك إلى البصرة وخطب في الناس خطبة لا تقل قسوة عن سابقتها حيث قال لهم :

(أيها الناس .. من أعياه داؤه فعندى دواؤه .. ومن استطال أجله فعلى أن أعجله .. ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله .. ومن استطال ماضى عمره قصرت عليه باقيه .. إن للشيطان طيفاً وللسلطان سيفاً فمن سقمت سريرته صحت عقوبته .. ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه .. ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة .. ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه .. إنى أنذر ثم لا أنظر وأحذر ثم لا أعذر وأتوعد ثم لا أعفو فإنما أفسدكم ترنيق^(١) ولا تكمن .. ومن استرخى لُبُّه ساء أدبه^(٢) .. إن الحزم والعزم سلباني سوطي وأبدلاني به سيفي فقائم في يدي .. ونجاده^(٣) في عنقي .. وذبابه^(٤) قلادة لمن عصاني .. والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب

(١) ضعف

(٢) اللبب هو ما يشد في صدر الدابة ليمنع تأخر الرجل والسرّج والمراد أن الهوادة واللين

أفسد الرعية

(٣) حمالته

(٤) حده

من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضربت عنقه^(١)

ثم أمرهم بالإلتحاق بجيش المهلب فكان منهم مثل ما كان من أهل الكوفة إلا أن فى تلك الفترة حدثت أولى الإحتجاجات على سياسة الحجاج حين نزل مكان يسمى رستقباد فأنكر زيادة عطايا الجنود^(٢) التى كان قد أقرها مصعب بن الزبير فاعترض عليه عبد الله بن الجارود وتحول الإعتراض تدريجياً إلى تمرد - سنأتى على ذكره بالتفصيل لاحقاً - شارك فيه ابن الصحابى أنس بن مالك فظن الحجاج أن لأنس رضى الله عنه يد فى هذا وأنه مشترك فيه فقال :

(ألا أرى أنساً يُعين على)

فدخل البصرة وأخذ ماله فجاءه أنس بن مالك يريد أن يفهم لماذا حدث هذا فعاجله الحجاج بقوله :

(لا مرحباً ولا أهلاً بك يا ابن الخبيثة .. شيخ ضلالة جوال فى الفتن .. مرة مع أبى تراب^(٣) ومرة مع بن الزبير ومرة مع ابن الجارود .. أما والله لأجردنك جرد القضيب ولأعصبنك عصب السلمة ولأقلعنك قلع الصمغة)

(١) جمهرة خطب العرب فى عصور العربية الزاهرة لأحمد زكى صفوت - الجزء الثانى

- ص ٢٧٨

(٢) نفقاتهم ومرتباتهم

(٣) إحدى كُنَى على بن أبى طالب رضى الله عنه

فقال أنس :

(من يعنى الأمير ؟)

و لم يتصور رضى الله عنه أن الحجاج يقصده هو بهذا الحديث
فقال الحجاج :

(إياك أعنى أصم الله صداك^(١))

فقال :

(إنا لله وإنا إليه راجعون .. والله لولا الصبية الصغار ما باليت
أى قتلة قتلت ولا اى مية مت)

ثم خرج من عنده حزينا وقرر أن يكتب إلى عبد الملك يشكو له
الحجاج وما فعله معه فكتب :

(بسم الله الرحمن الرحيم .. إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين
من أنس بن مالك .. أما بعد .. فإن الحجاج قال لى هجراً وأسمعى
نكراً ولم أكن لذلك اهلاً فخذ لى على يديه فإنى امت بخدمتى رسول
الله ﷺ وصحبتى إياه والسلام عليك ورحمة الله وبركاته)

فغضب عبد الملك بن مروان أشد الغضب على الحجاج كونه لم

(١) سمعك

يحفظ مقام أنس بن مالك وبعث إلى إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر وكان صديقاً للحجاج فقال له :

(دونك كتابي هذين فخذهما وأركب البريد إلى العراق وأبدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله ﷺ فادفع كتابي إليه وأبلغه مني السلام وقل له : يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتاباً إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك)

و جاء في كتاب عبد الملك إلى أنس رضى الله عنه :

(بسم الله الرحمن الرحيم .. من عبد الملك بن مروان إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ .. أما بعد .. فقد قرأت ما في كتابك وفهمت ما ذكرت من شكايك الحجاج .. وما سلطته عليك ولا أمرته بالإساءة إليك فإن عاد لمثلها أكتب إلى بذلك أنزل به عقوبتي وتحسن لك معونتي والسلام)

فاستبشر أنس بالكتاب وقال :

(جزى الله أمير المؤمنين عنى خيراً وعافاه وكفاه وكافاه بالجنة فهذا كان ظني به والرجاء منه)

ثم خرج إسماعيل من عنده فدخل على الحجاج فلما رآه الحجاج قال :

(مرحباً برجل أحبه وكنت أحب لقاءه)

فقال إسماعيل :

(أنا والله كنت أحب لقائك في غير ما أتيتك به)

فتغير وجه الحجاج وقال :

(ما أتيتني به ؟)

قال :

(فارقت أمير المؤمنين وهو أشد عليك غضباً ومنك بُعداً)

فأستوى الحجاج وقد ظهر عليه آثار الخوف فرمى إسماعيل إليه بالطومار^(١) وكلما قرأ الحجاج سطرًا من الرسالة إزداد خوفه وتعرقه وظل ينظر إلى إسماعيل ويقول :

(يغفر الله لأمير المؤمنين)

فلما انتهى من الرسالة قال :

(قم بنا إلى أبي حمزة نعتذر إليه ونترضاه)^(٢)

(١) فرخ الورق الذي كتبت فيه الرسالة

(٢) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر - الجزء السادس - ص ٢١٩ / ٢٢٠

وجاء فى كتاب عبد الملك بن مروان للحجاج :

(أما بعد يا ابن أم الحجاج .. فإنك عبد طمت بك الأمور فعلوت فيها حتى عدوت طورك وجاوزت قدرك .. يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب لأغمرنك غمرة كبعض غمزات الليوث الثعالب .. ولأخبطنك خبطة تود لها أنك رجعت فى مخرجك من بطن أمك .. أما تذكر حال آبائك فى الطائف حيث كانوا ينقلون الحجارة على ظهورهم ويحتفرون الآبار بأيديهم فى أوديتهم ومياهم ؟ .. أنسيت حال آبائك فى اللؤم والدناءة فى المروة والخلق ؟ .. وقد بلغ أمير المؤمنين الذى كان منك إلى أنس بن مالك جرأة وإقداماً .. وأظنك أردت أن تسبر ما عند أمير المؤمنين فى أمره فتعلم إنكاره ذلك وإغضائه عنك فإن سوغك ما كان منك مضيت عليه قدماً^(١) فعليك لعنة الله من عبد أخفش العينين^(٢) أصك الرجلين^(٣) ممسوح الجاعرتين^(٤) .. ولولا أن أمير المؤمنين يظن أن الكاتب أكثر فى الكتابة عن الشيخ إلى أمير المؤمنين فيك لأرسل من يسحبك ظهراً لبطن حتى يأتى بك أنساً فيحكم فيك .. فأكرم أنساً وأهل بيته واعرف له حقه وخدمته رسول

(١) أى تختبرنى فى أمره فإن تغاضيت عنك زدت فى أذيته

(٢) ضيق العينين وكانت عيون الحجاج ضيقة

(٣) من التصقت أقدامه ببعضهما فوجد صعوبة فى المشى

(٤) الجاعرة هو حرف الورك المشرف على الفخذ والمقصود هنا هو استقامة وركيه كناية

عن إهانتته

الله ﷺ ولا تقصرن في شيء من حوائجه .. ولا يبلغن أمير المؤمنين عنك خلاف ما تقدم فيه إليك من أمر أنس وبره وإكرامه فيبعث إليك من يضرب ظهرك ويهتك سترك ويشمت بك عدوك .. والقه في منزله متنصلاً إليه وليكتب إلى أمير المؤمنين برضاه عنك إن شاء الله والسلام)

فخرج الحجاج من قصر الإمارة يهرول إلى أنس بن مالك رضى الله عنه حتى اجتمع به واعتذر إليه فقال له أنس رضى الله عنه :

(ما شكوت حتى بلغ مني الجهد .. وحتى زعمت أننا الأشرار وقد سمانا الله جل وعز الأنصار .. وزعمت أننا أهل النفاق ونحن الذين تبوأوا الدار والإيمان وسيحكم الله عز وجل بيننا وبينك فهو أقدر على الغير لا يشبه الحق عنده الباطل ولا الصدق الكذب .. وزعمت أنك اتخذتني ذريعة وسلماً على مساءة أهل العراق باستحلال ما حرم الله عز وجل عليك منى ولم يكن بى عليك قوة فوكلتك إلى الله عز وجل وإلى أمير المؤمنين فحفظ من حقى ما لم تحفظه .. فوالله لو أن النصارى على كفرهم رأوا رجلاً خدّم المسيح عيسى بن مريم يوماً واحداً عرفوا من حقه ما لم تعرفه من حقى وقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين .. وبعد .. فإن رأينا خيراً حمدنا الله عز وجل وأثنينا به وإن رأينا غير ذلك صبرنا والله المستعان)

فقال الحجاج وقد أفحمه رد أنس :

(أردت أن يعلم أهل العراق إن كان من ابنك ما كان وإن بلغت منك
ما بلغت أنى إليهم بالعقوبة أسع)^(١)

(١) أنساب الأشراف للبلاذري - الجزء السابع - ص ٢٩٥ : ٢٩٧

الفصل الرابع

الحجاج والخوارج

- بداية ظهور الخوارج
- الحرب على الخوارج الأزارقة
- الحرب على الخوارج الصُفْرية



بداية ظهور الخوارج

خلال معركة صفين التى نشبت بين جيش على بن أبى طالب وبين معاوية بن أبى سفيان رضوان الله عليهم أجمعين بسبب مسألة القصاص من قتلة عثمان بن عفان وبعد مرور ثلاثة أشهر من القتال ظهر أن القوتين تقريباً متكافئتان ولا يبدو أن نصراً وشيكاً يلوح فى الأفق فبدأ بعض الناس فى محاولة الإصلاح لأن استمرار القتال بهذا الشكل كان ليفنى المسلمين ويضعف شوكتهم ..

من ضمن هؤلاء الأشعث بن قيس الكندى ..

الأشعث بن قيس كان ضمن جيش على بن أبى طالب رضى الله عنه فوقف يوماً يخطب فى الناس قائلاً :

(قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان فى يومكم هذا وما قد فنى فيه من العرب .. فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيتم مثل هذا اليوم قط .. ألا فليبلغ الشاهد الغائب أننا إن نحن توافقنا غداً إنه لفناء العرب وضيعة الحرمات .. أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحتف ولكنى رجل مسن أخاف على النساء والذرارى غداً إذا فنيننا .. اللهم إنك تعلم أنى قد نظرت لقومى ولأهل دينى فلم آل .. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ..

والرأى يخطئ ويصيب وإذا قضى الله أمراً أمضاه على ما أحب العباد
أو كرهوا .. أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم^(١)

خطاب الأشعث وصل بطريقة ما إلى معسكر جيش الشام فلما
سمعه معاوية قال :

(أصاب ورب الكعبة .. لئن نحن التقينا غداً لتميلن الروم
على ذرارينا ونسائنا .. ولتميلن أهل فارس على نساء أهل العراق
وذرايرهم .. وإنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهي .. اربطوا المصاحف
على أطراف القنا^(٢))

فخرجت النداءات من معسكر أهل الشام :

(يا أهل العراق .. من لذارينا إن قتلتمونا .. ومن لذارايكم إن
قتلناكم .. الله الله في البقية)

و إذا بهم قد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح وهم ينادون :

(يا أهل العراق .. كتاب الله بيننا وبينكم)

فقال الأشعث لأمير المؤمنين :

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد - الجزء الثاني - ص ٢١٤

(٢) الرماح

(يا أمير المؤمنين .. إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس وليس آخر أمرنا كأوله .. وما من القوم أحد أحنى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام منى فأجب القوم إلى كتاب الله عز وجل فإنك أحق به منهم وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال)

فقال على رضى الله عنه :

(إن هذا أمرٌ يُنظر فيه)

فلما تأخر الرد ظن أهل الشام أن أهل العراق إعتقدوا أنهم خائفين من القتال فأمر معاوية بن أبى سفيان أن يخرج إليهم عبد الله بن عمرو بن العاص فيخطبهم وكان فصيحاً فوقف بين الجيشين وقال :

(يا أهل العراق .. أنا عبد الله بن عمرو بن العاص .. إنها قد كانت بيننا وبينكم أمور للدين والدنيا فإن تكن للدين فقد والله أعذرنا وأعذرتكم .. وإن تكن للدنيا فقد والله أسرفنا وأسرفتم .. وقد دعوناكم إلى أمر لو دعوتمونا إليه لأجبناكم .. فإن يجمعنا وإياكم الرضا فذلك من الله فاعتنموا هذه الفرجة)

ظل على بن أبى طالب يفكر بالأمر وكان أميل لرفض طلب أهل الشام وبينما هو على هذه الحال جاءه بعضاً من أصحابه مقنعين فى الحديد سيوفهم على عواتقهم وقد اسودت جباههم من السجود

يتقدمهم مسعر بن فدكى وزيد بن حصين وعصابة من القراء فنادوه
باسمه لا بإمرة المؤمنين :

(يا علىّ .. أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت إليه وإلا قتلناك كما
قتلنا ابن عفان .. فوالله لنفعلنها إن لم تجيبهم)

فقال لهم :

(ويحكم .. أنا أول من دعا إلى كتاب الله وأول من أجاب إليه ..
وليس يحل لى ولا يسعنى فى دينى أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله ..
إنى إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم القرآن فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم
ونقضوا عهده ونبدوا كتابه ولكنى قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم وأنهم
ليس العمل بالقرآن يريدون)^(١)

وقد كان الإحتكام لكتاب الله فى ذلك الوقت عملاً موفقاً يسره الله
على السنة من ساهم فيه ووافق عليه أمير المؤمنين بسعة صدره حقناً
لدماء المسلمين وإصلاح بينهم فكان الحكمان هما أبو موسى الأشعرى
من فريق أهل العراق وعمرو بن العاص من فريق أهل الشام وقد إتفقا
على أن يجلسا للحكم فى رمضان من نفس العام وكانوا وقتها فى
شهر صفر عام سبعة وثلاثون هجرية حتى تهدأ نفوس القوم فيقبلوا

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد - الجزء الثانى - ص ٢١٤

الحكم أياً كان وقد شهد إجتماعهم عشرة من كل فريق وكان نص التحكيم كالآتي :

(هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان .. أننا نزل عند حكم الله وكتابه .. ونحیی ما أحيا الله ونمیت ما أمات الله .. فما وجد الحكمان فى كتاب الله عملاً به وما لم يجداه فى كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المتفرقة)

بعدها مر الأشعث بن قيس على جيش الكوفة ليقراً عليهم نص قرار التحكيم وأثناء ما كان يمر على فريق من بنى تميم خرج له رجل يدعى عروة بن جرير وقال له :

(أتُحكَمون فى دين الله الرجال ؟)

كلمة وجدت صداها تدريجياً فى صفوف جيش الكوفة وإعتقد فى صحتها طائفة كبيرة من الجيش وبدأوا فى التساؤل عن جدوى التحكيم من الأساس إذا كان حكم الله واضحاً لا يحتاج لتدخل بشر .. من وجهة نظرهم معاوية رجل رفض مبايعة الخليفة الشرعى ويجب قتاله حتى يعود لصفوف المسلمين مرة أخرى .. وبدأوا فى ترديد الجملة التى ستجذب إليهم الكثير من المؤيدين لاحقاً :

(لا حكم إلا لله)

بعد وصول الإمام علىّ إلى الكوفة أتت إليه نفس الطائفة التي دعت له لقبول الإحتكام لكتاب الله رافضة النتيجة التي آلت إليها نتيجة التحكيم ودعوه إلى إستمرار القتال مع جيش الشام فقال لهم :
(ويحكم .. أبعد الرضا والعهد والميثاق أرجع ؟! .. أبعد أن كتبناه ننقضه ؟! .. إن هذا لا يحل)

فبدأت تلك الفئة الرافضة في كيل الإنتقادات للإمام علىّ رضى الله عنه فكان يعظمهم محاولاً توضيح الأمور لهم وكيف أن الإحتكام لكتاب الله كان هو الحل الأسلم والأصلح للأمة فكانوا يأبون الإستماع له .. ذهب إليهم عبد الله بن عباس رضى الله عنه وجادلهم فأحسن جدالهم وعاد منهم بأربعة آلاف شخص تائبين وقد أغضب هذا الأمر الباقيين منهم فبدأوا في التعرض لأمير المؤمنين بما لا يليق به وبدأوا في توجيه السباب إليه ثم زادوا فى غلوهم حتى قاموا بتكفيره ووجوب الخروج عليه وقتاله .. إعتزلوا الكوفة ولجأوا لمنطقة تسمى النهروان وأطلقوا على أنفسهم إسم جماعة المؤمنين إلا أن بخروجهم على أمير المؤمنين صارت الناس تدعوهم بالخوارج ولما شاع الإسم قبلوا به وقالوا إنما نحن خوارج على أئمة الجور والفسق والضعف وما خروجنا إلا جهاداً فى سبيل الله ..

لاحقاً وبعد سنين طوال انقسمت الخوارج إلى فرق فكانت أكبر فرقهم الخوارج الأزارقة بقيادة نافع بن الأزرق والخوارج الصفرية بقيادة عبد الله بن صفار وقيل أنهم أتباع زياد بن الأصفر بالإضافة لفرق أخرى مثل الخوارج البيهسية بقيادة أبو بيهس هيصم بن جابر وفرقة النجدات بقيادة نجدة بن عامر وكل فرقة فيهم كان لها منظورها وغالباً ما كان بينها وبين الفرق الأخرى إختلافات كانت تفضى إلى تكفيرهم فى بعض الأحيان فالخوارج الأزارقة مثلاً خرجوا من البصرة وانشقوا عن باقى فرق الخوارج وأقاموا فى الأهواز كون البصرة أصبحت دار كفر لا يجب المكوث فيها ..

الحرب على الخوارج الأزارقة

قبل تولى الحجاج إمارة العراق كان عليها بشر بن مروان وقد أمره شقيقه عبد الملك بقتال الخوارج المتمركزين في الأهواز بعد أن استفحل أمرهم وبالفعل جهز بشر جيشاً من أهل العراق وأرسلهم تحت قيادة المهلب بن أبي صفرة لقتالهم واستطاع بالفعل المهلب في دحرهم إلى بلاد فارس ثم انتظر في رامهرمز ينتظر التعزيزات لمواصلة قتالهم .. في تلك الأثناء توفي بشر بن مروان وعين عبد الملك الحجاج أميراً على العراق ودخل الكوفة كما أسلفنا وألقى في قلوب أهلها الرعب فخرجت الوفود منها إلى رامهرمز للانضمام لجيش المهلب وذهب الحجاج إلى البصرة ليحشد المزيد وليعلم أهلها من هو أميرهم الجديد وسياسته فخطب فيهم الخطبة التي سبق الإشارة إليها وأمرهم بالانضمام إلى جيش المهلب بن أبي صفرة وأرسل معهم قائداً آخر هو عبد الرحمن بن مخنف فأصبح هناك جيشان لبنى أمية هما جيش المهلب وجيش ابن مخنف وكلاً منهم يحارب الخوارج في ناحية ..

أما المهلب فقد خندق حول جيشه حماية له ونصح ابن مخنف أن يفعل مثله إلا أنه استهان بالخوارج لقلة أعدادهم فلم يخندق وفي أحد المعارك زاد الضغط على المهلب فأرسل إلى ابن مخنف يقول له :

(إن عدونا واحد وقد ترى ما لقي المسلمين فامدد اخوانك يرحمك الله)

فاستجاب له ومدّه بالرجال والخيـل مرة بعد مرة حتى صار أغلب جيشه عند المهلب فما كان من الخوارج إلا أن مالوا على ابن مخنف وهو غير متحصن فقتلوه وقتلوا من رجاله الكثير فأرسل الحجاج قائداً آخر هو عتاب بن ورقاء إلا أنه سحبه بعد فترة قصيرة لاختلافه مع المهلب فصارت قيادة الجيش للمهلب وحده ..^(١)

فى تلك الأثناء حدثت ثورة ابن الجارود ضد الحجاج فى البصرة وسنأتى على ذكرها لاحقاً واستطاع الحجاج أن يقمعها وأرسل رؤوس قادتها للمهلب لتقوى بها قلوب جنوده وتضعف معها عزيمة الخوارج إلا أن تلك الرؤوس المقطوعة لم تنل من الخوارج واستمر قتالهم لجيش المهلب سنة كاملة حتى استتبأ الحجاج النصر وأرسل إليه رسالة مع أحد رجاله يدعى البراء بن قبيصة قال فيها :

(أما بعد .. فإنك والله لو شئت فيما أرى لقد اصطلمت^(٢) هذه

(١) تاريخ الطبرى - الجزء السادس - ص ٢١١ : ٢١٥

(٢) اقتلعت

الخارجة المارقة^(١) ولكنك تحب طول بقائهم لتأكل الأرض حولك ..
وقد بعثت إليك البراء بن قبيصة لينهضك إليهم فانهم إذا
قدم عليك بجميع المسلمين ثم جاهدكم أشد الجهاد .. وإياك والعلل
والأباطيل والأمور التي ليست لك عندى بسائغة ولا جائزة والسلام)

كان هذا إتهام مباشر من الحجاج للمهلب بالتقصير في قتال
الخوارج فأراد أن يثبت العكس له ولرسوله فاستدعى الجيش وقسمه
كتائب ووضع أبنائه على رأس تلك الكتائب وجعل البراء بن قبيصة
على أحد التلال ليراقب القتال ثم أمرهم بالهجوم على الخوارج
فاقتتلوا قتالاً شديداً وامتد قتالهم من الصباح إلى غروب الشمس
ولا غالب ولا مغلوب فعاد كل منهم إلى معسكره فوقف المهلب جوار
ابن قبيصة وقال له :

(ما رأيك ؟)

فقال البراء :

(لا والله ما رأيك كبنيك فرسانا قط .. ولا كفرسانك من العرب
فرساناً قط .. ولا رأيك مثل قوم يقاتلونك قط أصبر ولا أبأس .. أنت
والله المعذور)

(١) يعني الخوارج

ويجب توضيح أمر مهم وهو أن الخوارج - على قلة أعدادهم - كانوا خبراء في الحروب وكانوا يحاربون حتى الموت وعن اقتناع تام أنهم على الحق فكان هذا يعطيهم دفعة معنوية عظيمة تجبر ما كان فيهم من نقص عددي ولا يمكن بأي حال وصفهم بأنهم كانوا مقاتلين ضعفاء أو ما شابه وإنما كانوا مقاتلين من الصف الأول بالإضافة لقناعتهم بحسن خاتمتهم وأن مآلهم إلى الجنة ..

بعدها عاد البراء إلى الحجاج فأخبره بعذر المهلب بن أبي صفرة وكان قد أرسل معه رسالة قال فيها :

(أما بعد .. فقد أتاني كتاب الأمير أصلحه الله واتهامه إياي في هذه الخارجة المارقة وأمرني الأمير بالنهوض إليهم وإشهاد رسوله ذلك وقد فعلت فليسأله عما رأى .. فأما أنا فوالله لو كنت أقدر على استئصالهم وإزالة التهم عن مكانهم ثم أمسكت عن ذلك لقد غششت المسلمين وما وفيت لأمر المؤمنين ولا نصحت للأمير أصلحه الله .. فمعاذ الله أن يكون هذا من رأيي ولا مما أدين الله به والسلام)

عندها صدق الحجاج رواية المهلب وتركه على قيادة الجيوش فاستمر في قتال الخوارج ثمانية عشر شهراً ولا سبيل إليه لاستئصالهم حتى حدث ما كان لا يتوقعه أحد .. لا الحجاج ولا المهلب ولا الخوارج أنفسهم ..

أمير الخوارج الأزارقة في ذلك الوقت كان رجلاً يدعى قطري بن الفجاءة واسمه الحقيقي كان جعونة ابن مازن بن يزيد الكنانى وإنما سمي قطري نسبة لمحل ميلاده في بلدة تقع بين البحرين وعمان وأما الفجاءة فسمى بها لأنه كان مرة في اليمن فقدم على أهله فجأة .. قطري هذا كان رجلاً شجاعاً ومقاتلاً شرساً وكان يميل إلى إعزاز أصحابه من الخوارج بشكل كبير وفي أحد الأيام خرج أحد عماله في سرية وكان اسمه المقعطر بن ضبة فقتل أحد رجال الخوارج أصحاب البأس فيهم فما أن عرفت الخوارج ما حدث إلا واجتمعوا عند قطري بن الفجاءة يطالبونه بتسليم المقعطر ليقتلوه فداءً لدم أخاهم فقال لهم :

(ما أرى أن أفعل .. رجل تأول فأخطأ في التأويل .. ما أرى أن تقتلوه وهو من ذوى الفضل منكم والسابقة فيكم)

فرفضوا قراره ووقع الاختلاف بينهم فخلعوه وولوا مكانه رجلاً آخر يدعى عبد ربه الكبير وعندها تقسمت قوة الخوارج .. ربعمهم أو خمسهم مع قطري والباقيين مع عبد ربه وما هي إلا أيام حتى نشب القتال بينهم فكتب المهلب إلى الحجاج يبشره قائلاً :

(أما بعد .. فإن الله قد ألقى بأس الخوارج بينهم فخلع عظمهم^(١))

قطرياً وبايعوا عبد ربه الكبير وبقيت عصابة منهم مع قطري فهم يقاتل بعضهم بعضاً غدو وعشياً .. وقد رجوت أن يكون ذلك من أمرهم سبب هلاكهم إن شاء الله والسلام)

فكتب إليه الحجاج :

(أما بعد .. فقد بلغنى كتابك تذكر فيه اختلاف الخوارج بينها فإذا أتاك كتابي هذا فناهضهم على حال اختلافهم وافتراقهم قبل أن يجتمعوا فتكون مؤنتهم عليك أشد والسلام)

إلا أن المهلب كان حاضراً للموقف والحجاج غائباً فرفض تنفيذ الأمر وكتب إليه مرة أخرى وقال :

(أما بعد .. فقد بلغنى كتاب الأمير وكل ما فيه قد فهمت ولست أرى أن أقاتلهم ما داموا يقتل بعضهم بعضاً وينقص بعضهم عدد بعض .. فإن تموا على ذلك فهو الذى نريد وفيه هلاكهم .. وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رقق بعضهم بعضاً فأناهضهم على تفيئة ذلك وهم أهون ما كانوا وأضعفه شوكة إن شاء الله والسلام)

فرجح قول المهلب كونه الأوقع لأنه لو كان هاجمهم فى بداية اختلافهم لتوحدوا ضده مرة أخرى أما لو تركهم فكل يوم يبعدهم عن بعضهم أكثر ويفرق شملهم ويلقى بينهم العداوة وحتى إذا اجتمعوا

بعد تلك الفترة الطويلة من العداء فلن يكونوا على نفس حالتهم السابقة ولكانوا أضعف وأهون على جيش المهلب ..

تركهم المهلب يقتتلون شهراً حتى خرج قطرى بمن معه وتراجعوا إلى طبرستان وبقي عبد ربه بمن بقى معه وفيهم جراحاً وإرهاقاً شديدين فاستغل المهلب تلك الفرصة ومال عليهم وتقاتلوا قتالاً شديداً انتهى بقتل أغلب الخوارج وسلبهم المهلب متاعهم وسبى نساءهم كون الخوارج كانوا يسبون المسلمين ..^(١)

وصلت الأخبار إلى الحجاج ففرح أيما فرح ولكنه أراد أن يستأصل الأزارقة تماماً فسير جيشاً آخر من العراق بقيادة سفيان بن الأبرد ومحمد بن الأشعث ليطلبوا الزعيم القديم والذي هرب مع من بايعوه إلى طبرستان ليأتوا به فأتوه وتقاتلوا قتالاً عظيماً انتهى بهروب قطرى وتفرق أصحابه عنه وقيل أنه هرب في أحد الشعب فسقط عن فرسه أثناء هروبه وانكسر وركه فصار لا يستطيع المشي فلحقه جنود العراق وقتلوه وأتوا برأسه إلى الحجاج ..

أما المتبقين من الأزارقة فقد بايعوا رجلاً يدعى عبيدة بن هلال ولكنهم كانوا في حالة شتات فتجمعوا وتحصنوا في أحد الحصون فحاصرهم سفيان بن الأبرد وكتب لهم بالأمان إذا استسلموا ولكنهم

(١) تاريخ الطبرى - الجزء السادس - ص ٣٠١ : ٣٠٤

رفضوا كعادتهم حيث أن مبدأ الخوارج القتال حتى النهاية فظلوا بالداخل وذبحوا دوابهم حتى انتهى ما لديهم من طعام فخرجوا للقتال فتكتل عليهم جيش بن الأبرد وقتلهم جميعاً وبهذا انتهت الحرب على الخوارج الأزارقة بعد قتال طويل ..

لم تكن تلك الحرب الوحيدة للحجاج مع الخوارج ..

فى الناحية الأخرى هناك حرباً أطول وأصعب مع الأزارقة الصُفْرية ..

الحرب على الخوارج الصُفْرية

على عهد عبد الملك بن مروان كان هناك رجل إسمه صالح بن مُسَرِّح .. كان من المؤمنين بمنهج الخوارج الصُفْرية حيث كان يرى أن كل المعاصي صغيرها وكبيرها كفر وشرك إلا التي يغفرها الله خاصة أما ما لا يغفرها فهي كفر صريح مهما صغرت .. السب واللطمه كفر وشرك من وجهة نظرهم وقد كان التوسع في التكفير هي سمة الخوارج عموماً وهي عادتهم ولا شيء غريب هنا .. كان أيضاً يثني على الخليفة أبو بكر وعمر ويسب عثمان ويصفه بنفس أوصاف من خرجوا عليه وقتلوه .. وبالطبع كان يرى بضرورة مواجهة الحكام والخروج عليهم وقتالهم ..

صالح بن مُسَرِّح كان له أصحاب يقرأ بهم القرآن ويفقههم فيه وفي أحد الأيام دعاهم إلى الخروج وإنكار ظلم بني أمية وجهادهم فوافقوه فأمرهم بمراسلة أصحابهم ليجتمعوا فإن اجتمعوا اتفقوا على ما سيفعلونه والأمر شوري .. فأتاه كتاب واحد من فرسان الخوارج اسمه شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني يقول فيه :

(إنك كنت تريد الخروج فإن كان ذلك من شأنك اليوم فأنت شيخ المسلمين ولن نعدل بك أحداً .. وإن أردت تأخير ذلك اليوم أعلمني

فكتب إليه صالح :

(إنه لم يمنعني من الخروج إلا انتظارك فأقبل إلينا فإنك ممن لا يُستغنى عن رأيه ولا تُقضى دونه الأمور)

فاتاه شبيب وأخ له اسمه مصاد ونفراً من أصحابه في مكان إقامته وكان في منطقة تسمى دارا في إمارة الجزيرة فلما التقوا توافقوا على الخروج على بني أمية وقتالهم فقال شبيب :

(اخرج بنا رحمك الله .. فوالله ما تزداد السنة إلا دروساً ولا يزداد
المجرمون إلا طغياناً)

مجموعة من الرجال قيل أنهم بين مائة وعشرة ومائة وعشرين رجل .. بلا خيول .. سلاح خفيف .. قلة قليلة تكاد لا تذكر ولا يؤبه لها .. الأمر في البداية كان محلياً فلم تكن المواجهة بينهم وبين جيوش بنى أمية بكاملها وإنما بدأوا أمرهم من الجزيرة .. نصحهم صالح بن مسرح بأن يأخذوا دواب وخيول كانت لمحمد بن مروان عامل عبد الملك على الجزيرة فاحتملوا عليها وهربوا ومكثوا

ثلاثة عشر ليلة فى صحراء الجزيرة حتى بلغ أمرهم محمد بن مروان فأمر بأن يخرج إليهم جيشاً من ألف فارس عليهم عدى بن عدى الكندى ..

ألف فارس مقابل مائة وعشرين على الأكثر وبالرغم من هذا كان جيش الإمارة كارهاً لقتالهم بسبب قوة عزيمة الخوارج كما أسلفنا فالخوارج كانوا يقاتلون بضراوة منقطعة النظير مقتنعين أنهم على الحق وأنها إما الظفر أو الشهادة .. وبما أن المقدمات غالباً ما تكون دليلاً على النهايات فقد هزم جيش الإمارة وفروا أمام الخوارج فغضب محمد بن مروان أشد الغضب وقرر إرسال جيشان آخران كل منهما به ألف وخمسمائة فارس تحت قيادة خالد بن جزء السلمى والحارث بن جعونة العامرى فالتقوا بالخوارج ودارت بينهم معركة قوية بدأت مع العصر وانتهت فى المساء بمقتل ثلاثين خارجى وسبعين من جيش الإمارة ..

انسحب بعدها الخوارج فعبروا أرض الجزيرة وأرض الموصل حتى وصلوا لمنطقة تسمى الدسكرة فعلم بأمرهم الحجاج فأرسل فى طلبهم ثلاثة آلاف من جند الكوفة على رأسهم الحارث بن عميرة فالتقوا فى قرية تسمى مديج فقسم صالح بن مسرح أصحابه إلى قلب وجناحين فى كل منهم ثلاثون رجل وجعل نفسه على القلب وفى الجناحان شبيب بن يزيد وسويد بن سليم فانهزم سويد فى الميسرة

فاضطر صالح إلى القتال على جبهتين فلم يستطع وقتل فتراجعت قواته إلى الميمنة فاهتز شبيب وسقط عن فرسه وقبل أن تضيق عليهم الدائرة أمرهم بأن يتراجعوا فيتحصنوا في أحد الحصون القريبة وبالفعل دخله الخوارج وكانوا قرابة السبعين رجل فأحاط بهم الحارث بن عميرة وأحرق عليهم باب الحصن وتركهم وقال إنهم لا يستطيعون أن يخرجوا من الحصن ولن يقدرُوا على إطفاء النيران وانصرفوا على أن يصبحوهم في اليوم التالي ..

لما رأى شبيب تراجعهم قال لأصحابه :

(ما تنتظرون ؟ فوالله لئن صبحكم هؤلاء غدوة إنه لهلاككم)

فقالوا :

(مرنا بأمرك)

فقال :

(بايعونى أو من شئتم من أصحابكم واخرجوا بنا حتى نشد عليهم فى عسكرهم فإنهم آمنون)

و أراد استغلال أنهم فى حالة إسترخاء بعد إطمئنانهم من زوال خطر الخوارج فاستطاعوا إطفاء الحريق عن طريق الإتيان بقطع من القماش والصوف وغمروها فى الماء ثم ألقوها على الحريق فخمدت

النيران تدريجياً حتى استطاعوا الخروج وهجموا على جيش الحارث .. عامل المفاجأة وقوة الخوارج وتمكنهم القتالي وعزيمتهم بالإضافة لخوف جيش الكوفة منهم أفرز نتائج كارثية على جيش الحجاج فقتل الحارث وقتل من جيشه الكثير وتشنت الباقيين وغنم الخوارج منهم غنائم عظيمة وذاع صيت شبيب وبدا أنه أفضل قائد للخوارج منذ زمن ..

لو أن هناك شخصاً نال من كبرياء الحجاج طوال حياته لكان شبيب بن يزيد .. شبيب فعل بجيوش الحجاج ما لم يستطع غيره فعله والعجيب في الأمر أن أكبر جيش تجمع لشبيب في مواجهاته مع بني أمية كان قرابة الالف مقاتل في حين أن بعض الروايات ذكرت أن جيوش بني أمية وصلت في بعض الأحيان إلى خمسون ألف مقاتل ..

الحجاج لما رأى ما حدث لجيش الحارث أرسل إلى سفيان ابن أبي العالية الخثعمي وكان على رأس ألف مقاتل ذهبوا للسيطرة على طبرستان فأعاده إليه مرة أخرى وجمع إليه فلول جيش الحارث وأمره بانتظار جند آخر سيأتيه مع واحد مع قادته اسمه سورة بن أبجر وأمره بقتال شبيب .. في المقابل بعد ما حدث فقد مال بعض الناس إلى شبيب كونه حقق انتصاراً إعجازياً على جيش الحجاج

فصار يمر في المدن يجمع ما استطاع من الأعوان حتى انه أحضر أمه وزوجته لينضمّا إليه في القتال .. أما عن أمه فكان اسمها جُهيْزة وأما عن زوجته فكان اسمها غزالة .. وغزالة تلك لها قصة مع الحجاج سنأتى على ذكرها لاحقاً ..

ماحدث أن سورة بن أبجر تأخر على سفيان وعاجله شبيب بالهجوم فلم يجد سفيان بداً من الهجوم .. العجيب في هذه المعركة أنها لم تطول .. شبيب وأصحابه عددهم أقل من المعتاد لكن لا يهم فالخوارج لم يكن لهم يوماً ظهيراً كبيراً وبالتالى فتلك الأعداد تعد مقبولة .. فترة قصيرة ورأى سفيان وجيشه أن شبيب يتراجع حتى صعد أحد التلال القريبة فظنوه يهرب منهم .. سفيان وأصحابه وجدوها فرصة لتتبعهم واستنصّالهم .. شبيب ورجاله يفرون وسفيان خلفهم .. فجأة يستدير شبيب ويهجم برجاله وفي نفس اللحظة يسمع دوى صيحات تأتي من مؤخرة جيش سفيان .. كان ذلك كميناً أعده الخوارج مسبقاً .. كما هي العادة وبسبب عامل المعنويات والرغبة في القتال ظفر الخوارج وكان النصر من نصيبهم وتشنت جيش الكوفة وأصيب سفيان ابن أبى العالية وهرب بجنوده وأرسل للحجاج يخبره بما حدث وأن سورة بن أبجر تأخر عليه فغضب الحجاج من سورة وأرسل إليه يقول :

(أما بعد .. فيا ابن أم سورة .. ما كنت خليقاً على أن تجترىء

على ترك عهدي وخذلان جندي .. فإذا أتاك كتابي فابعث رجلاً ممن معك صليباً^(١) إلى الخيل التي بالمدائن فلينتخب منهم خمسمائة رجل ثم يقدم بهم عليك ثم سر بهم حتى تلقى هذه المارقة^(٢) .. واحزم في أمرك وكد عدوك فإن أفضل أمر الحرب حسن المكيدة والسلام)

جولة أخرى وهزيمة أخرى نالها الحجاج على يد شبیب وفرقته .. بمقاييس ذلك الزمان كان هذا أمراً إعجازياً بحق وكلما مر الوقت كلما نال هذا من كبرياء الحجاج ونظرة الناس إليه .. كل ما سبق كان أمراً هيناً فشيب وزوجته غزاة سيتخطون كل حدود التحدي مع الحجاج ..

جمع سورة بن أبجر فرسانه وسار في طلب شبیب إلا أن شبیب سبقه إلى النهروان وترحم على إخوانه الذين قتلهم على بن أبي طالب وذكروا علياً بالسوء ثم عسكروا هناك فعلم سورة بما حدث وأن شبیب عسكر في ذلك المكان فتفائل بما حدث للخوارج قديماً على يد الإمام على فقرّر اختيار ثلاثمائة فارس من أصحابه وهجم على شبیب أثناء فترة راحته حتى يأخذه على غرة إلا أن شبیب كالمعتاد

(١) أي صليباً

(٢) يعني الخوارج

كان قد رسم خطته مسبقاً فجعل جنوده فى حالة تعبئة فلما جاء سورة وجنوده ارتد إليهم عامل المفاجأة ونال شبيب منهم وانتصر عليهم فهربوا تجاه المدائن وتبعه شبيب وجنوده إلا أن أهل المدائن رموه بالنبل حتى أجلوهم فذهبوا لمنطقة تسمى كلواذا فغنم منها خيل ودواب كانت للحجاج ثم هرب بها .. كان الأمر أقرب لحرب العصابات وللأمانه كان شبيب بارعاً فيها ..

لم ييأس الحجاج واستمر فى إرسال الجيش تلو الآخر فاستدعى قائداً يدعى عثمان بن سعيد وأمره بقتال الخوارج فطلب منه أن يمدّه بجيش لم يقابل الخوارج من قبل بسبب الهزيمة النفسية التى تعرضت لها الجيوش السابقة فجمع له الحجاج أربعة آلاف مقاتل وخرجوا إلى النهروان وبدأت المناوشات بين الطرفين وطال أمرها ولم ينتصر طرف على الآخر فغضب الحجاج واغتاز وبعث برسالة لعثمان يعزله فيها ويجعله تحت إمرة قائد آخر هو سعيد بن المجالد .. جدير بالذكر أن قوات شبيب فى تلك المرحلة كانوا مئة وستون مقاتل فقط ..

سعيد بن المجالد جاء بحماس شديد وظن بناءً على رسالة الحجاج أن عثمان بن سعيد جبن عن لقاء الخوارج فكانت أول قراراته هو الإستعداد للهجوم وقرر تقسيم جيشه لأربعة أقسام

ومحاصرة النهروان من أربع جهات فنصحته عثمان بن سعيد بعدم تفرقة جيشه والانتظار وأن الخوارج هم من سيأتوا إليه فرفض نصيحته .. عثمان كان قد علم أسلوب الخوارج وبدأ في توقعه وأن وجود الأربعة آلاف في كتلة واحدة أفضل من تقسيمهم فتكون في كل فرقة ألف فيهون على الخوارج قتالها .. من استطاع قتال تلك الآلاف من قبل بالطبع سيهون عليه قتال ألفاً من الجنود .. كانت وجهة نظر منطقية .. سعيد بن المجالد رفضها للأسف ..

عيون شبيب أخبرته أن جيش بني أمية قسم نفسه وأحاط بالنهروان وجاءه الخبر وهو يأكل فأكمل طعامه ثم خرج في أصحابه فحملوا على الفريق الذي به سعيد بن المجالد وهو يصيح :

(استعرضوهم .. فوالله لأقتلن أميرهم أو يقتلنني)

ثم هجم وأصحابه فشتتوا جمع تلك الفرقة وقتل شبيب سعيد بن المجالد وأصاب عثمان بن سعيد القائد الثاني للجيش فانهارت معنويات جيش الكوفة وتفرقوا .. تراجع جزء منهم إلى الكوفة ليحتمى بها فتبعه شبيب ورجاله وكانت معه زوجته غزالة وأمة جُهيْزة وعدداً من نساء الخوارج دخلوا جميعهم إلى الكوفة خلف فلول جيش الحجاج .. قبل وصولهم للكوفة كان الحجاج في البصرة

وترك على الكوفة عروة بن المغيرة الذى أرسل إليه يخبره بما حدث وأن شبیب فى طريقه إليهم فعاد الحجاج مسرعاً ووصل إليها قبل وصول شبیب واحتمى بقصر الإمارة .. هنا حدثت أكبر إهانة تعرض لها الحجاج عبر تاريخه الطویل ..

شبیب وجيشه يدخلون الكوفة فلا يستطيع أحد إيقافهم .. يسير إلى وجهاء الكوفة الذين ساندوا بنى أمية فيقتلهم ولا يتمكن أحد من إيقافه .. الحجاج محتفى فى قصر الإمارة .. يتوجه شبیب إلى قصر الإمارة فيضرب بابه بقضيب من حديد كان فى يده هو نفس القضيب الذى قتل به سعيد بن المجالد فيترك أثراً فى الباب فيعرف الأثر لاحقاً بين الناس بضربة شبیب .. ثم أخيراً قمة التحدى .. غزالة زوجة شبیب تذهب إلى قصر الإمارة فتنادى الحجاج طالبة منه المبارزة فيرفض الحجاج النزول لها أو حتى الرد عليها ويظل محتفياً بقصره .. تلك الواقعة تحديداً صارت سبة عُير بها الحجاج كثيراً وأنشأ فيها الشعراء قصائد هددوا من وراءها إهانة الحجاج ومنهم الشاعر الخارجى عمران بن حطان الذى قال :

أسد على وفى الحروب نعامة .. فتخاء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى .. بل كان قلبك فى جناحى طائر

لم يقف التحدى عند هذا .. غزاة كانت قد نذرت أن تصلى ركعتين فى جامع الكوفة فتصلى فى الركعة الأولى بسورة البقرة وفى الركعة الثانية بسورة آل عمران .. اختارت أطول سورتين فى القرآن لتؤكد على ضعف الحجاج وعدم قدرته على المواجهة .. فدخلت مسجد الكوفة فصلت وأتمت نذرها ثم وقفت على المنبر وسبت بنى مروان وانتقصت منهم واستهزأت بالحجاج وجنوده .. ثم خرجوا جميعاً من الكوفة واختفوا ..

بعدها صعد الحجاج على قصر الإمارة ونادى فى الناس طالباً منهم مواجهة الخوارج فقال :

(يا خيل الله اركبى)

فخرج الناس وتقاتلوا مع شبيب وأصحابه إلا أن ذلك القتال لم يفضى إلى شيء وهرب شبيب كعادته فى حرب العصابات التى احترقها وصعب معها القضاء عليه ..

تلك الواقعة كانت إستثنائية وكان رد الفعل لا بد وأن يكون إستثنائياً أيضاً .. أخرج الحجاج جبراً من أهل الكوفة آلافاً من البشر كانوا هم الأكثر منذ بداية المعارك ثم جعلهم تحت قيادة عتاب بن ورقاء الذى سحبه من جيش المهلب وجعل معه زهرة بن الحوية

مساعداً له وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على القتال ولكنه كان ذا رأى ثم أمرهم بالمسير لقتال شبيب .. فى المقابل تجمع لشبيب أكبر عدد من الأنصار منذ بدأ قتاله ضد الحجاج وبنى أمية .. ألف مقاتل .. التقوا قبيل المغرب فلما رآهم شبيب لم يعبأ بهم وخطب فى جنوده وحفزهم ثم نظم صفوفهم وانتظر حتى ظهر القمر فنظر إلى جيش الحجاج واختار أضعف نقاطه من وجهة نظره ثم حمل عليها وهو يقول :

(أنا شبيب أبو المدله .. لا حكم إلا لله)

فأحدث الكثير من الأضرار وقتل الكثير من البشر وقتل قبيلة بن والى أمير الكتيبة التى هاجمها وأمر أخاه مصاد فاقتحم الميمنة فقتل أميرها ثم هاجم القلب فقتل أمير الجيش عتاب بن ورقاء .. بالطبع كان هناك دفاعاً من أهل الكوفة إلا أن الهزيمة النفسية كانت قد تمكنت منهم .. كان التراجع جماعياً وأحياناً بلا سبب .. الخوف تملك منهم فكانوا يقاتلون وهم يشعرون أن هزيمتهم مسألة وقت .. تراجع الجيش على غير هدى حتى أنهم داسوا أجساد عتاب بن ورقاء وزهرة بن حوية بالخيول .. كان الأمر بانساً لدرجة لم يتخيلها أشد المتشائمين .. ذهل الحجاج مما سمع وغضب أشد الغضب على أهل الكوفة وعلى خذلانهم إياه فخطب فيهم :

(يا أهل الكوفة .. لا أعز الله من أراد بكم العز .. ولا نصر من أراد بكم النصر .. اخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتال عدونا .. الحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى .. ولا يقاتل معنا إلا من لم يشهد قتال عتاب بن ورقاء)

كان الحجاج قد كتب قبل تلك المعركة إلى عبد الملك بن مروان يخبره بخذلان أهل الكوفة له فقال :

(أما بعد .. فإنني أخبر أمير المؤمنين - أكرمه الله - أن شبيباً قد شارف المدائن وإنما يريد الكوفة وقد عجز أهل الكوفة عن قتاله في موطن كثيرة في كلها يقتل أمراءهم ويفل جنودهم .. فإن رأى أمير المؤمنين أن يبعث إلى أهل الشام فيقاتلوا عدوهم ويأكلوا بلادهم فليفعل والسلام)

معركة عتاب بن ورقاء كان آخر أمل للحجاج في أهل الكوفة حيث كان لا يثق بهم من الأساس فأرسل لعبد الملك ليمده بجنود من الشام وبالفعل جمع له عبد الملك بن مروان ستة آلاف مقاتل تحت قيادة سفيان بن الأبرد الكلبي وحبيب بن عبد الرحمن الحكمي فاستغنى بهم الحجاج عن أهل الكوفة ولم يكتفى باستغناؤه عنهم فقط وإنما قرر أن يخرج بنفسه على رأس هذا الجيش لملاقاة شبيب .. الحجاج كان لديه خطة ..

الحجاج اتبع اسلوباً جديداً فى مواجهة شبيب حيث أمر جنوده برفع الحراب فى وجوه الخوارج وقت هجومهم .. الخوارج كانوا يتبعون أسلوب الكر والفر ولكن كان أسلوبهم يقتضى الإشتباك المباشر وهو ما يجبرهم على الإقتراب من عدوهم بشكل كبير فقد كان تسليحهم خفيف ولم يمتلكوا أسلحة ثقيلة أو طويلة المدى مثل المنجنيق على سبيل المثال .. أسلحتهم وخيولهم وشجاعتهم و فقط ولهذا رأى الحجاج أن رفع الحراب قد يفقدهم أهم مميزاتهم .. وقف الحجاج أمام جيشه وقال للجند :

(يا أهل الشام .. أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين .. فلا يغلبن باطل هؤلاء الأرجاس حركم .. غصوا الأبصار .. واجثوا على الركب .. واستقبلوهم بأطراف الأسنة)

نظم الحجاج جيشه وانتظر هجوم الخوارج وفى المقابل نظم شبيب جيشه فقسمه إلى ثلاث كتائب على واحدة وضع أخاه مصاد بن يزيد وعلى الأخرى تان وضع سويد بن سليم والمحلل بن وائل ثم أمر بالهجوم .. فى العادة يكون الهجوم خاطف وسريع يثبت معه أهل الكوفة قليلاً ثم سرعان ما ينفرط عقدهم خاصة إذا مات أميرهم أما الآن فالوضع مختلف .. أمير جديد هو الحجاج بنفسه .. جند جديدة قدمت من الشام ولاءها الأساسى لعبد الملك بن مروان

وبنى أمية .. أصبر على القتال وأمهر بالتأكيد .. وزاد على عوامل التفوق تلك خطة الحراب التي ابتدعها الحجاج .. الظروف المحيطة اختلفت تماماً هنا ..

لما هجم الخوارج على أحد قطاعات جيش الحجاج وجدوا أنفسهم فى مواجهة جنود جاثية على الأرض ترفع فى وجوههم حراب طويلة فلا يستطيعون الإلتحام معهم .. يحاولوا الإقتحام فعلاً .. قتال بعزيمة شديدة بلا أدنى شك .. ولكن فى النهاية يفشل الإقتحام فيرتدوا .. مرة بعد أخرى بلا جدوى .. يمر الوقت فيأمر الحجاج بالهجوم المضاد فيُقتل فيه مصاد شقيق شبيب وتقتل زوجته غزالة .. يحاول سويد بن سليم الصمود فلا يستطيع ويتراجع إلى الوراء .. ظل الخوارج يتراجعون إلى أن تخطوا مسجداً كان قد بناه شبيب على إحدى التلال القريبة فاستغله الحجاج وصعد عليه هو وعدد من الرماه فأصبح لهم ميزة إضافية على الخوارج .. وقف الحجاج أعلى المسجد ونادى فى جنوده :

(والله ما قوتل شبيب قبلها .. ولّى والله هارباً وترك امرأته يُكسر فى استنها القصب^(١) وهربه تاركاً جثة زوجته)

(١) أى مؤخرتها وهى كناية عن جنبه

و لم يكتفى بما حققه من نصر وإنما أرسل خلف فلول شبيب جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل عليهم حبيب بن عبد الرحمن الحكمي وأمره أن ينادى في الهاربين أن من جاء إلينا فهو آمن ففرق عن شبيب عدداً من جنوده ثم تواجه الجيشان فتقاتلا حتى أعياهم القتال فاضطر شبيب للإنسحاب بجيشه ولم يقدر جيش عبد الرحمن من ملاحقته من شدة الإرهاق ..

بعدها عاد الحجاج إلى الكوفة سعيداً بهزيمة الخوارج خاصة بعدما أثبت صحة وجهة نظره من أن أهل العراق هم سبب الخذلان والهزيمة .. استمرت فترة من الهدوء بعد تلك المعركة وصلت إلى شهران لم يحدث فيها قتال مباشر كون شبيب تراجع برجاله إلى منطقة تسمى كرمان بعد بلاد فارس وكان يرجو بهذا إراحة رجاله والإستعداد مرة أخرى للحجاج .. في المقابل فإن الحجاج استغل تلك الفترة في إعادة تنظيم الجيش مرة أخرى وأنفق عليه بسخاء رغبة منه في الزحف خلف شبيب والقضاء عليه هو أصحابه ..

بعد إنتهاء فترة الراحة والتنظيم انطلق جيش الحجاج وعليه سفيان بن الأبرد الكلبى وفي نفس الوقت كان شبيب يتحرك برجاله من كرمان متجهاً إلى الكوفة فتقابلوا في الأهواز عند جسر يسمى جسر دُجَيل فعبر شبيب الجسر إليهم وقسم رجاله ثم أمر بالهجوم

.. ذلك اليوم كان واحداً من أقسى معارك شبيب مع جيوش الحجاج .. قيل أن شبيب ورجاله الذى قاربوا على المائة مقاتل هجموا على جيش سفيان أكثر من ثلاثون هجمة .. يهجم عليهم فينال منهم ما استطاع وقبل أن يرددوا عليه فإذا به يتراجع ثم ينظم صفوفه ويهجم مجدداً .. لو أن الإحترام يجوز للأعداء لكان شبيب بن يزيد أكثر أعداء الحجاج نيلاً لاحترامه بلا شك .. استمر الوضع كما هو حتى حل الليل فقرر شبيب التراجع وعبور الجسر فقال لأصحابه :

(اعبروا .. وإذا أصبحنا باكرناهم إن شاء الله)

فعبروا أمامه وكان هو آخرهم وبينما هو يعبر إذ كان معه فرس أنثى فنزا عليها فرسه^(١) فرفع قائمته فجأة فلم يستطع شبيب السيطرة عليه ونزل حافر الفرس على إحدى السفن بجوار الجسر فاختل توازن الفرس وسقط بشبيب فى النهر فلما سقط فى النهر قال :

﴿لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾^(٢)

ثم انغمس فى الماء فلما ارتفع قال :

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾^(٣)

(١) أراد جماعها

(٢) الأنفال ٤٤

(٣) يس ٣٨

وكان ذلك آخر ما قاله قبل أن يغرق .. فلما غرق تنادى أصحابه أن أمير المؤمنين قد غرق فسمعهم جيش الحجاج فكبر سفيان بن الأبرد وأرسل جنوده ليتأكدوا من الخبر فاستخرجوه من المياه وشقوا صدره واستخرجوا قلبه فإذا هو جامد كالصخر وقيل أنهم كانوا يضربون به الأرض فيرتفع لأعلى قدر قامة الإنسان من شدة صلابته .. كانت نهاية غير متوقعة لواحد من أبرع القادة الذين واجهوا الحجاج ونالوا منه .. نهاية وإن كانت غير متوقعة لأي شخص إلا أنها كانت متوقعة لجهيزة أم شبيب حينما جاءها أصحابه يعزونها ويقولون لها أنه قتل فرفضت مقالتهم وقالت كذبتم فقالوا لها أنه غرق فقبلت منهم حينها وقالت :

(حين ولدته رأيت فيما يرى النائم أنه خرج من قبلى شهاب نار فذهب ساطعاً فى السماء وبلغ الآفاق كلها .. فبينما هو كذلك إذ وقع فى ماء كثير فخبأ .. وقد ولدته فى يومكم هذا الذى تهريقون فيه الدماء^(١) وقد أولت ذلك أن ولدى يكون صاحب دماء وأن أمره سيعلو فيعظم سريعاً)

انظر للاستزادة :

(*) تاريخ الطبرى - الجزء السادس - ص ٢١٦ : ٢٨٢

(*) الكامل فى التاريخ لابن الأثير - (٣٩٤/٤ : ٤٣١/٤) - ص ٦٠٩ : ٦٢٠

(١) تعنى يوم النحر حيث كانت أمه غير عربية لهذا اختلطت عليها المسميات

الفصل الخامس

الثورات فى عهد الحجاج

- ثورة عبد الله بن الجارود
- ثورة الزنج
- ثورة مُطَرَف بن المغيرة
- ثورة ابن الأشعث
- دير الجماجم وما تلاها
- هلاك عبد الرحمن ابن الأشعث
- الحجاج وتعامله مع الأسرى



ثورة عبد الله بن الجارود

بعد أن خطب الحجاج خطبته في أهل البصرة رغبة منه في إثبات حضوره وحشد المزيد من الجنود للانضمام إلى جيش المهلب بن أبي صفرة تحرك إلى رستقباد فوقف خطيباً في الناس مرة أخرى وقال :

(يا أهل المصريين^(١) هذا المكان والله مكانكم .. جمعة بعد جمعة .. وشهراً بعد شهر .. وسنة بعد سنة .. حتى يُهلك الله عز وجل هؤلاء الخوارج المظلمين عليكم)
فقال له الناس :

(ولم تحبسنا أصلح الله الأمير بهذا المكان .. سر بنا إلى هؤلاء الكلاب فما هم إذا اجتمع أهل المصريين عليهم بشيء)

في ذلك اليوم دخل عليه واحد من أشرف البصرة يدعى الهذيل بن عمران البرجومي وكان من أصدقاء الأمير السابق بشر بن مروان وكان ذا منزلة وجاه فلما دخل على الحجاج كان ثوبه طويلاً فجعل يجره فقال له الحجاج :

(١) يقصد الكوفة والبصرة

(يا هذيل .. ارفع ثوبك)

و كان أهل العراق يتسمون بالخلاء ويحبون أن تبدو عليهم
مظاهر الثراء خاصة أشرفهم فأغضبته مقولة الحجاج وقال :

(إن مثلى أيها الأمير لا يقال له هذا القول)

فقال الحجاج :

(بلى والله .. وتضرب عنقه)

فخرج الهذيل غاضباً وهو يتمتم :

(قاتله الله جدياً^(١) ما أتيه في نفسه^(٢) وفي الهذيل يقول
الشاعر: يأيها السائل في الرفاق .. إن الهذيل سيد العراق)

بعد أيام خطب الحجاج في الناس فقال :

(إن الزيادة التي زادكم إياها ابن الزبير إنما هي زيادة ملحد
منافق فاسق ولسنا نجيزها)

(١) أى قليل الشأن

(٢) المراد أنه مغرور

وكان مصعب بن الزبير قد زاد أعطيات الجند عشرة آلاف درهم فأراد الحجاج أن يمنعها إياهم فغضب لذلك رجل آخر من أشرف البصرة هو عبد الله بن الجارود وقال :

(أيها الأمير .. ليست بزيادة ابن الزبير .. إنما هي زيادة أمير المؤمنين عبد الملك إذ أنفذها وأجازها وجرت لنا على يد بشر بن مروان)

فقال له الحجاج :

(ما أنت والكلام .. لتحسن حمل رأسك أو لأسلبنك إياه)

فقال :

(ولم ؟ والله إنى لك لناصح .. وإن قولى هذا لقول من ورائى)

مر شهر كامل لا يذكر الحجاج شيئاً من أمر العطايا ونقصانها ثم جاء على ذكرها فرد عليه ابن الجارود نفس رده الأول فقام إليه واحد من المؤيدين للحجاج وهو مُصْقَلَة بن كرب العبدى فقال :

(إنه ليس للرعية أن ترد على راعيها .. وقد سمعنا ما قال الأمير .. فسمعاً وطاعة فيما أحببنا وكرهنا)

فقال له ابن الجارود غاضباً :

(يا ابن الجرمانية .. وما أنت وما ها هنا ؟ .. ومتى كان مثلك يتكلم وينطق فى مثل هذا ؟)

بعد ساعات سيجتمع عبد الله بن الجارود والهذيل بن عمران البرجمى وعبد الله بن حكيم المجاشعى ليتناقشوا فى هذا الأمر فيميل الجميع إلى رأى ابن الجارود ويقولون :

(نحن معك ويدك وأعوانك .. إن هذا الرجل غير كاف كى ينقصنا هذه الزيادة .. فهل نباعك على إخراجك من العراق ثم نكتب إلى عبد الملك نسأله أن يولى علينا غيره .. فإن أبى خلعناه فإنه هائب لنا ما دامت الخوارج)

بايع الناس ابن الجارود سراً وبدأوا فى التخطيط لقتال الحجاج والخروج عليه وانضم له الكثير من الناس حتى قويت شوكته وبلغ الحجاج ما اجتمعوا عليه فزرع العيون فى الطرقات ونشر الحرس ووصل الإستنفار إلى أعلى مستوياته .. أظهر بن الجارود ثورته فى شهر ربيع الآخر عام ستة وسبعين هجرياً ودعا الناس للانضمام إليه فانضموا إليه بالطبع ولم يبق مع الحجاج إلا جنده المقربين وخاصته بالإضافة لأهل بيته ..

فأرسل الحجاج رسولاً إلى ابن الجارود يدعوه للمفاوضات وحمل
الرسول رسالة لا يخبره بها إلا في حالة رفضه للمفاوضات فلما
وصل الرسول إلى ابن الجارود قال :

(أجب الأمير)

فرفض وقال له فى تحدى :

(ومن الأمير ؟ ولا نعمة عين^(١) لابن أبى رغال^(٢) .. ولكن ليخرج
عنا مذموماً مدحوراً وإلا قاتلناه)

مع رفضه لمبدأ التفاوض قال رسول الحجاج :

أما إذ لم تجبه فإنه أمرنى أن أقول لك :

(أتطيب نفساً بقتلك وقتل أهل بيتك وعشيرتك .. والذى نفس
الحجاج بيده .. لئن لم تأتنى لأدعن قومك عامة وأهل بيتك خاصة
كأمة قد بادت وحديثاً للغابرين)

فقال ابن الجارود للرسول :

(١) أى لا كرامة

(٢) أبى رغال هو الدليل العربى لجيش أبرهة الذى قاده إلى الكعبة ليهدمها فصارت

كلمة أبى رغال وصفاً لكل خائن فكل خائن هو بالتبعية أبى رغال

(والله يا ابن الخبيثة لولا أنك رسول لضربت عنقك)

عندها صارت المواجهة حتمية .. تجمع الناس لابن الجارود فجهزهم بالسلاح وخرجوا في اتجاه دار الحجاج فنهبوها وأخذوا متاعه ودوابه منها حتى انهم اختطفوا زوجتي الحجاج واعتبروهما أوراق ضغط عليه ليخرج من العراق .. هم لم يرغبوا بقتاله وإنما أرادوا إرغامه على ترك الإمارة والرجوع إلى دمشق ..

إن لم يتصرف الحجاج بسرعة فلعله آخر أيامه بالإمارة ..
أو ربما يكون آخر أيامه في الدنيا ..

في تلك الليلة خدمت الظروف الحجاج نسبياً فبعد أن كان شبه وحيد في مواجهة ابن الجارود ورجاله إذ جاءه بعض الناس الذين خشوا نجاح الحجاج في القضاء على ابن الجارود وحينها سينظر فيمن وقف معه وفيمن تخاذل فعرضوا عليه المساعدة فاستغل الحجاج ذلك وأخرج أتباعه الجدد ليسيروا بين الناس ليخذلوهم ويتوعدوهم إن لم يعودوا للطاعة فسيفعل بهم الحجاج ويفعل .. بالفعل أتت تلك الخطة ثمارها وبدأ كثير من الناس في الانضمام للحجاج وتنبيه لهذا رجل من مؤيدي ابن الجارود اسمه الغضبان القبعثري الشيباني فقال له :

(تعش بالجدى قبل أن يتغدى بك .. أما ترى من قد أتاه منكم ؟
.. ولئن أصبح ليكثرن ناصره وليضعفن مدتك)

فقال له ابن الجارود :

(قد قرب المساء .. ولكننا نعاجله بالغداة)

فى تلك الأثناء كان يجتمع بالحجاج رجلا ن هما عثمان بن قطن
الحارثى وزىاد بن عمرو العتكى فقال لهما :

(ما ترىان ؟)

فقال زىاد :

(أرى أن آخذ لك من القوم أماناً وتخرج حتى تلحق بأمر المؤمنين
.. فقد أرفض جمهور الناس عنك ولا أرى لك أن تقا تل بمن معك
ولا أحب لك أن تضع نفسك وتهلكها)

فاستدار الحجاج لعثمان بن قطن لىسمع رأيه فقال عثمان :

(لكنى لا أرى ذلك .. إن أمير المؤمنين قد أشرك فى أمره
وخلط بفسه واستنصحك وسلطك وملكك فسرت إلى ابن الزبىر وهو
أعظم الناس خطراً فقتلته .. فولاك الله عز وجل شرف ذلك وسناه

وذخره وأجره .. وولاك أمير المؤمنين الحجاز ثم رفعك إلى ولاية العراقين^(١) .. أفالآن حين جريت إلى المدى وأصبت الغرض الأقصى وهابتك العرب تخرج على قعود تدأدي^(٢) يوجف بك إلى الشام .. والله لئن فعلتها لا نلت من عبد الملك مثل الذي أنت فيه من السلطان أبداً .. وليتضعن شأنك ولتسقطن عنده ولتهونن على كل عدو .. ولكني أرى أن نمشي بسيوفنا معك فنضارب هؤلاء القوم حتى نلقى ظفراً أو نموت كراماً (

فقال الحجاج :

(قرعتني بما في قلبي قرعاً .. الرأي ما رأيت)

فى الصباح وجد الحجاج نفسه وقد أحيط بستة آلاف مقاتل فاطمئن بهم .. أما عبد الله الجارود لما رأى الأعداد التي مع الحجاج قال لعبيد الله بن زياد بن ظبيان :

(ما الرأي ؟)

قال :

(١) يقصد عراق العرب وعراق العجم

(٢) دأداً بمعنى جرى بأسرع ما يمكنه والمراد هنا تهرب إلى الشام

(تركت الرأى أمس حين قال لك الغضبان تعش بالجدى قبل أن يتغدى بك .. وقد ذهب الرأى وبقي الصبر)

و فى المقابل أراد الحجاج أن يدب الحماس فى قلوب جنوده فقال لهم :

(لا يهولنكم ما ترون من كثرة عدد عدوكم فإنه ليس بكم بحمد الله قلة ولا ذلة .. فشدوا عليهم يتطايروا تطاير الأجم المنقر^(١) .. إنهم أخور من اليراع^(٢) .. وإن صدقتموهم الضرب سألوكم الأمان)

ثم نظم جيشه فجعل على ميمنته قتيبة بن مسلم وعلى ميسرته سعيد بن أسلم ووضع نفسه فى القلب أما ابن الجارود فكان على ميمنته الهذيل بن عمران وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد بن ظبيان وبدأ الهجوم فكانت الغلبة لابن الجارود وجيشه الذين استطاعوا دحر جيش الحجاج إلى وراء وبدأ أنهم ف طريقهم لتحقيق النصر إلا أن سهماً انطلق من صفوف جيش الحجاج أصاب ابن الجارود فى مقتل فسقط على الأرض ميتاً فلما قُتل تشتت أصحابه فأمر الحجاج مناديه أن ينادى فى الناس أن كل الناس آمنين إلا الهذيل بن عمران وعبد الله بن حكيم وبالفعل تم أسرهما واقتيدا إلى الحجاج فأمر بضرب أعناقهما هم وبعض أكابر من قاموا بالثورة ضده ثم بعث

(١) الأجم هو الكيش الذى بلا قرون

(٢) اليراع نوع من الحشرات

رؤوسهم إلى المهلب بن أبي صفرة ليرفع من روحهم المعنوية ويأس
الخوارج مما سيرونه من مقتل أعداء الحجاج ..

بعد الإنتهاء من أمر الثورة حان وقت الإنتقام حيث عاد إلى
البصرة فقتل وعذب كل من ثبتت عليه تهمة الإنضمام لثورة ابن
الجارود وقد نال الصحابي أنس بن مالك بعضاً من سوء المعاملة وقد
تم بيانه سابقاً وبعد أن انتهى كتب إلى عبد الملك بن مروان فقال :

(أما بعد .. فالحمد لله الذي حفظ أمير المؤمنين .. إنى لما نزلت
منزلى من رستقباد وثب على أهل العراق فخالفونى ونابدونى ودخلوا
فسطاطى وانتهبوا أموالى وقالوا اخرج من بلادنا إلى من بعثك إلينا
.. ففارقنى البعيد وأسلمنى القريب ويئس منى الشفيق فشددت
عليهم بسيفى ولقيتهم بشيعةى وقلت الموت قبل البراح .. فوالله ما
رمت العرصة^(١) حتى جعل الله لأمير المؤمنين منهم أنصاراً فضربت
بمقبلهم مدبرهم وبمطيعهم عاصيهم فقتل الله عز وجل طاغية القوم
عدو الله ابن الجارود وثمانية عشر من رؤوسهم وضرب الله عز
وجل وجوههم فأخذوا شرقاً وغرباً^(٢) ثم إنى آمنت الناس غائبهم

(١) العرصة هى ساحة الدار وأيضاً كل بقعة ليس فيها بناء ولكنها هنا إسم مدينة

(٢) أى هربوا

وشاهدتهم فتراجعوا واجتمعوا وألحقت الناس بأمصارهم ولله الحمد
كثيراً والسلام)

فكتب إليه عبد الملك :

(أما بعد .. فقد بلغنى كتابك .. وأنت الناصح النجيب الأمين
بالغيب القليل العيب .. فإذا رابك من أهل العراق ريب فاقتل أدناهم
يرعب منك أقصاهم والسلام)

كان هذا ترخيصاً من عبد الملك للحجاج باستخدام العنف يصل إلى
حد الأمر بقتل من خالفه .. الحجاج بالأساس لم يكن ينتظر تصريحاً
من عبد الملك إلا أنه بهذه الرسالة إمتلك كل الصلاحيات المتاحة
للإنتقام ممن يفكر فى تكرار هذا الأمر مجدداً ..

سيجد الحجاج الكثير من الفرص لاستخدام ترخيص عبد الملك بن
مروان ..

بالتأكيد سيجد ..

انظر للاستزادة :

(*) أنساب الأشراف للبلاذرى - الجزء السابع - ص ٢٨٢ : ٢٩٢

ثورة الزنج

الزنج هم العبيد المستقدمين من إفريقيا .. إذا شئنا الدقة كان يتم إصطيادهم .. بعدها كان يتم بيعهم كعبيد في بلاد العراق فيقوموا بالأعمال الشاقة والمتدنية والتي لا يقبل بها اهل العراق مثل حفر الأنهار ومد الطرق والعمل في مناجم الملح .. لم يقف الأمر عند هذا .. كان هؤلاء العبيد يعملون في ظروف غاية في القسوة فلا يتم توفير الحد الأدنى من ظروف العمل الملائمة لهم .. ساعات عمل طويلة .. مهام شاقة .. أماكن نوم في غاية الرداءة قيل أنها حظائر الحيوانات .. والأسوأ معاملة سيئة من سادتهم وحتى من عامة الناس فكانت النظرة لهم دونية لا تتفق بأى شكل مع تعاليم الإسلام .. وضع مأساوى مثل هذا كان طبيعياً أن يفرز كراهية مدفونة تتحين اللحظة لتخرج إلى النور ..

الزنج لهم ثورتان معروفتان تاريخياً ثانيهما وأشهرهما هي الثورة التي قامت في عهد الدولة العباسية على يد شخص فارسي إسمه على بن محمد واستمرت تلك الثورة لمدة خمسة عشر عاماً بداية من عام مائتان وخمسة وخمسون هجرياً حتى العام مائتان وسبعون هجرياً .. الثورة الأولى للزنج كانت في عهد الدولة الاموية

فى العراق وقت ولاية الحجاج بن يوسف وكانت فترتها قصيرة نسبياً ..

بدأ تملل الزنج فى نهاية عهد مصعب بن الزبير فتجمعوا محاولين إظهار إعتراضهم على أوضاعهم السيئة لكنهم لم يستطيعوا بسبب قلة أعدادهم وأقصى ما كانوا يستطيعون فعله هو سرقة الثمار من الحقول وإفساد ما استطاعوا من ممتلكات أسيادهم .. مع الوقت زادت اعدادهم وازداد أذاهم فبدأت الناس تشتكى من افعالهم وكان على البصرة خالد بن أسيد فجمع لهم جيشاً كثيفاً فتفرقوا أمامه ولم يستطيعوا المواجهة ولكن بعد ان أسر منهم عدداً لا بأس به فقتلوا وصلبوا وبهذا زاد حقد الناجين منهم على أهل البصرة .. لم يتعلم أهل البصرة مما حدث واستمرت المعاملة لهم على ما كانت عليه بل أسوأ إنتقاماً منهم على ما فعلوه وظلت أوضاعهم من سيء لأسوأ حتى حدثت ثورة ابن الجارود فوجدها الزنج فرصة للإنتفاض ضد أهل البصرة وحكم الحجاج الغير عادل من وجهة نظرهم ..

اجتمع الزنج على رجل منهم اسمه رياح وشهرته شيرانزنجى أى أسد الزنج وبدأوا فى تجهيز جيشهم الصغير وانضم لهم جُل

العبيد في الفرات والبصرة وأيضاً بعض المؤمنين بهم من ذوى البشارة البيضاء وبدأوا في الإستيلاء على الأراضى والممتلكات ووصل أمرهم إلى أمير الفرات وقتها وكان اسمه كراز بن مالك السلمى لكنه لم يقدر عليهم فأراد شيرازنجى استفزازه فأرسل إليه رسالة يقول فيها :

(من أمير المؤمنين رباح شيرازنجى - وكان سمي نفسه أميراً للمؤمنين - إلى كراز السلمى .. أما بعد .. فقد حضرت ولادة سكة أم المؤمنين^(١) فابعث إليها امرأتك لتقبلها^(٢) والسلام)

خطاب مثل هذا كان كفيلاً باستفزاز نخوة كراز السلمى إلا أنه وللعجب لم يجمع جيشاً لقتاله وإنما هرب منه ورجع إلى الحجاج فى الكوفة يخبره بما جرى وعلى الفور أمر الحجاج بتكوين جيش على عجل لقتال الزنج قبل أن يستفحل أمرهم ووضع عليه حفص بن زياد العتكى ابن صاحب شرطة البصرة زياد بن عمرو العتكى ولكن لأن الجيش لم يكن مجهزاً بشكل مثالى فقد هُزم أمام الزنج وقتل حفص بن زياد وارتفعت أسهم الزنج أكثر وانضم لهم فئات أخرى رأت فيهم المخلص من حكم الحجاج ومن وراءه بنى أمية ..

(١) يعنى زوجته وكان اسمها سكة

(٢) لتوليدها

هزيمة أجبرت الحجاج على الذهاب إلى البصرة ليستحث أهلها على القتال فوصل وقد كسا وجهه الغضب وخطب فيهم قائلاً :

(يا أهل البصرة .. إن عبيدكم وكساحيكم رأوا معصيتكم فتأسوا بكم .. وايم الله لنن لم تخرجوا إلى هؤلاء الكلاب فتكفوني أمرهم لأعقرن نخلكم ولأنزلن بكم ما أنتم له أهل باستخراجكم وفسادكم)

فجهز الحجاج جيشه وأعطاهم عطاياهم ووضع عليهم كراز السلمى ليمحو العار الذى طاله بعد هروبه أول مرة من المواجهة وبالفعل صبر كراز وجيشه فى مواجهة الزنج فكانت معركة حامية الوطيس استطاع فيها كراز صدهم حتى أجبرهم على التراجع إلى صحارى دورق^(١) فتبعوهم إلى هناك وتواجهوا مجددا فقتل قائدهم رياح شيرازنجى وقتل أغلب جيش الزنج وتفرق الباقين منهم هربا وبهذا انتهت ثورة الزنج الأولى .. ثورة كانت قصيرة ولكنها كانت مؤشر لثورات وانتفاضات أخرى فى الطريق ..

الحجاج ينتظره الكثير ..

أنظر للإستزادة :

(*) أنساب الأشراف للبلاذرى - الجزء السابع - ص ٢٩٩ : ٣٠٢

(١) دورق مدينة فى خوزستان وصحرائها تقع فى منطقة الأهواز حالياً

ثورة مُطَرَّف بن المغيرة

مطرف بن المغيرة بن شعبة أحد أبناء الصحابي المغيرة بن شعبة .. عم المغيرة بن شعبة هو عروة بن مسعود جد الحجاج لأمه وعظيم القريتين كما ذكرنا وبهذا فهناك صلة قرابة بين الحجاج وبين المغيرة بن شعبة وأبناءه .. ولهذه القرابة وأيضاً لشرف أباهم وعزه وسابقته فقد جعل الحجاج أبناء المغيرة بن شعبة أمراء على الأمصار فاستعمل عروة على الكوفة ومطرف على المدائن .. وحمزة على همدان .. وفي المقابل هم كانوا على أفضل ما يكون من ناحية إدارة أقاليمهم ومن ناحية ولأنهم لعبد الملك بن مروان والحجاج من بعده وليس أدل على هذا إلا ما فعله مطرف حين ولاه الحجاج على المدائن إذ دخل المسجد واعتلى المنبر ثم قال :

(أيها الناس .. إن الأمير الحجاج أصلحه الله قد ولانى عليكم وأمرنى بالحكم بالحق والعدل فى السيرة .. إن عملت بما أمرنى به فأنا أسعد الناس وإن لم أفعل فنفسى أوبقت وحظ نفسى ضيعت .. ألا إنى جالس لكم العصرين فارفعوا إلى حوائجكم وأشيروا على بما يصلحكم ويصلح بلادكم فإنى لن آلوكم خيراً ما استطعت)

إلى هنا يبدو كل شيء على ما يرام .. استمر الوضع هكذا إلى أن شاء الله وظهر شبيب بن يزيد الخارجى وبدأ فى النيل من جيوش الحجاج كما سبق وذكرنا حتى وضع شبيب عينه على المدائن التى فيها مطرف بن المغيرة فاستمد مطرف الحجاج بجند لمواجهة شبيب وأراد أن يؤخر اللقاء قدر المستطاع حتى يبعث الحجاج بالمزيد من الجنود فبعث إلى شبيب يطلب منه إرسال بعض أصحابه لمناظرتهم فبعث إليه بعضاً منهم فسألهم مطرف عما يدعون إليه فقالوا :

(ندعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .. وإن الذى نقمنا من قومنا الاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود والتسلط بالجبرية)

فقال لهم مطرف وقد أعجب بمنطقهم وآمن بحجتهم :

(ما دعوتكم إلا إلى حق .. وما نقمتكم إلا جوراً ظاهراً .. أنا لكم متابع فتابعونى على ما أدعوكم إليه ليجتمع أمرى وأمركم)

فقالوا :

(اذكره .. فإن يكن حقاً نجبك إليه)

قال :

(أدعوكم إلى أن نقاتل هؤلاء الظلمة على إحداثهم وندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين يؤمرون

من يرتضون على مثل هذه الحال التي تركهم عليها عمر بن الخطاب .. فإن العرب إذا علمت أن ما يراد بالشورى الرضى من قريش رضوا وكثر تبعكم وأعوانكم)

فقالوا :

(هذا ما لا نجيبك إليه)

و تكررت بينهم الزيارات مدة أربعة أيام وفى كل يوم يصلوا إلى نقطة الخلاف الرئيسية وهى أن المغيرة يريد أن تكون الخلافة شورى ولكنها تظل فى قريش أما الخوارج فأروا أن تكون شورى ولا ضير ولكن تكون بين الناس كافة .. الطرفان اتفقا على عدم صلاحية بنى أمية وأمراءهم للحكم ولكن اختلفوا فى الهدف النهائى ..

بعد أن فشلت المفاوضات بينهم جمع مطرف أصحابه الذين يثق بهم وأخبرهم بالخبر وكيف أن الحجاج طغى وأن عبد الملك بغى وأن الامر لا يعدوا كونه ملكاً جبرياً وأن الأمر لا بد وأن يعود للشورى مرة أخرى فقالوا له :

(اخف هذا الكلام ولا تظهره لأحد)

وقال له يزيد بن أبى زياد :

(والله لا يخفى على الحجاج مما كان بينك وبينهم كلمة واحدة .. وليزادن على كل كلمة عشر أمثالها .. ولو كنت فى السحاب لالتمسك الحجاج حتى يهلك .. فالنجاه النجاه)

فاقتنع مطرف برأيه وخرج وأصحابه وبدأوا فى الدعاية لأنفسهم ولما عزموا القيام به وبالطبع وصلت الاخبار إلى الحجاج فمروا بالدسكرة وحلوان وهمذان التى عليها شقيقه حمزة فطلب منه المدد فأمدّه سرّاً ثم سار ناحية ماه دينار حتى وصل إلى قم وقاشان فى بلاد فارس وبالطبع فإن كل تلك التحركات كانت مرصودة فأمر الحجاج بعزل حمزة بن المغيرة شقيق مطرف وإلقاءه فى السجن فأمن بذلك ألا يمدّه بمزيد من السلاح ثم استعد بعدها للقضاء عليه ..

حتى يتأكد الحجاج من القضاء على مطرف بن المغيرة فإنه كتب إلى البراء بن قبيصة عامله على أصبهان وأيضاً كتب إلى عدى بن زياد عامله على الرى وأمرهما بالإجتماع على حرب مطرف بن المغيرة فسارا إليه وطوقوه ثم اقتتلوا قتالاً شديداً انهزم فيه مطرف وأصحابه وقتل هو وكثير ممن بايعوه على ثورته .. قتله رجل يدعى عمير بن هبيرة الفزارى وحمل رأسه إلى الحجاج فأكرمه الحجاج أشد الكرم وبهذا انتهت ثورة مطرف بن المغيرة وكانت قصيرة مثل سابقتها ولم يتح لها فرص النجاح ويجوز ذلك بسبب عشوائيتها

وعدم قدرة قادتها على توصيل أهدافها إلى عموم الناس على الرغم
من وجاهة ما كانت تعرضه ..

قد يظن البعض أن أشد ما واجه الحجاج من الثورات كان ثورة
الخوارج ..

حسناً .. الخوارج كانوا خطرين بالفعل .. ولكن هناك ثورة كانت
أكثر خطراً بكثير مما سبق ..

ثورة ابن الأشعث ..

ثورة ابن الأشعث

عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي .. من أشراف الكوفة .. والده هو محمد بن الأشعث قيل أنه هو من قتل مسلم بن عقيل رسول الإمام الحسين رضى الله عنه إلى أهل الكوفة لأخذ البيعة منهم وكان من أبرز قادة مصعب بن الزبير في حربه ضد المختار بن عبيد الله الثقفي ..

عبد الرحمن ولد في بيت واحد من أشراف الكوفة وكنده .. شاب .. يافع .. وصفته كتب التاريخ بأنه أقرب للغرور والتهيه بالنفس والإعتداد بالذات .. لما بحث الحجاج عن رجل يوليه شرطة العراق أشاروا عليه بعبد الرحمن بن الأشعث فوافق فلما أخبروا عبد الرحمن بذلك قال :

(ومثلى يتقلد سيفاً ويمشى بين يدي ابن أبي رغال ؟!)^(١) .. والله ما رأيت أحداً قط على منبر يخطب إلا وظننت في نفسى أنى أحق بذلك منه)^(٢)

(١) يعنى الحجاج

(٢) الفتوح للكوفى - المجلد الرابع - ص ٨٠

و كان يقول عن علاقته بالحجاج :

(وأنا كما يقول ابن أبي رغال .. إن لم أحاول أن أزيله عن
سلطانه فأجهد الجهد إذ طال بي وبه البقاء)

كانت النية موجوده عن عبد الرحمن بن الأشعث للإستيلاء على
السلطة وكان يرى نفسه أحق بها وبالطبع لم يكن يحب الحجاج
حتى ولو عمل تحت إمرته وقاد بعض جيوشه التي سيرها لفتح
البلدان أو لتأديب الخارجين عليه .. وأعتقد أن ذلك التوتر كان
متبادلاً فقد كان الحجاج يقول لمن بجواره كلما رأى ابن الأشعث :

(انظر إلى مشيته .. والله لهمت أن أضرب عنقه)^(١)

و كان يقول أيضاً :

(هو أهوج .. أحقق .. حسود .. وأبوه الذي سلب أمير المؤمنين
عثمان ثيابه وقتله .. ودل عبيد الله بن زياد على مسلم بن عقيل
حتى قتله .. وجده الأشعث ارتد عن الإسلام وما رأيت قط إلا هممت
بقتله)^(٢)

(١) مصارع الأعيان لكامل كيلاني - ص ٩١

(٢) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء التاسع - ص ٣٥

القصة بدأت عندما ولى الحجاج على سجستان عبيد الله بن أبي بكرة وكان على بلاد الترك حاكماً يدعى رُتبيل وقد منع الخراج عاماً فأراد الحجاج أن يؤدبه فأمر عبيد الله أن يخرج بجيش كثيف ولا يرجع حتى يستولى على أرض رُتبيل ويهدم حصونه ويقتل رجاله ففعل عبيد الله وظل يتقدم حتى استطاع رُتبيل أن يحاصره في بعض الشعاب وظن المسلمون أنه الهلاك الأكيد فاضطر عبيد الله أن يصالح رُتبيل على دفع سبعمائة ألف درهم ليستطيع إخراج المسلمين بأمان وعلم الحجاج بما حدث فبعث إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه في إرسال جيش أكبر لتأديب رُتبيل وجباية الخراج منه فوافق .. أربعون ألف مقاتل .. أعلى التجهيزات الممكنة .. عطاء لم يساويه عطاء آخر خاصة لأصحاب الخبرة القتالية .. أطلق الحجاج على ذلك الجيش جيش الطواويس بسبب ما أنفق عليه ..

سيضع الحجاج على ذلك الجيش عبد الرحمن بن الأشعث ..

العجيب في الأمر أن الحجاج رغم علمه بغرور وخيلاء عبد الرحمن بن الأشعث وعلى الرغم من كراهيتهما المتبادلة إلا أنه أصر على إرساله على رأس ذلك الجيش .. الأمر هنا يتجاوز مرحلة الظنون أو حتى الكراهية الظاهرة .. الحجاج وصلته تحذيرات من تولية الجيش لابن الأشعث ولم تأتي التحذيرات من شخص عادى

وإنما وصلته من عمه إسماعيل بن الأشعث حيث قال له :

(لا تبعثه فإني أخاف خلافه .. والله ما أجاز جسر الفرات قط
فرأى لوالٍ من الولاة عليه طاعة وسلطاناً)

فكان الحجاج يقول :

(ليس هناك .. هو لي أهيب وفيّ أرغب من أن يخالف أمرى أو
يخرج من طاعتي)

على أى حال خرج عبد الرحمن على رأس الجيش وبالفعل
استطاع أن يستولى على أراضٍ كثيرة من بلاد رُتْبِيل ونال منه ولكن
فصل الشتاء عاجلهم فقرّر عبد الرحمن أن يقيم حتى ينتهى الشتاء
ويتقوى جنده لما هو آت فأرسل إلى الحجاج يخبره بذلك فرد عليه
قائلاً :

(إن كتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ويستريح إلى المودعة قد
صانع عدواً قليلاً ذليلاً قد أصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً
وغناؤهم عظيماً .. وإنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندى وحدى
لسخى النفس بمن أصيب من المسلمين .. فامض لما أمرتك به من
الوغل فى أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم)

فلما استبطأ رده بعث إليه كتاباً آخر قال فيه :

(أما بعد .. فَمُر من قبلك من المسلمين فليحرثوا وليقيموا بها
فإنها دارهم حتى يفتحها الله عليهم)

فلما استبطأه مرة أخرى أرسل إليه كتاباً ثالثاً يهدده فيه بالعزل
فقال :

(إن مضيت لما أمرتك وإلا فأخوك إسحاق بن محمد أمير الناس)
عندها غضب عبد الرحمن وقال :

(يكتب إلى بمثل هذا وهو لا يصلح أن يكون من بعض جندي ولا
من بعض خدمي لخوره وضعف قوته ؟ .. أما يذكر أباه من ثقيف
هذا الجبان صاحب غزاة^(١))

بعدها جمع أصحابه وثقته من الناس وقال لهم :

(إن الحجاج قد ألح عليكم في الإيغال في بلاد العدو وهي البلاد
التي قد هلك فيها إخوانكم بالأمس .. وقد أقبل عليكم فصل الشتاء
والبرد فانظروا في أمركم .. أما أنا فلست مطيعه ولا أنقض رأياً
رأيت به بالأمس)

(١) يقصد جبنه عن مواجهة غزاة زوجة شبيب الخارجي التي دعت له للمبارزة فرفض

أن يبارزها وتحصن بقصر الإمارة

فغضب الناس ورفضوا أمر الحجاج وقالوا :

(لا .. بل نأبى على عدو الله الحجاج ولا نسمع له ولا نطيع)

ثم تكلم أولهم وهو عامر بن وائلة الكناني فقال :

(إن مثل الحجاج فى هذا رأى ومثلنا كما قال الأول لأخيه
أحمل عبدك على الفرس فإن هلك هلك وإن نجا فلك .. أنتم إذا ظفرتم
كان ذلك زيادة فى سلطانه وإن هلكتم كنتم الأعداء البغضاء)
ثم أكمل :

(اخلعوا عدو الله الحجاج وبايعوا لأميركم عبد الرحمن بن
الأشعث فإنى أشهدكم أنى أول خالع للحجاج)

فقال الناس من كل جانب :

(خلعنا عدو الله)

عبد الملك بن مروان ليس طرفاً إلى الآن ..

المواجهة مع الحجاج فقط ..

بدأ بن الأشعث في حشد الناس حوله فأرسل إلى المهلب بن أبي
صفرة يدعو للبيعة فرفض وأرسل إليه يقول :

(إنك يا ابن الأشعث قد وضعت رجلك في ركاب طويل .. ابق
على أمة محمد ﷺ .. انظر إلى نفسك فلا تهلكها ودماء المسلمين فلا
تسفكها والجماعة فلا تفرقها والبيعة فلا تنكثها فإن قلت أخاف
الناس على نفسي فانه أحق أن تخافه من الناس فلا تعرضها لله في
سفك الدماء أو استحلال محرم والسلام عليك)

ثم كتب المهلب إلى الحجاج فقال :

(أما بعد .. فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل ليس
يردهم شيء حتى ينتهي إلى قراره .. وإن لأهل العراق شرة^(١) في
أول مخرجهم وصبابة إلى أبنائهم^(٢) ونسائهم فتركهم حتى يسقطوا
إلى أهاليهم ويشموا أولادهم ثم واقعهم عندها فإن الله ناصرك عليهم)

فلما قرأ الحجاج كتابه قال :

(ما إلى نظر وإنما نظر لابن عمه)

وكان المهلب يقصد أن جيش ابن الأشعث صار له فترة طويلة

(١) حدة ونشاط

(٢) المراد شوق

بعيداً عن العراق وبالتالي فالجنود اشتاقت إلى أبناءهم ونساءهم وإن منعهم من رؤيتهم كانوا أشد عليك في القتال وأكثر رغبة في الانتصار وقد أراد بهذا نصح الحجاج فلم يستجب لنصحه ..

ثورة عبد الرحمن بن الأشعث استقطبت الكثير وقيل أن جيش ابن الأشعث كان أكثر الجيوش التي قابلت الحجاج عدداً .. روى أن ذلك الجيش كان ضمن صفوفه ثلاثة وثلاثون ألف فارس ومئة وعشرون ألف راجل في ذروة مراحل القتال .. في المقابل فإن الحجاج جمع جل ما يستطيعه من أهل العراق وبعث إلى عبد الملك بن مروان يطلب منه المدد فكانت لا تنقطع عنه الفرق الداعمة إليه حتى قيل أنه كلما تجهز خمسون فارس أو أكثر قام عبد الملك بتسييرهم إلى الحجاج ..

جهز الحجاج جيشه وخرج به من البصرة فلقيه طليعة جيش ابن الأشعث فدار بينهم قتال دموى قتل فيه أكثر من ألف وخمسمائة من فرسان الحجاج وسلبوهم متاعهم وغنموا أسلحتهم فكانت هزيمة منكرة للحجاج فقرر التراجع إلى البصرة سريعاً فتبعه جنود بن الأشعث وقتلوا من لقيوه من جيشه وعندها أيقن الحجاج جدوى نصيحة المهلب فقال :

(لله در المهلب .. أى صاحب حرب هذا .. قد أشار علينا بالرأى ولكننا لم نقبل)

وفر جيش الحجاج من البصرة عندما اقترب منها جيش ابن الأشعث فجاء عبد الرحمن واعتلى المنبر وخطب في الناس مثيراً حماسهم ومذكرهم بمساوئ حكم الحجاج ثم أنهى خطبته بأن قال :

(ليس الحجاج بشيء .. ولكن اذهبوا بنا إلى عبد الملك لنقاتله)

فوافقه كل من فى البصرة وبأيعه جميع فقهاء وشيوخها وقراءها ..

الآن عبد الملك بن مروان أصبح طرفاً ..

ملك بنى أمية على المحك الآن ..

ثورة ابن الأشعث كانت أخطر ما واجه الحجاج فى العراق وذلك لعدة أسباب منها :

١ - الجيش الذى خرج به عبد الرحمن بن الأشعث لقتال رتبيل كان قريباً من أربعين ألف مقاتل وهو عدد كبير بما يكفى ليمثل تهديداً على حكم الحجاج للعراق على الأقل ..

٢ - بعد إعلان ابن الأشعث للتمرد انضم إليه عدد من ولايات المشرق وذلك بسبب ظلم الحجاج وتغطرسه فازداد العدد المنضم

للجيش حتى أن بعض الروايات بالغت وقالت أن الجيش كان يضم مئتي ألف مقاتل مئة من الفرسان والجند ومئة من الموالى والعبيد ..

٣ - لم تكن الثورة فتوية وإنما كانت ثورة ضد الظلم والتعسف فانضم لها كافة أطراف الناس وقتها وكان على رأسهم أبناء بعض الصحابة والعلماء والفقهاء ومشاهير المجتمع فأسماء مثل سعيد بن جبير والشعبي وابن أبي ليلى كانت لها ثقلًا بلا شك .. أسماء مثل محمد بن سعد بن أبي وقاص ومسلم بن يسار ومالك بن دينار وأبو الجوزاء كان لابد وأن يجتمع الناس عليها .. حتى الحسن البصري الذي رفض الخروج وأراد الاعتزال لم يتركه ابن الأشعث وأخرجه ضمن صفوف الجيش مرغمًا ..

باختصار كان التكتاف شديد والإجماع عظيم وإن لم يجد الحجاج ومن خلفه عبد الملك بن مروان طريقة لإنهاء هذه الثورة لكان حكمهم وملكهم في مرمى الخطر ..

في اليوم التالي جهز الحجاج جيشه واقتتل مع جيش ابن الأشعث واشتعل القتال بينهم خلال شهر المحرم أكثر من مرة وفي

آخر الشهر وقعت بينهم معركة الزاوية فاشتد قتالهم وكاد جيش الحجاج أن يهزم من جديد فلما رأى الحجاج الأهوال من حوله وما نال من الناس تذكر مصعب بن الزبير وصبره على القتال إلى أن قتل أمام جيش عبد الملك بن مروان فجثا على ركبتيه وقال :

(لله در مصعب .. ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل وعزم على أنه لا يفر)

الحجاج على ما فيه من خصال إلا أنه كان منصفاً حتى مع خصومه ..

فى نهاية اليوم استطاع جيش الحجاج أن يخترق جيش ابن الأشعث وأحدث به اضطراباً فاضطربوا للإنسحاب والعودة إلى الكوفة وبقى كثير من مقاتلى البصرة لا يريدون الرحيل إلى الكوفة وترك البصرة للحجاج فبايعوا منهم رجلاً يدعى عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة على قتال الحجاج فظلوا يقاتلونه خمسة أيام ثم قرروا الإلتجاء إلى الكوفة واللاحق بعبد الرحمن بن الأشعث فلما انسحبوا عمد الحجاج إلى خداع باقى أهل البصرة فأمر مناديه أن ينادى فى الناس :

(لا أمان لفلان .. ولا أمان لفلان)

و ذكر أسماء بعض القادة فظن العامة أن الناس قد أمنوا وكانوا لا يرغبون في ترك ديارهم والذهاب للكوفة فاستسلموا للحجاج رغبة منهم في البقاء وكانوا أحد عشر ألف شخص فإذا بالحجاج يأمر بهم فضربت أعناقهم جميعاً ..

انظر للاستزادة :

- (*) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء التاسع - ص ٣٥ : ٣٧
- (*) تاريخ الطبري - الجزء السادس - ص ٣٢٢ : ٣٢٤
- (*) تاريخ الطبري - الجزء السادس - ص ٣٢٦ : ٣٢٩
- (*) تاريخ الطبري - الجزء السادس - ص ٣٣٤ : ٣٤١
- (*) الكامل في التاريخ لابن الأثير - (٤٤٩/٤ : ٤٥٤/٤) - ص (٦٢٥ : ٦٢٦)
- (*) الكامل في التاريخ لابن الأثير - (٤٦٠/٤ : ٤٦٤/٤) - ص (٦٢٨ : ٦٢٩)

دير الجماجم وما تلاها

القتال بين الحجاج وابن الأشعث استمر قرابة السنتين وكلما مر يوم كلما زادت مساحة التعاطف مع ابن الأشعث ومال الناس إليه أكثر وحتى أغلب المعارك التي دارت بين الجيشين كانت لصالح ابن الأشعث وعندها كان لابد أن يتدخل عبد الملك بن مروان بعد أن بدأت الشكوك تساوره أن الحجاج لن يستطيع أن يحسم أمر تلك الفتنة .. فاجتمع بأهل الشام يشاورهم فقالوا له :

(إن كان أهل العراق يرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج فهو أبسر من قتالهم وسفك دمائهم)

و بعد مشاورات استقر الأمر على أن يبعث ابنه عبد الله بن عبد الملك وأخاه محمد بن مروان إلى أهل العراق بكتاب قال فيه :

(إن كان يرضيكم مني عزل الحجاج عنكم عزلته عنكم .. وبعثت عليكم أعطياتكم مثل أهل الشام .. وليختر ابن الأشعث أي بلد شاء يكون عليه أميراً ما عاش وعشت .. وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان)

كان هذا عرضاً لا يقاوم إذا كانت الظروف طبيعية ولكن لعلمه بأن الظروف غير طبيعية فقد أوصى ابنه وأخاه بأنه في حالة رفض أهل

العراق لهذا العرض فالحجاج يكون أمير الحرب كما هو وأن يكونا
فى طاعته ولا يخرجون على رأيه ..

خلال أيام ستكون الرسالة فى يد الحجاج ..

فى تلك الأثناء كان الحجاج قد تحرك من البصرة إلى منطقة تسمى
دير قرّة وخرج له ابن الأشعث فعسكر فى منطقة دير الجماجم
فاضطر الحجاج أن يتوجه إليه ويشتبك معه فكانت الغلبة لابن
الأشعث بشكل كبير حتى وصل رسولا عبد الملك إلى أرض المعركة
والتقوا بالحجاج فلما علم بما فى الكتاب ساءه الأمر وحزن حزناً لم
يحزنه من قبل .. هذا الكتاب يعنى أن ثقة عبد الملك فيه اهتزت
وأن صورة الحجاج كحاكم قوى لا يُهزم ولا ينثنى قد شابها الكثير
من الإنتقاص فطلب منهم ألا يعرضوا الأمر على ابن الأشعث حتى
يبعث إلى عبد الملك بن مروان لعله يقنعه بتغيير رأيه فأرسل إليه
كتاباً قال فيه :

(يا أمير المؤمنين .. والله لئن أعطيت أهل العراق نزعى عنهم
لا يلبثون إلا قليلاً حتى يخالفوك ويسيروا إليك ولا يزيدهم ذلك
إلا جرأة عليك .. ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر
النخعى على بن عفان ؟ فلما سألهم ما تريدون قالوا : نزع سعيد
بن العاص .. فلما نزع لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه ..

وإن الحديد بالحديد يُفْلَح .. كان الله لك فيما ارتأيت والسلام عليك)

فرفض عبد الملك كتاب الحجاج وأصر على عرضه الأول لأهل العراق فتقدم عبد الله ومحمد فنادى عبد الله :

(يا معشر أهل العراق .. أنا عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان .. وإنه يعرض عليكم كذا وكذا)

وقال محمد بن مروان :

(وأنا رسول أخى أمير المؤمنين إليكم بذلك)

فقالوا :

(ننظر فى أمرنا غداً ونرد عليكم الخبر عشية)

فاجتمع بن الأشعث بأصحابه وقام فيهم خطيباً فقال :

(قد أعطيتكم أمراً انتهزكم اليوم إياه فرصة .. وإنكم اليوم على النصف فإن كانوا اعتدوا عليكم بيوم الزاوية فأنتم تعتدون عليهم بيوم تَسْتَر^(١) .. فاقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء لقوم هم لكم هائبون وأنتم لهم منتقصون .. فوالله لازلتم عليهم جرأاً وعندهم أعزاء أبداً ما بقيتم إن أنتم قبلتم)

(١) مدينة تسمى تستر

فاعترض أصحاب بن الأشعث على ذلك وصاحوا غاضبين :

(إن الله قد أهلكهم فأصبحوا فى الضنك والمجاعة والقلّة والذلة ونحن ذوو العدد الكثير والسعر الرخيص والمادة القريبة .. لا والله لا نقبل)

وكان جيش ابن الأشعث يعسكر فى دير الجماجم فيأتيه المدد والطعام من خلفه من الكوفة وسوادها فلم يشعروا بنقص فى المؤونة أما جيش الحجاج فكان خلفه صحراء وأقرب مدد له كان الشام فكانت المؤونة ضعيفة فأصابهم نقص الطعام حتى غلت عليهم الأسعار فكانوا لا يذوقون اللحم إلا قليلاً وكأنهم فى حصار .. وبهذا كان موقف جيش ابن الأشعث أقوى فرأى أصحابه عدم قبول عرض عبد الملك ..

فلما أبلغوا رسل عبد الملك برفضهم فرح الحجاج أيما فرح وعزم على استغلال تلك الفرصة التى أتاحت له للقضاء عليهم .. عندها جاءه عبد الله ومحمد وقالوا له :

(شأنك بعسكرك وجندك .. واعمل برأيك فإننا قد أمرنا أن نسمع لك ونطيع)

أراد الحجاج أن يستفيد من تلك الفرصة الذهبية وفكر في كيفية تحقيق أكبر ضرر ممكن في جيش ابن الأشعث فلم يجد أفضل من هزيمة كتيبتهم التي تضم علماءهم وفقهائهم وكانوا يسمونها كتيبة القراء فخصص لها ثلاث كتائب يتولون أمرها لا يهجموا على أحد سواها وكان على كتيبة القراء رجلاً يسمى جبلة ابن زحر وكان رجلاً عالماً وكانت كتيبته توقره بشده فوقف ينادى فيهم :

(يا عبد الرحمن بن أبي ليلى .. يا معشر القراء .. إن الفرار ليس بأحد من الناس بأقبح منه بكم .. إنى سمعت على بن أبي طالب رفع الله درجته في الصالحين وآتاه ثواب الصادقين والشهداء يقول يوم لقينا أهل الشام : أيها المؤمنون .. إنه من رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ ومن أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الظالمين السفلى فذلك الذى أصاب سبيل الهدى ونور فى قلبه اليقين .. فقاتلوا هؤلاء المحليين المحدثين المبتدعين الذين جهلوا الحق فلا يعرفونه وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه)

وقام وجوه الناس وعلماءها يخطبون فيهم فخطب فيهم سعيد بن جبير وأبو البختری الطائى والشعبى وغيرهم فما أن بدأت المعركة حتى ضغطت عليهم كتائب الحجاج إلا أنهم صبروا لها وردوها حتى أخذتهم الحماسة فاندفعوا مبتدعين عن قائد كتيبتهم جبلة

ابن زحر حتى صار وحيداً فلمحه عدد من جنود الحجاج فهجموا عليه مستغلين انشغال جنوده فلم يهرب منهم وواجههم حتى قُتل فاحتز رأسه الوليد بن نحيث الكلبي وأتى بها الحجاج فبشر بها أصحابه فجعلوا يظهرون لكتيبة القراء ويقولون :

(يا أعداء الله .. قد هلكتم وقد قتل طاغيتكم)

معركة دير الجماجم لم تكن معركة عادية .. كانت معركة فاصلة فى عمر خلافة بنى أمية .. لم يكن الأمر يقتصر على العراق أو الحجاج وإنما كان سيمتد حتى يُطاح بعبد الملك بن مروان من كرسى خلافته فى دمشق .. إمتدت المعركة مئة وثلاثة أيام ومعاركها كانت كل يوم تقريباً حتى قال بعض الرواة أنها أربعة وثمانون موقعة كان أغلبها على الحجاج وغالًى بعضهم فقال إنها كانت أربعة وثمانون موقعة ثلاث وثمانون لابن الأشعث والأخيرة عليه ..

من شدة اختلاط الأمر على الناس وقتها بسبب تلك الفتنة لم تكون الجيوش مقسمة على أساس قبلى فقد كان كل فريق منهم يظن أنه على الحق ويقاتل لإعلائه حتى كان الجندى منهم يقابل مثيله من الجيش الآخر فيكتشف أنه يقاتل ابن عمه أو ابن خاله .. يروى

أنه في أحد أيام المبارزات خرج من جيش ابن الأشعث رجلاً يدعى عبد الله بن رزام الحارثي فنال ممن خرج من جيش الحجاج واستمر على هذا الوضع ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع أخرج له الحجاج أحد أصدقائه ويدعى الجراح بن عبد الله الحكمي فلما لقيه بن رزام قال له :

(ويحك يا جراح .. ما أخرجك إلى ؟)

قال :

(قد ابتليت بك)

قال :

(فهل لك في خير ؟)

قال :

(ما هو ؟)

قال :

(أنهزم لك .. فترجع إلى الحجاج وقد أحسننت عنده وحمدك .. وأما أنا فإني أحتمل مقالة الناس في انهزامي عنك حباً لسلامتك .. فإني لا أحب أن أقتل من قومي مثلك)

قال :

(فافعل)

فبدأوا في الإقتتال وكان بن رزام معه غلام يحمل له قربة ماء
وكلما عطش أعطاه منها وفي أحد المرات التي كان يشرب فيها حمل
عليه الجراح يريد قتله فصاح به غلامه :

(إن الرجل جاد في قتلك)

فتفاداه عبد الله بن رزام وضربه بعمود من حديد كان معه فسقط
أرضاً يدمى فقال لغلامه :

(انضح على وجهه من ماء الإداوة^(١) واسقه)

ثم قال :

(يا جراح .. بنس ما جزيتني .. أردت بك العافية وأردت قتلي)

فقال :

(لم أرد ذلك)

فقال :

(انطلق .. فقد تركتك للقرابة والعشيرة)

(١) قربة الماء

بالرغم مما سبق وبالرغم من أن غالبية الروايات أجمعت على أن جيش ابن الأشعث كان أكبر وأعلى تجهيزاً وأكثر انتصارات في المعارك إلا أنه وفي اليوم الأخير وعلى عكس سير الأحداث تماماً استطاعت ميمنة الحجاج والتي كان عليها الأبرد بن الأبرد أن تجتاح ميسرة ابن الأشعث وكان عليها الأبرد بن قرة التميمي دون عناء كبير حتى أن البعض شككوا في الأبرد بن قرة وأنه قد تمت صفقة بينه وبين الحجاج على أن ينهزم بالناس .. بعد الإجتياح لم تجد ميمنة بن الأشعث مكاناً تذهب إليه فانضمت إلى القلب فتداخلت الصفوف وانبعجت وصار ترتيب الجيش أمراً صعباً فاستغل قلب جيش الحجاج ما حدث وضغط بكل قوته على قلب جيش العراق فوقف ابن الأشعث ينادى في الناس حتى يجتمعوا إليه وصبروا كثيراً على هجوم الحجاج حتى اقتربوا منه فأتاه عبد الله بن يزيد الأزدي فقال له :

(انزل .. فإنني أخاف عليك أن تؤسر .. ولعلك إن انصرفت أن تجمع لهم جمعاً يهلكهم الله به)

فنزل من منبره وهرب وأصحابه .. بعدها حاصر الحجاج جيش العراق وبدأ يبايع الناس من جديد وكان لا يقبل بيعة أحدهم إلا بعد أن يعترف على نفسه بالكفر فإن قال أنه كفر صالحه أما إذا رفض فكان الحجاج يأمر بضرب عنقه ..

الحجاج كان خطيباً مفوهاً وانتصاره في معركة دير الجماجم مناسبة لم تكن لتفوته .. إنتصاراً عصيباً مثل ذلك لم يكن ليتمر دون تقرير لأصحاب ابن الأشعث .. بعد المعركة خطب الحجاج في الأسرى خطبة فصيحة يوبخهم بها .. وقف الحجاج أمام الناس فخطب فيهم قائلاً :

(يا أهل العراق .. إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف .. ثم أفضى إلى الأصماخ^(١) والمخاخ والأشباح والأرواح .. ثم ارتع فعشش ثم باض وفرخ ثم دب ودرج فحشاكم نفاقاً وشقاقاً وأشعركم خلافاً .. اتخذتموه دليلاً تتبعونه وقائداً تطيعونه ومؤتمناً تشاورونه وتستأثرونه .. فكيف تنفعكم تجربة أو ينفعكم بيان ؟

ألستم أصحابي بالأهواز^(٢) حيث منيتم المكر واجتمعتم على الغدر واتفقتم على الكفر وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته .. وأنا والله أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذاً وتنهزمون سراعاً ..

و يوم الزاوية وما يوم الزاوية .. مما كان من فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص قلوبكم إن وليتم كالأبل الشاردة

(١) الصماخ هي قناة الأذن الخارجية التي تؤدي إلى طبليها

(٢) يشير إلى موقعة تستر

عن أوطانها النوازع لا يسأل المرء منكم عن أخيه ولا يلوى الشيخ على
بنيه حين عضكم السلاح ونخعتكم الرماح^(١) ..

و يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم .. بها كانت المعارك
والملاحم ..

” بضرب يزيل الهام عن مقيله .. ويذهل الخليل عن خليله ”

يا أهل العراق .. يا أهل الكفران بعد الفجران .. والغدران بعد
الخدلان .. والنزوة بعد النزوات .. إن بعثناكم إلى ثغوركم غللتكم
وخنتكم .. وإن أمنتكم أرجفتكم .. وإن خفتكم نافقتكم .. لا تذكرون
نعمة ولا تشكرون معروفاً .. ما استخفكم ناكث ولا استغواكم غاو
ولا استنقذك عاص ولا استنصركم ظالم ولا استعضدكم^(٢) خالغ إلا
ليبتدع دعوته وأجبت صيحته ونفرت إليه خفافاً وثقالاً وفرساناً
ورجالاً ..

يا أهل العراق .. هل شغب شاغب أو نعب ناعب^(٣) أو زفر زافر
إلا كنتم أتباعه وأنصاره ؟

(١) النخع هو المبالغة في الذبح حتى يقطع النخاع

(٢) طلب منكم مساعدته

(٣) صاح صائح

يا أهل العراق .. ألم تنفَعكم المواعظ ؟ .. ألم تزجركم الوقائع ؟ ..
 ألم يشدد الله عليكم وطأته ويذقكم حر سيفه وأليم بأسه ومثلاته ؟ (
 ثم التفت إلى أهل الشام فقال :

(يا أهل الشام .. إنما أنا لكم كالظليم ^(١) الرامح عن فراخه ينفي
 عنه القذر ويباعد عنها الحجر ويكنها من المطر ويحميها من الضباب
 ويحرسها من الذباب ..

يا أهل الشام .. أنتم الجنة والبرد وأنتم الملاءة والجلد ..
 أنتم الأولياء والأنصار والشعار والدار .. بكم يُذَب ^(٢) عن البيضة
 والحودة ^(٣) وبكم تُرْمَى كتائب الأعداء ويُهْزَم من عاند وتولى ^(٤)

(١) ذكر النعام

(٢) يُدافع

(٣) البيضة هو ما يلبس على الرأس لوقايته أثناء القتال والمراد أنهم هم المدافعون عن

الخلافة

(٤) البداية والنهاية - الجزء التاسع - ص ١٢٢ : ١٢٣

هلاك عبد الرحمن بن الأشعث

معركة دير الجماجم لم تكن الأخيرة في مواجهات ابن الأشعث مع الحجاج ولكنها كانت الأكبر والأطول .. بعد هزيمته فيها عاد بن الأشعث مرة أخرى إلى البصرة وآوى إليه كثيراً من المنهزمين فتهجروا واجتمعوا في مكان يسمى مسكن فسار إليهم الحجاج وهناك اقتتلوا لقربة الشهر كانت الكفة فيها متساوية حتى استطاع رماة الحجاج أن ينالوا من جيش ابن الأشعث ويسقطوا العديد من فرسانهم فتقدم إليهم الحجاج وقضى على كثير منهم فلم يجد ابن الأشعث بداً من الهرب مجدداً ولكن تلك المرة إلى سجستان بعد أن قتل جُل قاداته وفرسانه من الصف الأول مثل بسطام بن مصقلة الشيباني وعبد الرحمن بن أبي ليلى وأبو البختري الطائي وعبد الله بن شداد وعمرو بن ضبيعة وبشر بن المنذر بن الجارود وغيرهم ..

لم يجد ابن الأشعث مفرّاً بعد هزيمته في مسكن إلا التراجع ناحية سجستان وقد نظم صفوفه مجدداً محاولاً العودة إلى العراق مرة أخرى إلا أن الحجاج لم يمهل وأرسل إليه جيشاً بقيادة عمارة بن تميم اللخمي فتقاتلوا وانهزم ابن الأشعث مجدداً فراجع إلى سابور وجمع عدداً من الأكراد استطاع بهم هزيمة جيش الحجاج ..

و هكذا ظل تراجعهم إلى سجستان يتخلله بعض المعارك الصغيرة مع جيش الحجاج الذي يتعقبه وفي كل منطقة كان يمر عليها كان أمراءها ما بين داعم له وما بين رافض لوجوده بالرغم من أن تلك المناطق كانت في عهده منذ شهور قليلة إلا أن هزيمته من الحجاج في دير الجماجم جعلت بعض أمراء الأقاليم يعيدوا ترتيب حساباتهم خشية أن ينتصر الحجاج فلا يجدوا ما يعتذروا به إليه ..

في النهاية وصل ابن الأشعث إلى أحد المناطق التابعة له وهي منطقة تسمى بست وكان عليها عياض بن هميان الشيباني فاستقبله وأكرمه ثم استغل غفلة أصحابه عنه وقبده وقد فعل ذلك لكي يستأمن به عند الحجاج وبالفعل كادت الحرب أن تضع أوزارها عند هذا الحد لولا أن لحقه حليفه السابق رُتبيل ملك الترك الذي سمع أنه نزل عند عياض فذهب لزيارته واستقبله فعلم بأمر احتجازه فهدد عياض قائلاً :

(والله لئن آذيتَه بما يقذى عينه أو ضررتَه ببعض الضرر أو أخذت منه ولو حبلاً من شعر لا أبرح حتى أستنزلك وأقتلك وجميع من معك وأسبى ذراريكم وأغنم أموالكم)

فلم يجد عياض مفراً من تركه بعد أن استأمن رُتبيل وعاد إلى الحجاج ليخبره بما حدث .. فى المقابل إجتمع لابن الأشعث حوالى ستون ألفاً ممن رفضوا الرضوخ للحجاج واجتمعوا فى بلاد رُتبيل ناحية سجستان .. عدداً مثل هذا أغرى أصحاب ابن الأشعث على مواصلة القتال ولكنه ارادوا أن يجتمعوا بعشائهم فى المناطق القريبة قبل مواجهة الحجاج واختاروا أن يبدأوا من خراسان وكان عليها يزيد بن المهلب بن أبى صفرة وكان مقاتلاً فذاً مثله فى هذا مثل والده فحذرهم ابن الأشعث من ذلك وأخبرهم أن قتال أهل الشام اولى فقال :

(إن بها يزيد بن المهلب وهو رجل شجاع ولا يترك لكم سلطانه .. ولو دخلناها لقاتلنا وتبعنا أهل الشام فيجتمع علينا أهل خراسان وأهل الشام)

فقالوا :

(لو دخلنا خراسان لكان من يتبعنا أكثر ممن يقاتلنا)

بعد المشاورات نزل ابن الأشعث على رأيهم وساروا معاً حتى إذا ما اقتربوا من خراسان انسحب واحد من أصحابه ويدعى عبيد الله بن عبد الرحمن القرشى وأخذ معه ألفان فقال لهم بن الأشعث :

(إني كنت في مأمن وملجأ فجاءتني كتبكم أن أقبل فإن أمرنا واحد فلعلنا نقاتل عدونا فأتيتمكم .. فرأيتم أن أمضي إلى خراسان وزعمتم أنكم تجتمعون إلي وأنكم لا تتفرقون .. وهذا عبيد الله قد صنع ما رأيتم فاصنعوا ما بدا لكم .. أما أنا فمصرف إلى صاحبي الذي أتيت من عنده^(١))

فتفرق عنه طائفة وأقنعه طائفة أخرى بالموث والإستمرار في التحرك ناحية خراسان فقبل منهم وقد بقي معه قرابة العشرون ألف مقاتل فلما اقتربوا من خراسان أرسل يزيد بن المهلب كتاباً لابن الأشعث قال فيه :

(قد كان لك في البلاد متسع ومن هو أهون مني شوكة فارتحل إلى بلد ليس لي فيه سلطان فإني أكره قتالك .. وإن أردت مالا أرسلت إليك)

فكان جواب ابن الأشعث :

(إنا ما نزلنا لمحاربة ولا لمقام ولكننا أردنا أن نريح ثم نرحل عنك وليست بنا إلى المال حاجة)

و لكن بعد فترة قصيرة أقبل عمال ابن الأشعث فجبوا الخراج من الناس وعلم بذلك يزيد فقال :

(١) يعني رُتبيل

(من أراد أن يُريح ثم يرتحل لم يجب الخراج)

ثم أرسل إليهم مجدداً :

(إنك قد أرحت وسمنت وجبيت الخراج فلك ما جببت وزيادة

.. فاخرج عنى فإنى أكره قتالك)

فرفضوا الإرتحال وعندها لم يجد يزيد بُدأً من قتالهم فتقاتلوا فلم
يصبر مع ابن الأشعث إلا قليلاً حتى هزموا وهرب ابن الأشعث مرة
أخرى وعاد إلى رُتبيل وأسر يزيد بن المهلب الكثير منهم ثم أرسلهم
إلى الحجاج ليقضى فيهم ..

لما وصل عبد الرحمن إلى أرض رُتبيل قال له أحد أصحابه واسمه

علقمة بن عمرو الأزدي :

(ما أريد أن أدخل معك لأنى أتخوف عليك وعلى من معك ..

والله لكأنى بالحجاج وقد كتب إلى رُتبيل يرغبه ويرهبه .. فإذا هو
قد بعث بك مسلماً أو قتلکم .. ولكن معى خمسمائة قد تبايعنا على أن
ندخل مدينة نتحصن بها حتى نُعطى الأمان أو نموت كراماً)

كان هذا تحذير من علقمة لابن الأشعث نظراً لما رآه من إنحسار
سطوته وانصراف أصحابه عنه إلا أنه رفض نصيحته ودخل إلى
أرض رُتبيل محتتماً به .. أما علقمة فأخذ أصحابه الخمسمائة وقد
بايعوا واحداً منهم اسمه مودود البصرى وامتنعوا فى أحد الحصون

فأتاهم جيش الحجاج بقيادة عمارة بن تميم اللخمي فحاصروهم حتى آمنهم عمارة فخرجوا إليه ..

أما عن ابن الأشعث فقد حدث بالضبط ما توقعه علقمة .. بدأت رسل الحجاج في القدوم إلى رُتبيل .. واحداً بن الآخر .. آخر رسالة من الحجاج إليه حملت تهديداً صريحاً :

(أن ابعث به إلى وإلا والذي لا إله غيره لأوطئن أرضك ألف ألف مقاتل)

في نفس الوقت وتزامناً مع رسل الحجاج كان عند رُتبيل رجلاً اسمه عبيد بن سبيع التميمي وكان أحد أتباع ابن الأشعث قد خاف مما يجري ومن تتابع رسل الحجاج إلى رُتبيل فأراد أن يعقد صفقة يخرج منها رابحاً من كل الأطراف .. يربح مالاً من رُتبيل ويأمن أيضاً عند الحجاج .. ذهب إلى رُتبيل وقال له :

(أنا آخذ لك من الحجاج عهداً ليكفن عن أرضك سبع سنين على أن تدفع إليه عبد الرحمن)

رأى رُتبيل أنها فرصة يأمن بها على ملكه ويخرج رابحاً بعدم دفعه للخراج سبعة أعوام فوافق على المقترح .. فلما وافق بعث عبيد إلى الحجاج كتاباً قال فيه أن رُتبيل لا يعصيه وأنه لن يدعه حتى يبعث إليه بعبد الرحمن بن الأشعث)

فوافق الحجاج على الكتاب وأرسل إليه مالا وأخذ مثله من رتبيل فربح من الطرفين فقام رتبيل بقتل ابن الأشعث واحتز رأسه وبعث بها إلى الحجاج فطيف بالرأس في العراق ثم أرسلت إلى عبد الملك فطيف بها في الشام ثم أرسلت إلى عبد العزيز شقيق عبد الملك وكان والياً على مصر فطيف بالرأس أسواق مصر ولم يكتفى رتبيل برأس بن الأشعث وإنما أرسل معها ثمانية عشر رجلاً من أهل بيته..

وقد اختلفت الروايات في شأن مقتل ابن الأشعث حيث قيل أنه مات بالسُّل فقطع رتبيل رأسه قبل أن يدفن وأرسلها للحجاج .. وقيل أن رتبيل أحضره وثلاثين من أهله فقيدهم وأرسلهم إلى عمارة بن تميم قائد جيش الحجاج فعلم بن الأشعث أن الحجاج سيقنتله فاستغل فرصة غفل فيها حراسه عنه وألقى بنفسه من فوق أحد البنايات فمات ..

و على أى حال فبموت ابن الأشعث انتهى أكبر خطر على الدولة الأموية في زمانها واستطاع الحجاج بمهارته العسكرية في حسم المعارك المهمة التي أضعفت صفوف ابن الأشعث .. أيضاً نجح في ذلك بسبب دهائه وبراعته في اللعب على العوامل النفسية فاستطاع السيطرة على عوام الناس وعلى حكام الأقاليم واستغل الترهيب تارة والترغيب تارة للوصول لمبتغاه في النهاية .

الحجاج وتعامله مع الأسرى

أما عن الأسرى ففيها رويت قصص كثيرة تدل على بشاعة وقسوة الحجاج في التعامل معهم وسرفه في إهدار دمائهم .. فيروى أنه في أحد المرات بعد دير الجماجم وصله الأسرى فدخل عليه حاجبه ليعلمه بوصولهم فسأله الحجاج عن أسمائهم فقال له فلان وفلان وعددهم له فقال له الحجاج :

(إذا دعوتك بسيدهم فأتنى بفيروز بن الحصين)

و ترك حاجبه يخرج ثم صاح :

(ائتنى بسيدهم)

فقال الحاجب لفيروز :

(قم)

فلما مثل أمامه قال له الحجاج :

(أبا عثمان .. ما أخرجك مع هؤلاء ؟ .. فوالله ما لحمتك من

لحومهم ولا دمك من دمائهم)

فقال :

(فتنة عمت الناس)

ولم يفعل الحجاج ذلك حباً في فيروز بن الحصين حيث أنه كان ينوى قتله على أى حال ولكن لأن فيروز كان من أشرف العراق وأغنيائها فأراد الحجاج أن يستولى على ماله فقرر أن يألفه في البداية حتى يخبره عن مكان أمواله ثم يقتله بعدها .. وبعد أن حاوره قليلاً قال له :

(اكتب لى أموالك)

قال :

(ثم ماذا ؟)

قال الحجاج :

(اكتبها أولاً)

قال :

(ثم أنا آمن على دمي)

قال :

(اكتبها ثم أنظر)

فقال فيروز :

(اكتب يا غلام .. ألف ألفى ألف)

حتى ذكر مالا كثيراً .. فقال الحجاج :

(أين هي وعند من هي ؟)

فقال فيروز :

(لا والله لا جمعت بين مالي ودمي)

فغضب الحجاج وأمر به فعذب بأسوأ أنواع العذاب .. كان يُشد عليه القصب الفارسي المشقوق ثم يُجر حتى يُجرح جسده ويقطع لحمه ثم يضعوا عليه الخل والملح .. استمر عذابه حتى شعر بالموت فقال للحجاج :

(إن الناس لا تشكن أنى قتلت ولى ودائع وأموال عند الناس لا تؤدى إليكم أبداً فأظهرونى للناس ليعلموا أنى حى فيؤدوا المال)
فأخرجوه على الناس فصاح فيهم :

(من عرفنى فقد عرفنى .. أنا فيروز بن الحصين .. إن لى عند أقوام مالا فمن كان لى عنده شيء فهو له وهو منه فى حل فلا يؤدين أحد منه درهماً .. ليبلغ الشاهد الغائب)

فغضب الحجاج من خداع فيروز له فأمر به فقطعت رأسه ..

ثم أمر بأن يأتوه بمحمد بن سعد بن أبى وقاص فلما آتاه قال :

(يا ظل الشيطان .. أعظم الناس تيهاً وكِبَراً .. تأبى بيعة يزيد بن

معاوية وتتشبه بالحسين وابن عمر ثم ضربت مؤذناً ؟)
و جعل يضربه على رأسه بعود كان فى يده حتى أدماه ثم أمر
به فقتل ..

ثم أمر بأن يأتوه بعمر بن موسى فقال :
(يا عبد المرأة .. أتقوم بالعمود على رأس ابن الحائك^(١) وتشرب
معه فى الحمام)
فقال :

(أصلح الله الأمير .. كانت فتنة شملت البر والفاجر فدخلنا فيها
.. فقد أمكنك الله منا فإن عفوت فبحلمك وبفضلك وإن عاقبت عاقبت
ظلمة مذنبين)

فقال الحجاج :
(أما أنها شملت البر فكذبت ولكنها شملت الفاجر وعوفى منها
الأبرار .. وأما اعترافك فعسى أن ينفعك)
و ظن الناس أنه ناجى إلا أن الحجاج أمر به فقتل ..

(١) يعنى ابن الأشعث

ثم دعا بالهلقام بن نعيم فقال :

(أحببت أن ابن الأشعث طلب ما طلب .. ما الذي أملت أنت معه ؟)

قال :

(أملت أن يملك فيوليني العراق كما ولاك عبد الملك إياه)

فأمر به فقتل .. ثم دعا عبد الله بن عامر فلما أتاه قال له :

(لا رأيت عينك الجنة إن أفلت)

فقال :

(جزى الله ابن المهلب بما صنع)

قال :

(وما صنع ؟)

فأنشد له شعراً قال فيه :

لأنه كاس في إطلاق أسرته .. وقاد نحوك في أغلالها مضراً

وقى بقومك ورد الموت أسرته .. وكان قومك أدنى عنده خطراً

و كان يريد أن يوقع البغضاء بين يزيد وبين الحجاج حيث ترك

يزيد الأسرى من قوم الحجاج كونهم أقل خطراً عليه وعلى ملكه ..

فأطرق الحجاج رأسه ووقرت كلمات عبد الله بن عامر فى قلبه ولكن تغلبت عليه روح الإنتقام فقال :

(وما أنت وذاك ؟)

فأمر به فقتل وظل حاملاً كلمات بن عامر فى قلبه حتى انتقم من يزيد بن المهلب وعزله عن خراسان وحبسه ..

لم يكتفى الحجاج بمن فات ذكرهم فقد كان يخصص أياماً كاملة لعقاب وقتل من شاركوا فى فتنة ابن الأشعث فقتل الكثيرين ومنهم عمر بن أبى قرّة الكندى وكان من أشرف العراق وقتل أيضاً أبو المصباح عبد الرحمن بن الحارث المعروف بأعشى همدان أحد أشهر شعراء الكوفة وكان يجلس لضرب أعناق الناس من النهار إلى الليل .. وكما ذكرنا فكان لا يصلح الأسير إلا إذا شهد على نفسه بالكفر فإذا كفر قبل منه وصالحه أما لو رفض فيقتله .. قيل أنه أوتى له برجل معتزل للحرب فلا كان مع هؤلاء ولا مع هؤلاء فقال له :

(أنت متربص^(١) .. أتشهد أنك كافر ؟)

قال :

(١) أى تنتظر إنتهاء الحرب فتكون من أنصار الفائزين

(بنس الرجل أنا .. أعبد الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر ؟ !)

فقال الحجاج :

(إذا أقتلك)

قال :

(وإن قتلتني)

فأمر بقتله .. ثم دعا بكميل بن زياد فقال له :

(أنت المقتص من أمير المؤمنين عثمان ؟ .. قد كنت أحب من أن أجد عليك سبيلاً)

قال :

(على أينما أنت أشد غضباً .. عليه حين أقاد من نفسه أم على حين عفوت عنه ؟)

ثم قال :

(أيها الرجل من ثقيف .. لا تصرف على أنيابك ولا تكشر على كاذب .. والله ما بقي من عمري إلا ظمء الحمار^(١) .. اقض ما أنت قاض فإن الموعد الله وبعد القتل الحساب)

(١) أى لم يبق من عمره إلا اليسير لأن الحمار قليل الصبر على العطش

فقال الحجاج :

(فإن الحجة عليك)

قال :

(ذلك إذا كان القضاء إليك)

فأمر به فقتل ..

تلك القسوة وذلك التوحش فى التعامل مع الأسرى لم يكن أمراً طبيعياً فقد كان الأمر إنتقامياً أكثر منه إنفاذاً وتحقيقاً للعدالة .. كان الحجاج ينتقم لذاته ولصورته التى اهتزت فى عيون عبد الملك بن مروان أولاً وفى عيون الناس ثانياً .. ذلك لم يكن ليخفى على أحد وتناقلته الناس فيما بينها حتى وصلت أخباره إلى عبد الملك فأرسل إليه يقول :

(أما بعد .. فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك فى الدماء وتبذير الأموال .. ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين لأحد من الناس .. وقد حكم عليك فى الدماء فى الخطأ بالدية وفى العمد بالقود وفى الأموال بردها إلى موضعها ثم العمل فيها برأيه .. وإنما أمير المؤمنين أمين الله وسيان عنده منع حق وإعطاء باطل .. فإن كنت أردت الناس لك فما أغناهم عنك وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم .. وسيأتيك من أمير المؤمنين لين وشدة فلا يؤنسك إلا الطاعة ولا يوحشك إلا

المعصية .. وظن بأمر المؤمنين كل شيء إلا احتمالك على الخطأ وإذا أعطاك الله الظفر بقوم فلا تقتلن جانحاً ولا أسيراً)

فأجابه الحجاج :

(أما بعد .. فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفى في الدماء وتبذيرى للأموال .. ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ما هم أهلها وما قضيت في أهل الطاعة ما استحقوه .. فإن كان قتلى أولئك العصاة سرفاً وإعطائى أولئك المطيعين تبذيراً فليسوغنى أمير المؤمنين ما سلف وليحد لى حداً أنتهى إليه إن شاء الله تعالى ولا قوة إلا بالله .. ووالله ما سُلبت نعمة إلا بكفرها ولا تمت إلا بشكرها ولا أصبت القوم خطأ فأديهم ولا ظلمتهم فأقاد بهم ولا أعطيت إلا لك ولا قتلت إلا فيك وأما ما أتانى من أمريك فأبينهما عزة أعظمهما محنة) فلما قرأ عبد الملك رسالته قال :

(خاف أبو محمد صولتى ولن أعود إلى ما يكره)^(١)

و كان هذا إيذاناً بإطلاق يد الحجاج فى الناس مرة أخرى .. كانت العلاقة بين الحجاج وعبد الملك بن مروان علاقة منفعة متبادلة .. الحجاج يعتبر يد عبد الملك الباطشة التى تقمع خصومه وتحفظ للدولة أركانها .. وعبد الملك يمثل الضمانة لتطبيق الحجاج ما يراه

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان - الجزء الثانى - ص ٣٥

حقاً مكتسباً له .. فالقتل والسجن والعقاب من وجهة نظره حفظاً للنظام لا أكثر وأن كل من يُخل بهذا النظام مارق يجب قتله إن استطاع أن يتمكن منه .. ومن أبرز ما يدل على تلك العلاقة وأن الحجاج كان أفضل أدوات بنى أمية لحفظ ملكهم ما قاله الوليد بن عبد الملك حين مات الحجاج حيث قال :

(أما والله لئن سئلت عنه - ولأسألن - لأقولن كان والله القوى الأمين)

ثم خطب في الناس فقال :

(ألا إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول إن الحجاج جلدة ما بين عيني .. ألا وإنه جلدة وجهي كله)

انظر للاستزادة :

- (*) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء التاسع - ص ٥٣ : ٥٤
- (*) تاريخ الطبرى - الجزء السادس - ص ٣٤٢ : ٣٥٠
- (*) تاريخ الطبرى - الجزء السادس - ص ٣٥٧ : ٣٨٣
- (*) تاريخ الطبرى - الجزء السادس - ص ٣٨٩ : ٣٩٣
- (*) الكامل فى التاريخ لابن الأثير - (٤٦٩/٤ : ٤٩١/٤) - ص (٦٣٠ : ٦٣٦)
- (*) الكامل فى التاريخ لابن الأثير - ٤٩٩/٤ - ص ٦٣٨

الفصل السادس

إنجازات الحجاج

- الفتوحات فى عهده
- فتوحات آسيا الوسطى
- فتوحات بلاد السند
- بناءه مدينة واسط
- إسهاماته فى التنمية المجتمعية



الفتوحات فى عهده

ثورة ابن الأشعث انتهت نظرياً بعد موقعة دير الجماجم وانتهت فعلياً عام خمسة وثمانين هجرياً بوفاة عبد الرحمن بن الأشعث وبانتهاءها استقرت أركان الدولة ودانت الأقاليم لبنى أمية وتؤكد للناس أن المقاومة المسلحة لن تأتى بنتيجة وإذا جاءت فستأتى بنتائج دموية لا يرغب بها أحد فالتمز الناس بطاعة عبد الملك بن مروان ورفضوا أى محاولة للثورة مجدداً .. ما فعله الحجاج من إراقة للدماء بعد تلك الثورة كان كفيلاً بأن يفكر أى شخص ألف مرة قبل أن يقدم على خطوة الثورة مرة أخرى ..

الحجاج لم يكن مجرد أحد ولادة عبد الملك بن مروان ومن وراءه ابنه الوليد بن عبد الملك .. الحجاج كان الرجل الثانى فى الدولة .. والى بمنزلة نائب الخليفة .. كان مسئولاً عن المشرق كله يعين ويعزل ولايته بالكامل حسب ما يرى ولكن بموافقة من عبد الملك بن مروان بالطبع .. وكان أيضاً أمير الحرب وقائداً أعلى للجيش ومشرفاً عاماً على فتوحات المشرق .. بعد استتباب الأمور لبنى أمية رأى الحجاج أن يشغل أهل العراق فى الفتوحات فتتفرغ فيها طاقاتهم فلا يجتمعوا على القيام بثورة مرة أخرى .. كان للأمر بعداً سياسياً بلا شك ولكنه فى المقابل كان فيه خيراً وفتحاً للمسلمين ونشراً للإسلام فى أصقاع بعيدة كان الوصول إليها يعتبر مستحيل ..

فتوحات آسيا الوسطى

قتيبة بن مسلم الباهلى .. واحد من الذين اعتمد عليهم الحجاج فى فتوحات وسط آسيا .. ولد قتيبة فى بيت سياسى وعسكرى .. والده هو مسلم بن عمرو الباهلى أحد أصحاب مصعب بن الزبير أيام ولايته للعراق فتأثر قتيبة بتلك الأجواء وتعلم الفروسية والضرب بالسيف فصار مقاتلاً فذاً .. اتسمت شخصية بعدد المزايا ولكن أهمها كان الشجاعة والقيادة فلقت إليه أنظار واحد من قادة المسلمين هو المهلب بن أبى صفرة الذى توسم فيه نبوغه العسكرى فقدمه إلى الحجاج وكان ممن يقدرّون الشجعان فيضعهم حيث يستحقون ..

قضى قتيبة تحت أعين الحجاج ثلاث سنوات يختبره فيها ويجربه فى مناصب القيادة المختلفة وحارب معه ضد ابن الأشعث فكان يبلى حسناً حتى جاءت اللحظة المناسبة ورشحه الحجاج إلى عبد الملك بن مروان ليؤليه فجعله على إمارة الرى ثم وضعه على خراسان وكان ذلك عام ستة وثمانين ومنذ وقتها لم يشغل بال قتيبة سوى الجهاد والفتوحات ..

قبل قتيبة كان على إقليم خراسان المهلب بن أبى صفرة حتى توفى عام ثلاثة وثمانين هجرىاً ثم تولى بعده ابنه يزيد حتى عام

سنة وثمانين هجرياً وكان الحجاج قد أمقته بسبب كلمة عبد الله بن عامر السابق ذكرها فحملها له الحجاج حتى عزله عن خراسان و وضع قتيبة مكانه .. وخراسان كانت آخر ما وصل إليه المسلمين ولم يفتح بعدها مدن أو أقاليم جديدة بسبب الإضطراب الداخلى التى تسببت فيه الثورات على الحجاج وبنى أمية فأراد الحجاج بتولية قتيبة أن يضح دماءً جديدة لعلها تكون سبباً فى ضم أراضى جديدة إلى الدولة الإسلامية ..

بالفعل لم يخيب قتيبة ظن الحجاج فانطلق ولمدة عشر سنوات كاملة لم يضع فيها السيف يوماً واحداً فتح فيهم المدينة تلو الأخرى حتى دانت له آسيا الوسطى كلها ووصل حتى دخل أرض الصين .. فى البداية سيطر على الأراضى المتاخمة لخراسان وهى المنطقة التى تقع شمال أفغانستان حالياً .. ثم قام بفتح طخارستان السفلى وهى المناطق التى تقع فى حدود أفغانستان وباكستان حالياً .. ثم سار إلى مدينة بخارى وسمرقند والذان يقعان فى حدود أوزبكستان حالياً .. بعدها فتح خوارزم وأكمل فتح إقليم سجستان والذى ينتمى إلى دول إيران وأفغانستان وباكستان حالياً .. بعدها عبر نهر سيحون أو كما يسمى حالياً نهر سيرداريا عند دول طاجيكستان وكازخستان وضمها إلى الدولة الإسلامية واستطاع أيضاً ضم دولاً أخرى مثل تركمانستان

وقرغيزيا حتى وصل إلى مدينة كاشغر داخل حدود الصين حالياً بل وأجبر وقتها ملك الصين على إعطاء الجزية درءاً لخطر القتال مع المسلمين وكان ذلك عام ستة وتسعين هجرياً آخر أعوامه في ولاية خراسان وما بعدها ..

قتيبة كان في موضع القيادة بسبب تميزه بالطبع ولكن كان هناك عوامل سياسية إضافية تحكم بقاءه في منصبه وهي وجود الحجاج على ولاية العراق ووجود الوليد بن عبد الملك على كرسى الخلافة .. عام خمسة وتسعين هجرياً توفي الحجاج وبعدها بشهور توفي الوليد بن عبد الملك .. كان يمكن أن يظل قتيبة في منصبه لولا أن من بويع بالخلافة بعد الوليد كان شقيقه سليمان بن عبد الملك وقد كان بينه وبين الحجاج وعتيبة خلافات كثيرة بسبب أنهما وافقا الوليد على خلعه من ولاية العهد وتوليئه ابنه مكانه .. عندها أدرك قتيبة أن أيامه معدودة في ولاية خراسان ..

عند تلك المرحلة اختلفت الروايات في أمر قتيبة بن مسلم فمنهم من قال أنه ظل على ولاية خراسان حتى عهد عمر بن عبد العزيز ومنهم من قال أنه تعرض لخيانة من جنوده الطامعين في الإمارة

فقتلوه وأرسلوا رأسه إلى سليمان بن عبد الملك ولكن الأشهر والله اعلى وأعلم أن قتيبة لما علم بمصيره قرر أن يستخدم آخر الوسائل المتاحة للضغط على سليمان فأرسل إليه رسولا يحمل ثلاث رسائل وأمره أن يعرض عليه الرسالة الأولى فإذا كان بجواره يزيد بن المهلب وقد أعطاه الرسالة ليقراها فيناوله الرسالة الثانية فإذا ما أعطاها ليزيد ليقراها يناوله الرسالة الثالثة ..

في الرسالة الأولى كتب قتيبة تهنئة إلى سليمان بمناسبة جلوسه على كرسى الخلافة وذكر في الرسالة بلاؤه في الفتوحات وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه سيظل في طاعته إذا ما ظل على ولاية خراسان .. فلما قرأها أعطاها ليزيد عندها قام الرسول بإعطائه الرسالة الثانية ..

في الرسالة الثانية ذكره مرة أخرى بفتوحاته وكيف أن ملوك العجم يهابونه ثم ذم في آل المهلب وانتقص منهم وحلف بالله أنه إذا ما استعمل يزيد على خراسان فإنه سيخلعه ومن معه من جنود .. فلما قرأها أعطاه ليزيد ليقراها فقام الرسول بإعطائه الرسالة الثالثة ..

في الرسالة الثالثة قال فيها أنه قد خلعه فلما قرأها تغير لونه

ولم يعطها ليزيد وجاء برسول قتيبة في المساء وكتب له عهداً ببقاء قتيبة على خراسان وأرسل معه واحداً من رجاله لتأكيد الخبر ..

في نفس الوقت هناك في خراسان كان قتيبة يشك في قبول سليمان أمر توليته من جديد بعد ما كان من أمر تلك الرسائل ووافقه على ذلك أخاه عبد الله وشجعه على خلع سليمان وحشد الناس عليه فوصل الخبر إلى رسول سليمان وهو في مدينة حلوان غرب إيران حالياً فترك رسول قتيبة وعاد إلى سليمان ليُعلمه بما حدث فأصبح عندها خلع سليمان أمراً واقعاً ..

في خراسان قام قتيبة في الناس خطيباً يذكرهم ببلاؤه معهم وكيف أنه أكرمهم وفعل كذا وكذا وكيف أن سليمان سيأتيهم مرة أخرى بيزيد بن المهلب فيقضيهم ويفعل بهم ويفعل ويقرب إليه عشائره من قبائل اليمن وصار يذكرهم بمنشأه وأنه مثلهم من أهل العراق إلى آخر كل الأمور التي من شأنها حثهم على مساندته ولكن الناس رفضت خطابه واستمرت على طاعة سليمان فغضب عليهم وأساء إليهم حتى ثارت عليه القبائل وخلعوه وجعلوا عليهم رجلاً يدعى وكيع بن أبي سود فقتل قتيبة وجميع أهله وقطع رأسه وأرسلها إلى سليمان بن عبد الملك فكافأه بتوليته خراسان ..

بعد عشرة أشهر بالتمام استطاع يزيد بن المهلب بمساعدة عبد الرحمن بن الأهتم وهو واحد من المقربين لسليمان بن عبد الملك أن يقنعه بعزل وكيع عن خراسان وتولية يزيد بن المهلب مكانه وأظهرا له أن أمر خلع قتيبة له كان مكيدة أعدت له وأن قتيبة لم يخلعه حقاً فاستجاب سليمان لكلام عبد الرحمن وعزل وكيع وحبسه وتولى يزيد بن المهلب أمر خراسان مرة أخرى ..

وسواء كان قتيبة خلع سليمان أم لم يخلعه فهذا علمه عند الله وقد اختلفت فيه الروايات ولكن ما لم يختلف عليه أحد أن قتيبة بن مسلم الباهلي كان أحد أهم أسباب إنتشار الإسلام في دول وسط آسيا وأن كل من قال لا إله إلا الله في هذه البلاد إلى يوم الدين فهو في ميزانه وفي ميزان الحجاج من قبله وحسابهم وحسابنا على الله ..

انظر للاستزادة :

- (*) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء التاسع - ص ١٦٧ : ١٦٩
- (*) سير أعلام النبلاء للذهبي - الجزء الرابع - الطبقة الثانية - ص ٤١٠ / ٤١١
- (*) الكامل في التاريخ - (٥٢١/٤ : ٢٠/٥) - ص (٦٤٤ : ٦٦٨)
- (*) تاريخ الطبرى الجزء السادس - ص ٤٢٤ : ٥٢٢

فتح بلاد السند

الجنح الثاني للحجاج في شأن فتوحات المشرق في عهده كان موجهاً إلى بلاد السند حيث تقع دول باكستان والبنجاب وشمال الهند حالياً .. بدأ الأمر عندما إرتحل بعض التجار العرب للتجارة في جزر الياقوت أو سيريلانكا حالياً ولكن بعد فترة توفى التجار وكسدت التجارة فقرر أبناؤهم وكانوا من الإناث العودة مرة أخرى والعيش بالعراق فحملوا ما بقى من تجارتهم في سفينة وهموا عائدين فاعترضهم بعض القراصنة أثناء رسوهم بميناء الديبول أو ميناء كراتشي في باكستان حالياً فطار الخبر إلى الحجاج الذي خاطب ملك السند وكان اسمه زاهر بن صعصعة إلا أنه تحجج بأن من اختطفهم لصوص لا يقدر عليهم رغم أن أمر الإختطاف كان بعلمه فجهز الحجاج جيشين لاستعادة النساء المختطفات ولكن تجهيزهما لم يكن على الوجه الأمثل بسبب ضيق الوقت فهزم الجيشان أمام قوات زاهر ومعها بدأ الحجاج يفكر في اختيار قائد جديد يستطيع أن يتحمل مسؤولية الفتح واستعادة النساء ..

محمد بن القاسم الثقفي .. ولد بالطائف عام إثنان وسبعون هجرياً لأسرة من أشراف ثقيف .. جده محمد بن الحكم من كبار ثقيف .. والده هو القاسم بن الحكم الثقفي ابن عم الحجاج بن يوسف الثقفي

والذى ولاه الحجاج ولاية البصرة فى عهده .. نشأ محمد الطفل الصغير فى بيئة قيادية عسكرية وقد وجد أغلب رجال قبيلته ثقيف وقد تولوا مناصب عدة فكان ذلك له أكبر الأثر على شخصيته فأصبح واحداً من القادة العسكريين وعمره لم يتجاوز السبعة عشر عاماً ..

قرر الحجاج أن يولى مهمة فتح بلاد السند إلى محمد بن القاسم وكان ذلك عام تسعين هجرية فقبل الشاب الصغير المهمة ولكنه اشترط أن يتم تجهيز الجيش جيداً وأن تستمر مهمة فتحه لبلاد السند كلها ولا يقتصر الأمر على استعادة النساء وأن يرافق الجيش البرى أسطول بحرى لإنجاز المهمة فى أسرع وقت فقبل الحجاج وبعث بطلبه إلى الوليد بن عبد الملك يطلب منه الإنفاق على الجيش مع وعده أن كل درهم سيصرف على ذلك الجيش سيعود إلى خزينة الدولة وقد تضاعف إن شاء الله فقبل منه الوليد وأمده بما يريد وقيل أن الحملة على السند تكلفت ستون مليون درهم وقد أفاء الله على دولة الإسلام بعد الفتح بغنائم قدرت بمائة وعشرين مليون درهم وهو ما وعد به الحجاج ..

بدأ الفتح بالسيطرة على ميناء الديبول بعد معركة طاحنة جمع لها السنديين جل طاقتهم ولكن الله أفاء على المسلمين بالنصر .. بعدها استقدم محمد بن القاسم أربعة آلاف من المسلمين للإقامة

بالمدينة تأكيداً لتبعيةها للمسلمين وبنى فيها المساجد وطمس الهوية الوثنية بها وفعل مثل ذلك في كل المدن التي فتحها حتى غير التركيبة السكانية والجغرافية للمدن السندية ..

استمرت فتوحات محمد بن القاسم لمدة سنتين بنجاح كبير حتى لم يجد زاهر ملك السند مفراً من اللقاء فأعد جيشاً كبيراً لمواجهة جيش المسلمين والذي كان تعداداه وقتها قد وصل إلى قرابة العشرين ألف مقاتل بعد انضمام من أسلم من أهل المدن التي فتحت فدارت بينهم معركة عظيمة هي أصعب معارك محمد بن القاسم في فتوحات بلاد السند وانتهت بانتصار المسلمين وقتل زاهر وأسرت ابنته وكان اسمها صيتا فلما رأت زوجها ذلك أحرقت نفسها مع بعض جواريتها حتى لا يقعوا في الأسر وكان ذلك متبعاً حسب ديانتهم ..

لم يكتفى محمد بن القاسم بما فعله وإنما استمرت فتوحاته حتى وصل إلى إقليم البنجاب وفتحه وفتح بعده إقليم مولتان وكان ذلك عام ستة وتسعين هجراً وعندها سار عليه ما سار على قتيبة بن مسلم الباهلي فعلى ما يبدو أن بوفاة الحجاج ومن بعده الوليد بن عبد الملك قد فقد الثقفيين ظهرهم الذي كانوا عليه يستندون وهذه هي حال السياسة في كل زمان ومكان .. للأسف فقد أخذ قادة عظام مثل قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم بذنب قسوة ودموية قائدهم

السابق الحجاج بن يوسف فكان الإنتقام منه بعد وفاته فى شخوص
من عينهم و ولاهم ..

بعد استلام سليمان بن عبد الملك مقاليد الأمور أرسل كتاباً إلى
محمد بن القاسم يأمر بعزله من قيادته للجيوش فحزن الشاب ذو
الثلاث والعشرين عاماً ولكنه امتثل للأمر وانتشر الخبر بين الناس
فحزن عليه جنوده وقادته وحتى المدنيين من أهل السند بعد ما رأوا
منه عدلاً لم يتوفر لهم من حكامهم السابقين فقد كان مثلاً للحاكم
العادل الشديد على الكافرين والرحيم بالمسلمين فلما علمت صيتاً ابنة
زاهر ما حدث وأن أيامه أصبحت معدودة قررت الإنتقام منه فادعت
عليه أنه راودها عن نفسها واغتصبها رغماً عنها وبسبب الأوضاع
السياسية الجديدة فلم يجد محمد بن القاسم سنداً له عند الخليفة
الذى أمر بإرساله إلى العراق وكان عليها صالح بن عبد الرحمن وكان
واحداً من أكثر الكارهين للحجاج وقد تولى العراق فى إطار خطة
سليمان بعزل كل من عمل مع الحجاج ..

لما أتى محمد بن القاسم العراق أراد صالح أن ينتزع منه اعترافاً
بالجريمة التى ادعتها عليه صيتاً فرفض وأصر على براءته من هذه

التهمة فأمر صالح بحبسه وتعذيبه حتى يعترف ولكنه كان مصراً على براءته وللأسف تم التعنت ضده بسبب قرابته من الحجاج فاستمر تعذيبه حتى توفي من شدة التعذيب وخسر الإسلام بطلاً عظيماً كان على وشك فتح بلاد الهند ولو كان مد الله في عمره لكانت كل تلك البلاد وما تلاها تدين بالإسلام إلى يومنا الحالي ..

رحم الله قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي وغفر لهما وجزاها عن أسلم بسببهما الفردوس الأعلى من الجنة ..

انظر للاستزادة :

(*) الكامل في التاريخ - (٥٣٦/٤ : ٥٤٠/٤) - ص (٦٤٨ : ٦٤٩)

(*) الكامل في التاريخ - (٥٨٦/٤ : ٥٨٩/٤) - ص (٦٦٢ : ٦٦٣)

بناءه مدينة واسط

من أبرز المظاهر المعمارية فى عهد الحجاج كان بناءه لمدينة واسط ولاتزال تلك المدينة قائمة إلى الآن .. ولبناء المدينة قصة حيث أن الحجاج كان يعتمد على أهل الشام فى تشكيل أغلب جيشه ولما لم يكن لهم بيوت أو مساكن خاصة بهم فقد أنزلهم على أهل العراق وقد حدثت عدة مشاكل بسبب هذا القرار أبرزها ما حدث حين قرر تجهيز جيش من أهل الكوفة لتسييره إلى خراسان وكان ضمن جيش الكوفة شاباً حديث الزواج فترك معسكره وعاد إلى زوجته وبينما هو عندها إذا بالباب طرقاتاً شديداً فنظرت الزوجة من إحدى فتحات الباب فإذا به واحد من أهل الشام يطرق بابهم وهو سكران فأخبرت الزوجه زوجها أن هذا الرجل يأتيهم باستمرار ويسبب لهم المشاكل فأمرها زوجها بأن تفتح له الباب فلما دخل قتله وعاد إلى معسكره مرة أخرى وقال لزوجته أن ترسل لأهل الشام لكى يأتوا فيأخذوا صاحبهم وأمرها بأن تصدق الحجاج القول عندما تمثل أمامه فلما شهدت بما حدث قال الحجاج لأهل الشام :

(خذوا صاحبكم لا قود له ولا عقل فإنه قتل الله إلى النار)

ثم أمر بالآ ينزل أحد على أحد وبدأ التفكير فى الإرتحال بأهل الشام فيجد لهم مكاناً وسطاً يستطيع عن طريقه تسيير الجيوش

حيثما شاء فنزل بمنطقة بين البصرة والكوفة ووقف يفكر في اختيار مكان يعسكر به إذا بأحد الرهبان يركب حملاً يمر بالقرب منهم وإذا بالحمار يبول فنزل الراهب من على الحمار واحتفر مكان البول وأخذ الرمال وألقاها في نهر دجلة وكان الحجاج يتابعه فلما رأى فعله اندهش وأمر بأن يأتيه به وسأله عن سبب إلقائه الرمال في النهر فقال الراهب :

(نجد في الكتب أنه يُبنى في هذا الموضع مسجد يُعبد الله فيه مادام في الأرض أحد يوحده)

فاستبشر الحجاج بحديثه وقرر بناء المدينة في هذا المكان واختص المسجد بالموضع الذي أشار إليه الراهب وأسمّاها واسط لأنها تتوسط المسافة بين البصرة والكوفة والأهواز وتبعد عن كل منهم حوالي مائة وخمسون ميل وقد أطلق عليها أيضاً واسط القصب بحكم أن الأرض التي بنيت عليها المدينة كانت مخصصة لزراعة القصب ..

وقد روى أنه بعدما انتهى الحجاج من بناءها سأل الحسن البصري وكان عنده في مجلسه فقال له :

(كيف ترى بناءنا هذا ؟)

فقال الحسن :

(إن الله أخذ عهود العلماء وموآثيقهم أن لا يقولوا إلا الحق ..
أما أهل السماء أيها الأمير فقد مقتوك وأما أهل الأرض فقد غروك ..
أنفقت مال الله في غير طاعته يا عدو نفسه)

فنكس الحجاج رأسه حتى خرج الحسن ثم قال :

(يا أهل الشام يدخل على عبيد أهل البصرة ويشتمنى في مجلسي
ثم لا يكون لذلك معير ولا نكير ؟! ردوه على)

فخرجوا ليردوه ودعا بالسيف يريد أن يقتله فلما دخل الحسن
تمتم بكلمات لم يسمعها أحد وما هي إلا لحظة حتى لان له الحجاج
ورحب به وأجلسه جواره ودعا بالطيب فمسح به لحيته ثم صرفه
مكرماً فلما خرج من عنده تبعه الحاجب وقال :

(يقول لك الأمير .. رأيتك تحرك شفقتك وقد كنت هممت بك
فماذا قلت في دعائك ؟)

فقال الحسن :

(قلت .. يا عدتى عند كربتى ويا صاحبى عند شدتى ويا ولى
نعمتى ويا إلهى وإله آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويا كهيعص

بحق طه ويس والقرآن العظيم أرزقني معروف الحجاج ومودته
واصرف عني أذاه ومعرفته)

فقال الحاجب عندها :

(بخٍ بخٍ لهذا الدعاء)

ثم أخبر به الحجاج فأعجب بالدعاء وأمر بأن يُكتب له ..^(١)

انظر للاستزادة :

(*) فتوح البلدان للبلاذري - أمر واسط العراق - ص ١٧٥ : ١٧٧

(*) الكامل في التاريخ - ٤/٤٩٥ - ص ٦٣٧

(*) البداية والنهاية - الجزء التاسع - ص ٥١

(١) المنتظم في تاريخ الأمم لابن الجوزي - باب ذكر ما جرى في سنين الهجرة - ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين والقصة مُضَعَّفَةٌ نسبيًّا

إسهاماته فى التنمية المجتمعية

الحجاج على الرغم من أن المشهور عنه هو قصص سفكه للدماء وما أكثرها ولكن كان لديه جانباً إدارياً جيداً جداً لا يمكن إنكاره أو التغاضى عنه فالحجاج استطاع خلال سنوات حكمه للعراق أن يصنع نقله نوعية عمرانياً وإدارياً وتنظيمياً ..

وإذا ما نحينا جانباً أموراً مهمة تصب فى ميزان الحجاج مثل حرصه على الجهاد وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية وحفظ أركانها من الفتن والثورات وقتها وقد نختلف أو نتفق مع طبيعة الدولة التى حافظ عليها الحجاج ولكن فى النهاية هو حافظ عليها .. وإذا ما نحينا أيضاً جانب تعظيمه للقرءان وإعطائه أهله وإهتمامه بنشر الدين والفقه وتوقيره للعلماء خاصة المؤيدين لبنى أمية فالحجاج سن قوانين من شأنها تطوير الشكل العام للدولة من كافة النواحي .. ومن أمثلة إصلاحاته العمرانية على سبيل المثال فقد قام الحجاج بالآتى :

– أمر ببناء مدينة واسط كما ذكرنا

– أمر بشق القنوات والأنهار لتساهم فى مضاعفة الرقعة الزراعية وتكتفى الدولة الإسلامية منها فلا يصيب الناس نقص من طعام

– أقرض الفلاحين وسهل مهمتهم عن طريق توفير الماشية لتساعدهم فى العملية الزراعية

– أنشأ الصهاريج لتخزين مياه الأمطار لتكفي أهل العراق وتخدم المسافرين خاصة في مواسم الحج

– أمر ببناء الجسور لتسهيل حركة المواطنين خاصة وأن العراق لم يكن بها جسور عند مجيئه

– أمر بحفر آبار المياه لتوفير المياه في المناطق المنقطعة لمرافق المسافرين عبرها وهو ما ساهم أيضاً في توزيع الكثافة السكانية

– أمر بتعبيد الطرق ومدّها قدر المستطاع

و ليست الإصلاحات العمرانية فقط هي ما اشتهر بها الحجاج وإنما اشتهر أيضاً بإقرار إصلاحات مجتمعية تضبط إيقاع المجتمع وتراعيه مثل :

– أقر وضع أمني داخلي مستتب خاصة بعد إنتهاء ثورة ابن الأشعث

– أمر بتعريب الدواوين بعد أن كانت تكتب بالفارسية

– كان أول من سأل عن عدد حروف المصحف وأول من أمر بتنقيطه وإدراج علامات الإعراب عليه

- كان أول من جمع القراء على قراءة واحدة وهي قراءة عثمان بن عفان بسبب إنتشار الإسلام ودخول كثير من العرقيات المختلفة فيه وبالتالي بدأوا في قراءته بطريقة غير صحيحة

- أول من قسم القراء إلى أجزاء وأحزاب ووضع به علامات تدل على المنتهى والمتبقى منه سواء رבעه أو ثلثه إلى آخره

- ضبط معايير العملة في العراق وبلاد المشرق بعد أن أمر عبد الملك بن مروان بسك أول درهم إسلامي بعد أن كانت دولة الإسلام تتعامل بالعملات الفارسية والرومانية

- منع بيع الخمر وأمر بإهراق كل نقطة خمر في الولايات التي كانت تحت إمرته

- منع النياحة على الموتى وكانت منتشرة في العراق وقتها

- أمر بقتل الكلاب الضالة حرصاً على سلامة المواطنين

- سن قوانين تمنع إلقاء القمامة في المناطق العامة ومنع التبول أو التبرز فيها وعاقب على ذلك

وكل ما سبق على سبيل المثال لا الحصر وقد أفاد الحجاج المجتمع وأنجز فيه إدارياً بشكل كبير وهو ما يدل على التناقض في شخصية الحجاج فهو من ناحية رجل إصلاحى من الطراز الأول ويعمل في

صالح الدولة عسكرياً وإدارياً ولكنه من ناحية أخرى متهم بالقسوة
الشديدة والإفراط الشنيع في سفك الدماء في حق المخالفين لسياسته

..

الفصل السابع

مواقف من حياة الحجاج



مواقف من حياة الحجاج

للحجاج مواقف كثيرة على مدار عمره بعضها اتسم بالعنف والقسوة وبعضها اتسم بالعفو والتسامح وبعضها اتسم بالتواضع والأدب وبعضها اتسم بالطرافة والفكاهة .. فى هذا الفصل سنورد قصصاً من حياة الحجاج إن دلت فإنما تدل على شخصية يصعب فهمها أو التعامل معها .. شخصية شملت جميع المتناقضات فلا تعلم إذا ما كان طاغية أو متسامح أو متواضع ..

من المواقف التى تدل على فصاحته ما رواه الشعبى حين قال :

سمعت الحجاج تكلم بكلام ما سبقه إليه أحد .. يقول :

(أما بعد .. فإن الله تعالى كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء فلا فناء لما كتب عليه البقاء ولا بقاء لما كتب عليه الفناء .. فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة واقهروا طول الأمل بقصر الأجل)^(١)

قال أيضاً الحسن البصرى فى أمر فصاحته :

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر - الجزء الثانى عشر - ١٤٢

وقد تَنى^(١) كلمة سمعتها من الحجاج .. سمعته يقول على هذه
الأعواد^(٢) :

(إن امرء ذهب ساعاً من عمره في غير ما خلق له لحرى أن
تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة)^(٣)

و يقول أبو عمرو بن العلاء في أمر رجحان عقله :

(ما رأيت أحداً أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج)

فقل :

(فأيهما كان أفصح ؟)

قال :

(الحسن)

وقال عقبة بن عمرو أيضاً :

(ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض إلا الحجاج)

(١) أى صرعه وأثرت به

(٢) الأعواد هى المنابر

(٣) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء التاسع - ص ١٢٣

وإياس بن معاوية فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس^(١)

وكان مالك بن دينار يقول :

(ربما سمعت الحجاج يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم فوق في نفسى أنهم يظلمونه لبيانه وحسن تخلصه للحجج)^(٢)

و إذا كان هذا فى أمر فصاحته ورجحان عقله فماذا عن المواقف التى تدل على تقديره للأخر .. من أشهر تلك المواقف موقفه مع السيدة أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها حينما أراد أن يأتى بها بالقوة وبعث إليها أحد أتباعه فرفضت فذهب إليها وهو ينوى شراً فجادلته السيدة أسماء لما قال لها :

(كيف رأيتينى صنعت بعدو الله ؟)

و كان يقصد ابنها عبد الله بن الزبير رضى الله عنه فقالت :

(رأيتك فسدت عليه دنياه وأفسدت عليك آخرتك .. بلغنى أنك تقول يا ابن ذات النطاقين .. أنا والله ذات النطاقين .. أما أحدهما

(١) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء التاسع - ص ١١٩

(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان - الجزء الثانى - ص ٤١

فكنت أرفع به طعام رسول الله ﷺ وطعام أبي بكر وأما الآخر فنطاق المرأة التي لا تستغنى عنه .. أما إن رسول الله حدثنا أن في ثقيف كذاباً ومبيراً فأما الكذاب فرأيناه^(١) وأما المبير فلا أخالك إلا إياه^(٢) فرجع عنها الحجاج ولم يزيد كلمه بالرغم من أنه أتاها وكان ينوى بها شراً ولكنه وقف عندما وجد في حديثها منطق فلم يستطع أن يرد عليها ..

أيضاً موقفه مع عبد الله بن عمر حين خطب الحجاج في الناس خطبة الجمعة فأطال الخطبة فوقف ابن عمر يقول
(الصلاة الصلاة)

ثم كررها مراراً ثم أقام الصلاة فاضطر الحجاج أن يصلى بالناس فلما انتهى قال لابن عمر :
(ما حملك على ذلك ؟)

فقال :

(١) تعنى المختار بن عبيد الله الثقفي
(٢) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء الثامن - ص ٣٤١

(إنما نجىء للصلاة فصل الصلاة لوقتها ثم تفتق ما شئت بعد من تفتقه)

أى صل بنا وبعدها فلتخطب فى الناس ما شئت ولم يرد عليه
الحجاج أو يعاتبه لقدره ومكانته ..

و موقف آخر حدث مع الحسن البصرى حينما أخذ الحجاج رأيه
فى مدينة واسط التى بناها فقال له :

(كيف ترى بناءنا هذا ؟)

فقال الحسن :

(إن الله أخذ عهود العلماء وموآثيقهم أن لا يقولوا إلا الحق ..
أما أهل السماء أيها الأمير فقد مقتوك وأما أهل الأرض فقد غروك ..
أنفقت مال الله فى غير طاعته يا عدو نفسه)^(١)

فنكس الحجاج رأسه حتى خرج الحسن من عنده ورغم أنه
أحضره مرة أخرى لعقابه على حديثه إلا أنه عفا عنه فى النهاية
وأكرمه وأحسن معاملته ..

(١) المنتظم فى تاريخ الأمم لابن الجوزى - باب ذكر ما جرى فى سنين الهجرة - ثم
دخلت سنة ثلاث وثمانين

وأخيراً موقفه أيضاً مع الحسن البصري عندما استدعاه وقد هم به فلما وقف الحسن بين يديه ورأى منه شراً قال له :

(يا حجاج .. كم بينك وبين آدم من أب ؟)

قال :

(كثير)

قال :

(فأين هم ؟)

قال :

(ماتوا)

فنكس الحجاج رأسه بعد أن فهم المعنى الذي أراد أن يوصله إليه الحسن ولم يرد عليه ..

فإذا كان ما مضى دل على تقديره للأخر فماذا عن تواضعه ؟

من أشهر المواقف التي دلت على تواضع الحجاج كان موقفه مع سعيد بن المسيب التابعي المشهور حينما صلى جواره يوماً ما وكان هذا قبل أن يتولى أى منصب قيادي فجعل يرفع قبل الإمام ويضع

قبله فلما سلم الإمام أخذ سعيد بثوب الحجاج والحجاج يريد أن ينصرف وسعيد لا يتركه يذهب - وكان سعيد يقول شيئاً من الذكر بعد الصلاة - والحجاج يحاول جذب ثيابه منه ليذهب وسعيد لا يتركه فلما فرغ سعيد بن المسيب جمع بين نعليه ورفعهما على الحجاج وقال :

(يا سارق .. يا خائن .. تصلى هذه الصلاة ؟ ! .. لقد هممت أن أضرب بهما وجهك)

مضى بعدها الحجاج ورجع إلى الشام ثم عاد والياً على المدينة بعد قتله لابن الزبير فدخل المسجد قاصداً سعيد بن المسيب فظن الناس أنما جاء لينتقم منه وخشوا عليه ودخل الحجاج حتى وصل إلى سعيد فجلس بين يديه وقال :

(أنت صاحب الكلمات ؟)

فضرب سعيد صدره بيده وقال :

(أنا صاحبها)

فقال له الحجاج :

(جزاك الله من معلم ومؤدب خيراً .. ما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك)^(١)

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر - الجزء السادس - ص ٢٠٢

عرف عن الحجاج سرعة سفكه للدماء وقد ذكرنا بعض تصرفاته في فصل الثورات التي قامت عليه وكيف أنه قتل في ليلة واحدة أحد عشر ألفاً من أسرى يوم الزاوية وذكرنا عديد المواقف لأسرى دير الجماجم ولكن هناك بعض المواقف التي دلت على صفح الحجاج وعفوه .. نعم كان يعفو أحياناً .. من تلك المواقف أنه جلس يوماً لقتل أصحاب بن الأشعث فقام رجل منهم فقال :

(أصلح الله الأمير .. إن لى عليك حقاً)

قال :

(وما حقك ؟)

قال :

(سبك عبد الرحمن يوماً فرددت عليه)

فقال :

(من يعلم ذلك ؟)

فقال :

(أنشد الله رجلاً سمع ذلك إلا شهد به)

فقام رجل من الأسرى فقال :

(قد كان ذاك أيها الأمير)

فقال الحجاج :

(خلوا عنه)

ثم قال للشاهد :

(فما منعك أن تنكر كما أنكر)

قال :

(لتقديم بغضى إياك)

فقال الحجاج :

(ولنخل عنه لصدقه)^(١)

عفا عن الأول لما قاله في حقه وعفا عن الثاني لصدقه وعدم كذبه
حتى وهو مقبل على الموت ..

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان - الجزء الثاني - ص ٣٨

أيضاً موقفه الشهير مع الشُعبي بعد دير الجماجم وكان ممن لحق بقتيبة بن مسلم حين نادى منادى الحجاج أن من لحق بقتيبة بن مسلم فهو آمن .. فلما لقيه الناس قبل أن يدخل على الحجاج قالوا له :

(اعتذر قدر ما استطعت)

فلما دخل على الحجاج قال :

(السلام عليك أيها الأمير)

فنظر إليه الحجاج ولم ينطق فأكمل الشعبي :

(أيها الأمير .. إن الناس قد أمروني أن أعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق .. وإيم الله لا أقول في هذا المقام إلا حقاً .. قد والله خرجنا عليك واجتهدنا كل الجهد فما ألونا .. فما كنا بالفجرة الأقوياء ولا البررة الأتقياء .. ولقد نصرك الله علينا وظفرك بنا فإن سطوت فبذنوبنا وما جرت إلينا أيدينا وإن عفوت عنا فبحلمك وبعد الحجة لك علينا)

فقال له الحجاج :

(أنت والله أحب إلي ممن يدخل على يقطر سيفه من دماننا ثم

يقول ما فعلت وما شهدت .. قد أمنت عندنا يا شعبي فانصرف^(١)

موقف آخر يرويهِ الهيثم بن عدى يقول فيه :

جاء رجل إلى الحجاج فقال :

(إن أخى خرج مع ابن الأشعث فُضْرِبَ على اسمى فى الديوان
وَمُنِعَتِ العطاء وقد هُدِمَت دارى)

فقال الحجاج :

أما سمعت قول الشاعر :

(حنانَيْكَ من تجنّى عليك وقد .. تعدّى الصّاحَ مبارك الجربِ
ولرب مأخوذٍ بذنب قريبه .. ونجا المقارف صاحب الذنب ؟)

فقال الرجل :

(أيها الأمير .. إنى سمعت الله يقول غير هذا وقول الله أصدق
من هذا)

فقال الحجاج :

(١) وفيات الأعيان وأنبياء أبناء الزمان لابن خلكان - الجزء الثانى - ص ٣٩

(وما قال ؟)

قال :

﴿ قَالُوا يَتَأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نُرْكَكُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧٨) قَالَ مَكَادَ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَنَا عِنْدَهُ ۖ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوكَ ﴿٧٩﴾ (١)

فقال :

(يا غلام .. أعد اسمه في الديوان .. وابن داره .. وأعطه عطاءه .. ومُر منادياً ينادى .. صدق الله وكذب الشاعر)^(٢)

و روى ابن عياش فقال :

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج أن أبعث إلى برأس أسلم بن عبد البكري لما بلغني عنه .. فأحضره الحجاج فقال الرجل :

(أيها الأمير .. أنت الشاهد وأمير المؤمنين الغائب وقال الله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنِيَّةٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ

(١) يوسف : ٧٨ - ٧٩

(٢) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء التاسع - ص ١٢٤

فَنُصِّحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿١﴾ وما بلغه باطل وإنى أعول أربعة وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيرى وهنّ بالباب)

فأمر الحجاج بإحضارهن فلما حضرن جعلت هذه تقول: أنا خالته وهذه تقول أنا عمته وهذه تقول أنا أخته وهذه تقول أنا زوجته وهذه تقول أنا بنته .. وتقدمت إليه جارية فوق الثمان ودون العشرة فقال لها الحجاج :

(من أنت ؟)

فقالت :

(أنا ابنته .. أصلح الله الأمير)

ثم جثت على ركبتيهما وقالت :

أحجاج لم تشهد مقام بناته .. وعماته يندبنه الليل أجمعاً
أحجاج كم تقتل به إن قتلته .. ثماناً وعشراً واثنين واربعاً
أحجاج من هذا يقوم مقامه .. علينا فمهلاً إن تزدنا تضععنا
أحجاج إما أن تجود بنعمة .. علينا وإما أن تقتلنا معا

فبكى الحجاج وقال :

(والله لا أعنت عليك ولا زدتك تضرعاً)^(١)

ثم كتب إلى عبد الملك بما قال الرجل وبما قالت ابنته هذه فكتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره بإطلاقه وحسن صلته وبالإحسان إلى هذه الجارية وتفقدتها في كل وقت ..

موقف آخر قيل فيه أن الحجاج خطب يوماً فقال :

(أيها الناس .. الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله)

فقام إليه رجل فقال له :

(ويحك يا حجاج .. ما أصفق وجهك وأقل حياؤك .. تفعل ما تفعل وتقول مثل هذا الكلام ؟ .. خبت وضل سعيك)

فقال للحرس :

(خذوه)

(١) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر - الجزء السادس - ص ٢١٠

فلما فرغ من خطبته قال له :

(ما الذى جرأك على ؟)

فقال :

(ويحك يا حجاج .. أنت تجترئ على الله ولا أجتري أنا عليك ..
ومن أنت حتى لا أجتري عليك وأنت تجترئ على الله رب العالمين)

فقال :

(خلوا سبيله)^(١)

كان الحجاج فصيحاً وكان أيضاً محباً للشعر وكان كثيراً ما يعفو
عن أحدهم بسبب ما يجده فيه من فصاحه وبلاغة ومن تلك المواقف
أنه جيء له برجل توجب عليه القتل وبعد أن جهزوا المكان لعملية
الإعدام ورأى بريق السيف فى يد السيف حزن لحاله وأنشأ شعراً
قال فيه :

تألق البرق من نجد فقلت له .. يا أيها البرق إنى عنك مشغول

يكفيك ما قد ترى من تائر حنق .. فى كفه كصبيب الماء مسلول

(١) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء التاسع - ص ١٢٤

فلما رأى الحجاج ما كان من حضور ذهنه وجودة شعره عطف عليه إشفاقاً له وبدأ يعرض على أهل الدية أن يدفع عنه ديته فكانوا يرفضون وكلما رفضوا زاد الحجاج حتى بذل لهم دية لا تدفع إلا في الملوك ثم قال لحراسه :

(فكوا قيده وخلوا سبيله فإن من لم ينس أحبته في هذا المقام لجدير أن لا يقتل)^(١)

نعم كان الحجاج يعفو أحياناً ولكنه كان يعاقب أيضاً وكان يستعمل الشدة مع مخالفيه وهناك الكثير من المواقف التي تدل على دمويته ومنها ما رواه القاضي أبو الفرج المعافى عن المرأة الخارجية التي تدعى فراشة وكانت ذات رأى بين الخوارج فكانت تجهزهم لقتال الحجاج ولم يتم الظفر بها أو بأحد من أتباعها وكان الحجاج يدعو الله أن يظفر بها أو بأحد ممن تجهزهم وظل الأمر على هذا المنوال حتى تمكن أصحاب الحجاج من أسر أحد أتباعها فجاء له به فخر ساجداً ثم رفع رأسه وقال للخارجي :

(يا عدو الله)

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان - الجزء الثاني - ص ٤٦

فرد عليه الرجل :

(أنت أولى بها يا حجاج)

قال :

(أين فراشة ؟)

قال :

(مرت تطير منذ ثلاث)

قال :

(أين تطير ؟)

قال :

(ما بين السماء والأرض)

فقال الحجاج :

(أعن تلك سألتك عليك لعنة الله)

قال :

(عن تلك أخبرتك عليك غضب الله)

قال :

(سألتك عن المرأة التي جهزتك وأصحابك)

قال :

(وما تصنع بها)

قال :

(أضرب عنقها)

قال :

(ويلك يا حجاج ما أجهلك .. أدلك وأنت عدو الله على من هو ولي
الله !! .. لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين)

قال :

(فما رأيك في أمير المؤمنين عبد الملك)

قال :

(على ذلك الفاسق لعنة الله ولعنة اللاعنين)

قال :

(ولم لا أم لك ؟)

قال :

(إنه أخطأ خطيئة طبقت ما بين السماء والأرض)

قال :

(وما هي ؟)

قال :

(استعماله إياك على رقاب المسلمين)

فلما رأى منه الحجاج تعنتاً قال لجلسائه :

(ما رأيكم فيه ؟)

فقالوا :

(نرى أن تقتله قتلة لم يُقتل مثلها أحد)

فقال الخارجي :

(ويحك يا حجاج .. جلساء أخيك أحسن مجالسة من جلسائك)

قال :

(وأى أخوى تريد ؟)

قال :

(فرعون .. حين شاور فى موسى فقالوا أرجئه وأخاه وأشار هؤلاء عليك بقتلى)

قال :

(فهل جمعت القرآن ؟)

قال :

(ما كان مفروقاً فأجمعه)

قال :

(اقرأته ظاهراً ؟)

قال :

(معاذ الله .. بل قرأته وأنا أنظر إليه)

قال :

(فكيف تراك تلقى الله إن قتلتك ؟)

قال :

(ألقاه بعملى وتلقاه بدمى)

قال :

(إذن أعجلك إلى النار)

قال :

(لو علمت أن ذلك إليك أحسنت عبادتك واتقيت عذابك ولم أبغ
خلافك ومناقضتك)

قال :

(إنى قاتلك)

قال :

(إذا أخاصمك لأن الحكم يومئذ إلى غيرك)

قال :

(نقمعك عن الكلام السيء .. يا حرسى اضرب عنقه)

و أوماً إلى السياف ألا تقتله فجعل يأتیه من بين يديه ومن خلفه

ويروعه بالسيف فلما طال ذلك رشح جبينه فقال الحجاج :

(جزعت من الموت يا عدو الله)

قال :

(لا يا فاسق .. ولكن أبطأت على بما فيه راحة)

قال :

(يا حرسى .. أوجب جرحه)

يقول القاضي عياض :

(فلما أحس بالسيف قال لا إله إلا الله .. والله لقد أتمها ورأسه
فى الأرض)^(١)

رواية أخرى عن قسوة الحجاج رواها محمد بن المنتشر بن الأجدع
الهمداني حين قال أنه وبعد دير الجماجم أراد الحجاج أن يستولى
على أموال بعض أعيان من قاموا بالإشتراك فى الثورة فدفع إليه
برجل يدعى ازارمرد ابن الهربذ وأمره بأن يغلظ عليه حتى يعلم

(١) وفيت الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان - الجزء الثانى - ص ٣٧ : ٣٨

منه مكان أمواله فلما ذهب به قال له أزارمرد :

(يا محمد .. إن لك شرفاً وديناً وإنى لا أعطى على القسر شيئاً
فأرفق بى)

فرفق به محمد بن المنتشر حتى أعطاه خمسمائة ألف درهم فبلغ
ذلك الحجاج فغضب على محمد أيما غضب فقط لأنه خالف أمره ولم
يستغلظ على ابن الهربذ وكانت نتيجة ذلك أن نزعه منه ودفعه
لواحد من أصحابه يذيقه العذاب حتى يخبر عن بقية أمواله ..

يقول محمد بن المنتشر :

فإنى لأمر يوماً فى السوق فإذا به معروضاً على حمار مدقوق
اليدين والرجلين فخفت الحجاج إن أتيته وتذممت فملت إليه فقال
لى :

(إنك وليت منى ما ولى هؤلاء فأحبست وإنهم صنعوا بى ما ترى
ولم أعطهم شيئاً وها هنا خمسمائة ألف درهم عند فلان فخذها فهى
لك)

فقال :

(ما كنت لآخذ منك على معروفى أجراً ولا لأرزأك على هذه
الحال شيئاً)

فبلغ الحجاج ما كان فدعا محمد بن المنتشر إليه فلما دخل عليه
وجده جالساً على فراشه وهو ممسك بسيفه وقد أخرجه من غمده ثم
قال له :

(ادن)^(١)

يقول محمد فدنوت شيئاً .. فأعادها الحجاج مرة أخرى فدنوت
شيئاً .. وفي الثالثة صاح فيه الحجاج :

(ادن لا أبأ لك)

فقال محمد :

(والله ما بى إلى الدنو من حاجة وفي يد الأمير ما أرى)^(٢) (٣)

فضحك الحجاج وعفا عن محمد بعد أن صارحه بما حدث ..
والمراد توضيحه من القصة هي عنف الحجاج ودمويته في التعامل
مع المخالفين لأمره حتى إذا وصل الأمر لتهديد أحد رجاله المخلصين
لمجرد أنه خالف له أحد توجيهاته فقط ولم يخالف أمره بالجملة..

(١) أى اقترب

(٢) يقصد السيف

(٣) تاريخ المقرئى الكبير - الجزء الثالث - ص ٧٩ : ٨٠

و من مظاهر قسوته أيضاً أنه جيء له برجل اسمه حُطيط فسأله
الحجاج عن أبى بكر فقال خيراً ثم عن عمر فقال خيراً ثم سأله عن
عثمان فقال :

(لم أولد إن ذاك)

فقال الحجاج :

(يا ابن اللخناء .. أولدت زمان أبى بكر وعمر ولم تولد زمان
عثمان ؟)

فقال :

(لا تعجل على .. إن الناس أجمعوا على أبى بكر وعمر واختلفوا
فى عثمان فوسعنى أن أكُله إلى الله)

قال :

(أما والله لألحقنك بالنار)

قال :

(أما ترضى أن تكون مالكا فى الدنيا حتى تكون مالكا فى الآخرة)

فقال الحجاج :

(على بصاحب العذاب)

فدفعه إليه وقال :

(أسمعني اليوم صوته)

قال :

(نعم)

فقال حطيط :

(كذب)

فجعل يعذبه حتى وضع الدهق^(١) على ساقيه وكان ثقيلاً فكسر
إحدى ساقيه وجعل يقول :

(أنا فلان)^(٢)

فقال حطيط :

(لعنك الله .. تَتَكَنَّى على لئن كسرت ساقى)

(١) خشبتان يوضع بينهما الساق ثم يُطَبَّقان عليها حتى تعصر

(٢) كانت وسيلة للتفاخر فمن أراد أن يتفاخر على أحد قال أنا فلان ابن فلان مثلاً

فجعل يعذبه هو ساكت لا يتكلم فأخبر الحجاج بأمره فدعا به
فحمل حتى وضع بين يديه فقال له الحجاج :

(أتقرأ من القرآن شيئاً ؟)

قال :

(بل أنت تقرأ)

فقرأ الحجاج :

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ ﴾ حتى بلغ
وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ ﴿١﴾

فقال حطييط :

(وأنت تقتلهم)

فبينما هو يحاوره إذ وقع ذباب على بعض جراحاته فقال : حس^(٢)
فقال الحجاج :

(يا ابن اللخناء .. أتجزع من ذباب ولا تجزع من العذاب ؟)

(١) الإنسان ١ - ٨

(٢) أى يهش الذباب

قال :

(إني عاهدت الله عليك ولم أعاهده على الذباب .. عاهدت الله لأجاهدك بيدي ولساني وقلبي .. فأما يدي فما أجد عليك أعواناً .. وأما لساني فقد تسمع .. وأما قلبي فالله أعلم بما فيه)

فقال الحجاج :

(على بمسال الحديد)

فجعلت تدخل فيما بين الظفر واللحم وهو ساكت فقال بعض جلساء الحجاج :

(ما أصبره)

فقال حطيظ :

(أو ما علمت أن الله عز وجل يفرغ الصبر إ فراغاً)^(١)

فلما لم يجد الحجاج طريقة يعذبه بها فيسمع صراخه أمر به فوضعه في عبادة ثم أمرهم بضربه حتى مات من أثر الضرب ..

(١) أنساب الأشراف للبلاذري - الجزء السابع - ص ٣٨٠ : ٣٨١

وكان يعذب أهل السجن حتى تختلف ملامح وجوههم فلا يعرفون .. قيل أنه حبس إبراهيم التيمي فجاءت ابنته فلم تعرفه حتى كلمها .. ومات إبراهيم في السجن فرأى الحجاج في منامه في الليلة التي مات فيها قائلاً يقول :

(مات في هذه الليلة رجل من أهل الجنة)

فلما أصبح قال :

(من مات الليلة بواسط ؟)

قالوا :

(إبراهيم التيمي)

فقال :

(نزغة من نزغات الشيطان)^(١)

ثم أمر به فدفن .. و روى أن رجلاً أخر اسمه ماهان الحنفي حملوه من مكة إلى الحجاج فأمر به فوضعوا جسده على قصب مشقوق ثم سحبوه فصار القصب يقطع من لحمه فكان يقول :

(١) أنساب الأشراف للبلاذري - الجزء السابع - ص ٣٨٤ : ٣٨٥

(أخذت في حرم الله وأنا بعين الله ونعم القادر الله)

فتركوه وقد ذهب ما على عظامه من اللحم فرق له أصحابه وبكوا
فقال :

(لا تجزعوا فإن كانت النار فما أيسر هذا فيما يراد بي .. وإن
كانت الجنة فهذا محتمل)^(١)

و كان الحجاج إذا قُتل رجلاً من المخالفين له فتزوجت امرأته كف
عنها وإذا لم تتزوج حبسها في قصر المسيرين فحبس من قدر عليه
من نساء أصحاب الأشعث .. أيضاً من مظاهر إمتهان المساجين في
عهده أنه كان يطعم أهل السجن دقيق الشعير والرماد مخلوطين ..

من فرط قسوته أنه كان يريد منع كل من ظاهر ابن الأشعث من
أعطياتهم فيصبحوا بلا مورد رزق وكتب إلى عبد الملك يعلمه ذلك
فكتب إليه عبد الملك :

(إنا إنما نستوجب طاعتهم بإدراار أرزاقهم فأعظمهم إياها .. فإن
في ذلك أعظم الحجة لنا عليهم .. وهَبْكَ حرمت المقاتلة لسوء الطاعة
فما بال الذراري ؟)^(٢)

(١) أنساب الأشراف للبلاذري - الجزء السابع - ص ٣٨٨ : ٣٨٩

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري - الجزء السابع - ص ٣٨٠

من الروايات أيضاً التى أوضحت أن الحجاج لم يكن يسمح بمساحة من الحرية ما روى أنه خطب فى يوم جمعة فأطال الخطبة فقام إليه رجل فقال :

(إن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرک)

فأمر به إلى الحبس فأتاه أهل الرجل وقالوا إنه مجنون فقال إن أقر على نفسه بما ذكرتم خليت سبيله .. فلما اجتمع السجين بأهله طلبوا منه أن يعترف على نفسه بالجنون فقال لهم :

(لا والله .. لا أزم أنه ابتلانى وقد عافانى)^(١)

وهذا مثال بسيط على إحتواء سجون الحجاج على آلاف من المظلومين والروايات فى هذا لا تنتهى ..

من ضمن الروايات التى دلت على شدة الحجاج بل وعن غرابة أطواره أيضاً قصته مع جحدر بن مالك .. وجحدر هذا كان رجلاً خارجاً على القانون وكان يسكن فى منطقة اليمامة وقد روع بعض أهلها وقطع الطرق واستولى على الممتلكات فأرسل الحجاج إلى نائبها يؤنبه ويلومه على عدم القبض عليه فكشف نائب اليمامة جهوده

(١) البيان والتبيين - الجزء الثانى - ص ٢٩٨

حتى قبض عليه وأرسله إلى الحجاج فقال له لما مثل بين يديه :

(ما حملك على ما كنت تصنعه ؟)

فقال :

(جراءة الجنان وجفاء السلطان وكلب الزمان ولو اختبرني الأمير لوجدني من صالح الأعوان وشهم الفرسان ولوجدني من أصلح رعيته وذلك أني ما لقيت فارساً قط إلا كنت عليه في نفسي مقتدراً)

فقال له الحجاج وكان يعشق الشجعان ويدنيهم إليه :

(إنا قاذفوك في حائر^(١) .. فيه أسد عاقر .. فإن قتلك كفانا مؤنتك وإن قتلته خرينا سبيلك)

ثم أودعه السجن وأرسل إلى حاكم كسكر يطلب منه أن يرسل إليه أسداً عظيماً فبعثه إليه فأمر به فجوع ثلاثة أيام ثم أطلقه في البستان وطلب من حراسه أن يطلقوا جحدر على أن تكون يده اليمنى مقيدة وأن لا يعطوه إلا سيفاً في يده اليسرى ثم اتخذ هو وأصحابه موقعاً يسمح لهم بالنظر إلى ما سيحدث .. فلما رآه الأسد زأر وجرى ناحيته حتى إذا ما اقترب منه قفز نحوه يريد التهامه فتلقيه جحدر

(١) أي بستان

بالسيف فاخترق جسده وخر عليه الأسد فسقط جحدر أرضاً من شدة وثبة الأسد .. عندها كبر الحجاج وأصحابه وخير جحدر بين العودة إلى بلاده أو الإقامة عنده فاختر أن يقيم عند الحجاج فأحسن جائزته وأعطاه مالاً ..^(١)

و هذا مثال بسيط على غرابة طباع الحجاج وكيف أنه ينتقل من النقيض إلى النقيض فجحدر كان خارجاً عن القانون وكان يفعل ما يفعل بالناس حتى انه انتدب أسداً ليقتله قتلة شنيعة لم يقتل بها أحد من قبل ولكنه في لحظة انقلب إلى النقيض تماماً حين رأى منه شجاعة وإقدام وتناسى عندها تاريخه السيئ و وجوب عقابه على ما ارتكبه بل وكافاه وقربه إليه فصار أحد أعوانه ..

و من الروايات التي تؤكد على غرابة أطواره بل وتسرع أيضاً أنه رأى في منامه أن عينيه قلعتا فاعتقد أن تأويل رؤياه هو أنه سيطلق زوجته فطلقهما بالفعل وكانتا هند بنت المهلب بن أبي صفرة وهند بنت أسماء وبعد أن طلقهما بوقت قصير جاءه الخبر بوفاة ابنه محمد وفي نفس اليوم جاءه نعى أخيه محمد وكان والياً على اليمن فقال :

(١) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء التاسع - ص ١٢٥ : ١٢٦

(والله هذا تأويل رؤيى .. محمد ومحمد فى يوم واحد .. إنا لله
وإنا إليه راجعون)

فكتب إليه الوليد بن عبد الملك يعزيه فكتب الحجاج جوابه إلى
الوليد فقال :

(يا أمير المؤمنين .. ما التقيت أنا ومحمد منذ كذا وكذا سنة إلا
عاماً واحداً .. وما غاب عنى غيبة أنا لقرب اللقاء فيها أرجى من
غيبته هذه .. فى دار لا يتفرق فيها مؤمنان)^(١)

رواية أخرى تدل على غرابة طباع الحجاج حيث روى عنه أنه
وقف يوماً وقال :

(من كان له بلاء أعطيناه على قدره)

وقد عرف عنه أنه كان جواداً كثير العطايا والجوائز فقام رجل
فقال :

(أعطنى فإنى قتلت الحسين)

فقال :

(١) تاريخ المقرئى الكبير - الجزء الثالث - ص ٨٧

(وكيف قتلته ؟)

قال :

(دسرتة بالرمح دسراً .. وهبرته بالسيف هبراً .. وما أشركت
معى فى قتله أحداً)

فقال :

(اذهب .. فوالله لا تجتمع أنت وهو فى موضع واحد)^(١)

و لم يعطه شيئاً وكان الحجاج ناصبياً يعادى على بن أبى طالب
وأهله وكان طبيعياً فى موقف مثل هذا أن يكافىء الرجل الذى يدعى
أنه قتل ابن الأمام على رضى الله عنه ولكنه لم يكافئه وإذا ما قسنا
هذا الموقف بالموقف السابق للحجاج مع جحدر بن مالك لظهر لنا
تناقض الحجاج فى إعطاء العطايا أو منعها ..

و استكمالاً لما سبق فقد روى أنه من فرط كراهيته لعلى بن أبى
طالب رضى الله عنه وذريته أنكر يوماً أن يكون الحسين من ذرية
رسول الله ﷺ لأنه ابن بنته فقال له يحيى بن يعمر :

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر - الجزء الثانى عشر - ص ١٤٣

(كذبت)

فقال الحجاج :

(لتأتيني على ما قلت ببينة من كتاب الله أو لأضربن عنقك)

فقال :

(قال الله : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ ^(١) إلى قوله : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴾ ^(٢) فعيسى من ذرية إبراهيم وهو إنما ينسب إلى أمه مريم والحسين ابن بنت رسول الله ﷺ)

فقال الحجاج :

(صدقت) ^(٣)

و على الرغم من حجة الرجل القاطعة وتصديق الحجاج على قوله
إلا أنه نفاه إلى خراسان ولم يبقه في العراق ..

(١) الأنعام : ٨٤

(٢) الأنعام : ٨٥

(٣) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء التاسع - ص ١٢٦

واحد من أشهر مواقفه هو ذلك الذى حدث مع الصحابى أنس بن مالك وتجراه عليه حين ختمه فى يده إذلالاً له على الرغم من مكانته وخدمته لرسول الله ﷺ عشر سنوات .. يروى ابن حبان فى الثقات عن أزهر بن عبد الله أنه قال :

(كنت فى الخيل الذين سبوا أنس بن مالك وكان فيمن يؤلب على الحجاج وكان مع عبد الرحمن بن الأشعث فوسم فى يده " عتيق الحجاج " ثم قال : لولا أنك خدمت رسول الله ﷺ لضربت عنقك)^(١)

رواية أخرى يرويها الثورى فيقول :

أتى الحجاج بسارق فقال له :

(لقد كنت غنياً أن تكسب جناية فيؤتى بك إلى الحاكم فيبطل عليك عضواً من أعضائك)

فقال الرجل :

(إذا قلّ ذات اليد سخت النفس بالمتالف)

فقال :

(١) الثقات لابن حبان - الجزء الرابع - ص ٤٠

(صدقت .. والله لو كان حسن اعتذار يبطل حداً لكنت له موضعاً^(١))

ثم أمر غلامه أن يقطع يده فقطعها ..

وإذا نحنينا جانباً تلك المواقف وخرجنا قليلاً على بعض المواقف
الطريفة للحجاج فإننا سنجد رواية الحسن بن محمد بن هلال
الصابي الذي ذكر أن الحجاج انفرد يوماً عن عسكره فمر برجل
يسقى ضيعة له فقال له :

(كيف حالكم مع أميركم ؟)

فقال الرجل :

(لعنه الله .. المبيد .. المبير .. الحقود .. عجل الله الانتقام منه)

فقال له الحجاج :

(أتعرفني ؟)

قال :

(لا والله)

(١) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء التاسع - ص ١٢٧

فقال :

(أنا الحجاج)

فرأى الرجل أنه مقتول بلا شك فرفع عصا كانت معه وقال
للحجاج :

(أتعرفنى ؟)

قال :

(لا)

فقال الرجل :

(أنا أبو ثور المجنون .. وهذا يوم صرعى)^(١)

و أزيد وأرغى وهاج وأراد أن يضرب رأسه بالعصا فضحك منه
الحجاج وتركه وانصرف ..

رواية أخرى طريفه حدثت بعد موقعة دير الجماجم وبينما كان
الحجاج يواجه الأسرى فكان يجبرهم على الإعتراف بأنهم كفروا

(١) الأذكياء لابن الجوزى - ص ١٩٩

قبل أن يصلحهم فمن اعترف بكفره قبل منه وصالحه ومن يرفض
كان يأمر بقطع رأسه فجاءه رجل من الأسرى فقال له الحجاج :

(أرى رجلاً ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر)

فقال له الرجل :

(أتخادعني عن نفسي .. أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون)^(١)

فضحك منه الحجاج وأخلى سبيله ..

كل ما سبق يؤكد أن الحجاج كانت تعتريه كثير من المتناقضات
في نفسه ولم يكن أقرب المقربين إليه يستطيع أن يفهمه أو يقيمه
تقريباً صحيحاً بشكل تام حتى إن عبد الملك بن مروان نفسه اختلط
عليه الأمر فقال للحجاج يوماً :

(ما من أحد إلا وهو عارف بعيوب نفسه .. فعب نفسك ولا تخبأ
منها شيئاً)

فقال :

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير - ٤٨٠/١ - ص ٦٣٣



(اعفنى يا أمير المؤمنين)

فأبى إلا أن يسمع منه فقال :

(أنا لجوج^(١) .. حقود .. حسود)

فقال عبد الملك :

(إذا بينك وبين إبليس نسب)

فقال الحجاج :

(يا أمير المؤمنين .. إن الشيطان إذا رآنى سالمنى)^(٢)

و على الرغم من كل ما سبق ومن تاريخ الحجاج الدموى فى علاقته مع الأسرى وإقدامه على سفك الدماء على أهون سبب إلا أنه كان يرى أنه على الحق وأنه ما يفعل هذا إلا تقرباً لله .. دمويته الشديدة جعلت الوليد بن عبد الملك يتسائل عن إذا ما كان يفعل هذا عن إقتناع أم أنه يفعل هذا تزلفاً وتقرباً من بنى أمية ..

يروى الشافعى أن الوليد بن عبد الملك قال للغاز بن ربيعة :

(١) عنيد كثير الإلحاح

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر - الجزء السادس - ص ٢١٧

(إني سأدعوك وأدعو الحجاج فتحدثان عندي فإذا قمت وخلوت به فسله عن هذه الدماء .. هل يحييك في نفسه منها شيء أو يتخوف لها عاقبة ؟)

فلما قام الوليد سأله الغاز فقال :

(يا أبا محمد .. رأيت هذه الدماء الذي أصبت .. هل يحييك في نفسك منها شيء أو تتخوف لها عاقبة ؟)

فجمع الحجاج يده وضرب بها صدر الغاز بن ربيعة وقال :

(يا غاز .. ارتبت في أمرك أو شككت في طاعتك .. والله ما أود أن لي لبنان وسنير ذهباً^(١) مُقطَعاً أنفقهما في سبيل الله عز وجل مكان ما أبلاني الله تعالى من الطاعة)^(٢)

(١) لبنان هي البلد في الشام وهي مشهورة بجبالها وسنير جبل بين حمص وبلبل على رأسه قلعة سنير والمراد هنا أن لو كان معه جبلاً من ذهب لاستبدلها بطاعة الوليد بن عبد الملك

(٢) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر - الجزء السادس - ص ٢١٣

الفصل الثامن

الأيام الأخيرة في حياة الحجاج

- قتله للتابعي سعيد بن جبير رحمه الله

- قالوا عنه

- وفاته



قتله للتابعي سعيد بن جبير رحمه الله

لا يمكن الحديث عن أيام الحجاج الأخيرة دون أن يتم ذكر حادثة قتله للتابعي سعيد بن جبير حيث كان آخر من قتلهم الحجاج في حياته وتوفي بعد قتله بفترة قصيرة قيل أنها أربعين يوماً ..

سعيد بن جبير .. أبو عبد الله .. من موالى بنى أسد^(١) .. إمام ومفسر وقارئ وفقه وعالم من الأتقياء ومن أشهر التابعين .. كان فى مكة وقت أن قتل الحجاج عبد الله بن الزبير فأخذ منه البيعة لعبد الملك بن مروان بعدها ترك سعيد بن جبير مكة ورحل إلى العراق فلما تولى الحجاج حكم العراق أخذ منه البيعة مرة أخرى لعبد الملك بن مروان وأكرمه وجعله على الصلاة ثم ولاه القضاء فاعترض على ذلك كثير من أهل الكوفة وقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربى فما كان من الحجاج إلا أن عزله وعين مكانه أبو بردة بن أبو موسى الأشعري وأمره ألا يأخذ قراراً إلا باستشارة سعيد بن جبير وكان هذا تأكيداً من الحجاج على مكانة سعيد بن جبير الدينية وإيماناً بعلمه وفقهه ..

(١) أى ليس عربى فكل من أسلم من خارج جزيرة العرب يطلق عليه مؤلى

على الرغم مما سبق فإن سعيد بن جبير كان رافضاً لأسلوب
الحجاج في تعامله مع الناس واستمراؤه سفك دماء الناس بأقل
شبهة ولكنه ظل على بيعته لعبد الملك وقائماً بالأعمال التي يوليها
إليه الحجاج ..

من ضمن تلك الأعمال أنه جعله على نفقات جند جيش عبد
الرحمن بن الأشعث الذي خرج لقتال رُتبيل فلما خلعه ابن الأشعث
خلعه سعيد بن جبير أيضاً وخرج عليه فيمن خرج وظل يحارب
مع ابن الأشعث إلى أن استطاع الحجاج أن يهزمه في دير الجماجم
فهرب مع من هربوا خوفاً من بطش الحجاج فذهب في البداية إلى
أصبهان^(١) واستقر بها لفترة حتى وصل خبره إلى الحجاج فأمر عامله
على أصبهان بالقبض عليه ولكنه رفض تنفيذ الأمر وأرسل إلى سعيد
بن جبير يخبره بما ورد إليه من الحجاج ونصحه بالخروج من
البلدة لعدم رغبته في القبض عليه فخرج بن جبير مرة أخرى ولجأ
لأذربيجان وعاش فيها لفترة حتى كره البقاء هناك فخرج مرة ثالثة
ولجأ بمكة .. خلال تلك التنقلات عاش سعيد بن جبير عشر سنوات
كاملة هارباً من الحجاج ..

(١) مدينة في إيران حالياً تبعد ٣٤٠ كيلو متر عن العاصمة طهران

خالد بن عبد الله القسري كان والياً على مكة وقت وصول بن جبير إليها وقد بدأت الأخبار تتردد إليه أن سعيد بن جبير موجود في مكة ووصلت تلك الأخبار أيضاً إلى الحجاج الذي لم يفوت الفرصة وأرسل كتاباً إلى الوليد بن عبد الملك قال فيه :

(إن أهل النفاق والشقاق قد لجئوا إلى مكة .. فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي فيهم)

فكتب الوليد إلى خالد بن عبد الله يطلب منه تسليم من كان مع ابن الأشعث إلى الحجاج ليقضى فيهم وعلى الفور بدأ رجال خالد في البحث عنهم فخشى أصحاب ابن جبير عليه ونصحوه بالهروب من مكة فقال لهم :

(قد والله فررت حتى استحييت من الله .. مم أفر ولا مفر من قدره .. سيجيئني ما كتب الله لي)

لم يمر سوى أيام إلا وقد تم القبض على خمسة أشخاص :

عطاء بن أبي رباح

عمرو بن دينار

طلق بن حبيب

مجاهد بن جبر

سعيد بن جبير

و قد استأذن سعيد بن جبير في أن يودع الحرم فتركوه يطوف بالبيت أسبوع وهو في قيوده .. بعدها تم العفو عن عطاء وعمرو لأنهما من أهل مكة وتم إرسال الثلاثة الآخرين إلى الحجاج فتوفي طلق بن حبيب وهو في الطريق وقضى الحجاج على مجاهد بالحبس وظل فيه حتى توفي الحجاج وتبقى سعيد بن جبير الذي جاءوا به إلى الحجاج فسأله :

(يا سعيد .. ألم أقدم مكة فأخذت منك البيعة ؟)

قال :

(بلى)

فقال الحجاج :

(أما قدمت الكوفة فأخذت منك البيعة ووليتك إمارة الصلاة ؟)

قال :

(بلى)



فقال الحجاج :

(ألم أولك القضاء فُضج الناس وقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربى
فاستقضيت أبا بردة بن أبو موسى الأشعرى وأمرته أن لا يقطع أمراً
دونك ؟)

قال :

(بلى)

فقال الحجاج :

(أما جعلتك من سُمّارى^(١) وكلهم من رؤوس العرب ؟)

قال :

(بلى)

فقال الحجاج :

(أما أعطيتك مائة ألف درهم تقرضها على أهل الحاجة ثم لم
أسألك على شيء منها ؟)

(١) اسم مدينة

قال :

(بلى)^(١)

و كان الحجاج يقول له هذا ليقيم عليه الحجة وقيل أنه كان متألماً لدخوله عليه مقيداً وظن كل من رأى هذا المشهد أنه سيخلى سبيله وربما قد حدث هذا لو أن سعيد بن جبير استطاع أن يستميل الحجاج إليه ولكن كما أوردنا سابقاً فشخصية مثل الحجاج لم يكن من السهل أبداً معرفة ما يدور بذهنه أو توقع تصرفاته وقد حاول الحجاج مراراً أن يقضى على الحسن البصري لكن عصمه الله منه برحمته أما عن سعيد بن جبير رحمه الله فلم يأن له الله بذلك .. ظل الحجاج يعاتبه حتى ما وجد شيئاً ليقوله له إلا أن قال :

(أصلح الله الأمير .. إنما أنا امرؤ من المسلمين .. يخطئ مرة ويصيب مرة)

فما أن قالها حتى انطلق وجه الحجاج ورجى أن يتخلص منه خاصة بعد أن أقام عليه الحجة فسأله :

(فما حملك على أن خرجت علىّ وخلعت بيعة أمير المؤمنين ؟)

(١) سيرة الحجاج بن يوسف الثقفي .. ماله وما عليه لأبي عبد الرحمن جمال بن

محمد بن محمود - الباب الثالث - ص ١٣٦

فقال سعيد :

(إن ابن الأشعث أخذ منى البيعة على ذلك وعزم على)

فغضب عند ذلك الحجاج غضباً شديداً وانتفخ حتى سقط أحد طرفي
ردائه عن منكبه وقال له :

(ويحك .. تنكث بيعتين لأمرير المؤمنين وتنفى بواحدة للحائك)
(ابن الحائك ؟)

ثم صاح :

(يا حرسى .. اضرب عنقه)

فجاء إليه رجل اسمه مسلم الأعور وقطع رأسه وقيل ذبحه من
الخلف وكان وجهه على الأرض وقيل أيضاً أن بعد قطع رأسه سال
منه دم كثير حتى دُعر منه الحجاج وبعض الروايات ذكرت أن عقله
أصابته لوثة خفيفة فجعل يقول :

(قيودنا .. قيودنا)

فلم يفهم الحراس ما يعنيه فظنوا أنه يريد القيود التي في قدم
سعيد بن جبير فقاموا بقطع رجليه من الساقين واستخرجوا القيود..

مات سعيد بن جبير على يد الحجاج رغم أنه كان واحداً من أعلم أهل الأرض وقتها .. يقول الإمام أحمد بن حنبل :
(قتل سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه)

و على ما يبدو فإن قتل سعيد بن جبير كان كلمة النهاية في حياة الحجاج لأن أغلب الروايات وأشهرها يروى أن الحجاج توفي بعد قتله لسعيد بن جبير بفترة قصيرة قيل أنها أربعين يوماً تقريباً .. وقيل أنه آخر من قتل وقيل أنه قتل بعده رجل واحد اسمه ماهان .. وروى أنه إذا نام كان يراه في المنام آخذاً بمحامع ثوبه ويقول :

(يا عدو الله فيم قتلتنى ؟)

فيصحو الحجاج مذعوراً وهو يقول :

(ما لي ولسعيد وبن جبير ؟)

انظر للاستزادة :

(*) أنساب الأشراف للبلاذرى - الجزء السابع - ص ٣٦٣ : ٣٧٤

(*) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء التاسع - ص ٩٦ : ٩٨

(*) تاريخ الطبرى - الجزء السادس - ص ٤٨٧ : ٤٩١

(*) الكامل فى التاريخ لابن الأثير - ٥٨٧/٤ - ص ٦٦٠

(*) سير أعلام النبلاء للذهبي - الجزء الرابع - ص ٣٢١ : ٣٤٢

قالوا عنه

كما أوردنا من قبل فالحجاج كان يرى بتكفير الخارج على الحاكم وكان يرى في بنى أمية أنهم أهل الخلافة والأحق بها وبالتالي فكل من خرج على عبد الملك بن مروان هو بالضرورة كافر يجب الإقتصاص منه أو يتم العفو عنه بعد أن يشهد على نفسه بالكفر وهي منة يمنها أمير المؤمنين على من يراه يستحق العفو ..

شخصية تملك هذا الفكر كان من الطبيعي أن يكون لها كارهين كثر خاصة وأن ذلك اليقين الراسخ عند الحجاج وجد ما ينافيه في صدور الناس كون كثيراً منهم كان يرى في خلافة بنى أمية مثلاً للظلم والجور خاصة من عمالهم وولاتهم ولكن طبقاً لمنهج الحجاج فهم أصبحوا ممنوعون من الاعتراض لأن من يعترض منهم فمصييره الخروج من الملة وإهدار دمه .. نستعرض هنا بعض أقوال من عايشوا الحجاج وتعاملوا معه .. بعضهم نصح باجتنابه .. بعضهم نأى بنفسه عن الحكم عليه .. بعضهم ذمه .. وبعضهم كفره ..

يروى الحسن فيقول :

أن عليّ بن أبي طالب دعا يوماً على أهل الكوفة فقال :

(اللهم كما ائتمنتهم فخانوني .. ونصحت لهم فغشوني .. فسلط عليهم فتى ثقيف الذيال الميال .. يأكل خضرتها ويلبس فروتها ويحكم فيها بحكم الجاهلية)

و عن مالك بن أوس بن الحدثان عن علي بن أبي طالب أنه قال :
(الشاب الذيال أمير المصريين يلبس فروتها ويأكل خضرتها ويقتل أشراف أهلها .. يشتد منه الفرق ويكثر منه الأرق ويسلطه الله على شيعته)

و عن حبيب بن أبي ثابت قال :

قال علي لرجل :

(لا متّ حتى تدرك فتى ثقيف)

فقال الناس :

(وما فتى ثقيف يا أمير المؤمنين ؟)

قال :

(ليقال له يوم القيامة اكفنا زاوية من زوايا جهنم .. رجل يملك عشرين سنة أو بضعا وعشرين سنة لا يدع لله معصية إلا ارتكبها .. حتى لم يبق إلا معصية واحدة وكان بينه وبينها باب مغلق لكسره حتى يرتكبها .. يقتل بمن أطاعه من عصاه)^(١)

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر - الجزء الثاني عشر - ص ١٦٨ : ١٦٩

و للحجاج أقاويل جريئة جداً تكاد تفضي إلى الكفر ومنها ما روى عنه أنه تلا وهو على منبره في مدينة واسط :

{ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي }

ثم قال :

(والله إن كان سليمان لحسوداً)

و عن عن بُزَيْع بن خالد الضبي قال :

سمعت الحجاج يخطب فقال في خطبته :

(رسول أحدكم في حاجته أكرم عليه أم خليفته في أهله ؟)

فقلت في نفسي :

(لله على أن لا أصلى خلفك صلاة أبداً .. وإن وجدت قوماً يجاهدونك لأجاهدك معهم)

و إن صح هذا عنه فظاهره كفر إن أراد تفضيل منصب الخلافة على الرسالة أو أراد أن الخليفة من بنى أمية أفضل من الرسول ﷺ والله أعلى وأعلم .. وتلك الرواية هي ما اعتمد عليه سعيد ابن جبير

عليها رحمه الله في تكفيره حيث أن هناك مقولة منسوبة إليه يكفر بها الحجاج إعتقاداً على تلك الرواية ..

بعض من عاصر الحجاج نصح الناس بالصبر ونصح أيضاً باجتنابه وترك أمره إلى الله مثل الحسن البصري الذي أراد الحجاج قتله أكثر من مرة وبالرغم من هذا فإنه كان يرى بعدم الخروج عليه وقد أخرجه أصحاب ابن الأشعث معهم مكرهاً وكان دائماً ما يقول :

(إنما هو نقمة .. فلا نقابل نقمة الله بالسيف .. وعليكم بالصبر والسكينة والتضرع)

وعن الزبير بن عدي قال :

أتينا أنس بن مالك نشكو إليه ما نلقى من الحجاج فقال :

(اصبروا .. فإنه لا يأتي عليكم عام أو زمان أو يوم إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم عز وجل)

وأكمل :

(سمعته من نبيكم ﷺ)

وقد قيل للحسن لاحقاً في عهد عمر بن عبد العزيز :

إنك تقول الآخر شر من الأول وهذا عمر بن عبد العزيز بعد
(الحجاج)

فقال الحسن :

(لا بد للناس من تنفيسات)

أما الشعبي فقال :

(يأتي على الناس زمان يُصلّون فيه على الحجاج)

وقال أيضاً :

(والله لئن بقيتم لتমনون الحجاج)

أما عن من ذمّه فأكثر من أن يتم إحصاءهم فعلى سبيل المثال قال
عمر بن عبد العزيز :

(لو تخابثت الأمم فجاءت كل أمة بخبيثتها وجئنا بالحجاج
لغلبناهم)

وقال عاصم بن أبي النجود :

(ما بقيت لله عز وجل حرمه إلا وقد ارتكبتها الحجاج)

و يروى أنهم جاءوا برجل من الخوارج إلى الوليد بن عبد الملك ف قيل له :

(ما تقول في أبي بكر وعمر ؟)

فأثنى خيراً .. ف قيل له :

(فعثمان ؟)

فأثنى خيراً .. ف قيل له :

(فما تقول في علي ؟)

فأثنى خيراً .. فذكر له الخلفاء واحداً بعد واحد فيثنى على كل بما يناسبه حتى قيل له :

(فما تقول في عبد الملك بن مروان ؟)

فقال :

(الآن جاءت المسألة .. ما أقول في رجل الحجاج خطيئة من

بعض خطاياهم ؟)

و عن علي بن مسلم الباهلي قال :

أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه
ولا ترد عليه كلاماً فقال لها بعض أتباعه :

(يكلمك الأمير وأنت معرضة عنه ؟)

فقالت :

(إنى لأستحي من الله أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه)

و كتب عمر بن عبد العزيز يوماً إلى عدي بن أرطاة يقول :

(بلغني أنك تستن بسنن الحجاج فلا تستن بسننه .. فإنه كان
يصلي الصلاة لغير وقتها .. ويأخذ الزكاة من غير حقها .. وكان لما
سوى ذلك أضيع)

أما عن من كفروه فهناك عدة روايات ذكرت ذلك منها ما قيل
لسعيد بن جبير لما سأله :

(خرجت على الحجاج ؟)

قال :

(إني والله ما خرجت عليه حتى كفر)

- وقال سعيد بن جبير أيضاً :

(أليس كافر بالله من زعم أن عبد الملك أكرم على الله من محمد رسول الله ﷺ)

- وقال القاسم بن مخيمرة :

(كان الحجاج ينقض عرى الإسلام)

- وعن عاصم أنه قال :

(لم يبق لله حرمة إلا ارتكبتها الحجاج بن يوسف)

- وقال الأعمش :

اختلفوا في الحجاج فسألوا مجاهداً فقال :

(تسألون عن الشيخ الكافر)

- وقال الشعبي :

(الحجاج مؤمن بالجبب والطاغوت كافر بالله العظيم)

- وعن ابن طاووس عن أبيه قال :

(عجباً لإخواننا من أهل العراق .. يسمون الحجاج مؤمناً !!)

- وقيل أيضاً أنه أخبر بموت الحجاج مراراً فلما تحقق من وفاته قال :

﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١)

و هناك من لم يحكم فيه وترك أمره إلى الله مثل محمد بن سيرين
الذي ذكر عنده الحجاج فقال :

(مسكين أبو محمد .. إن يعذبه الله عز وجل فبذنبه .. وإن يغفر
له فهنيئاً له .. وإن يلق الله بقلب سليم فهو خير منا وقد أصاب
الذنوب من هو خير منه)

ف قيل له :

(ما القلب السليم ؟)

قال :

(١) الأنعام : ٤٥

(أن يعلم الله تعالى منه الحياء والإيمان .. وأن يعلم أن الله حق ..
وأن الساعة حق قائمة .. وأن الله يبعث من في القبور)

رواية أخرى فيها أن رجلاً قال لسفيان الثوري :

(أتشهد على الحجاج وعلى أبي مسلم الخراساني أنهما في
النار؟)

قال :

(لا .. إن أقرأ بالتوحيد)

و عن أبو سليمان الداراني أنه قال :

كان الحسن البصري لا يجلس مجلساً إلا ذكر فيه الحجاج فدعا
عليه حتى رآه في منامه فقال له :

(أنت الحجاج ؟)

قال :

(أنا الحجاج)

قال :

(ما فعل الله بك ؟)

قال :

(قُتِلْتُ بِكُلِّ قَتِيلٍ قَتَلْتَهُ ثُمَّ عُزِلْتُ مَعَ الْمُوَحِّدِينَ)

قال : فأَمَسَكَ الحَسَنُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ شَتْمِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ..

وفاته

بعد أن أمر الحجاج بقتل سعيد بن جبير بدأت حالته الصحية والنفسية بالتدهور سريعاً وبدأ ذلك واضحاً عليه حتى إن بعض الناس قالت :

(رأيتهُ وهو يأتي الجمعة وقد كاد يهلك من العلة)

وبدأت الأخبار تنتشر بسرعة في أقاليم العراق حول أن الحجاج في طريقه للموت فسمع بحديثهم فقام إلى المنبر فخطب بهم - وكانت آخر خطبه له في الناس - وقال ضمن ما قال :

(إن طائفة من أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهم فقالوا : مات الحجاج ومات الحجاج .. فَمَهْ ؟! ^(١) .. فهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟ .. والله ما يسرنى أن لا أموت وأن لى الدنيا وما فيها .. وما رأيت الله رضى التخليد إلا لأهون خلقه عليه .. إبليس)

و يروى السرى بن يحيى فيقول :

مر الحجاج فى يوم جمعة فسمع استغاثة فقال :

(١) وما فى هذا ؟ ..

(ما هذا ؟)

فقييل :

(أهل السجون يقولون : قتلنا الحر)

فقال :

(قولوا لهم : اخسؤوا فيها ولا تكلمون)

يقول السرى :

(فما عاش بعد ذلك إلا أقل من جمعة حتى قصمه الله قاصم كل

جبار)

بعدها مرض الحجاج فكان لا يستطيع الخروج فأحضر منجماً

وقال له :

(هل ترى فى علمك ملكاً يموت ؟)

قال :

(نعم .. ولست هو)

فقال :

(وكيف ذلك ؟)

قال المنجم :

(لأن الذي يموت اسمه كُليب)

فقال الحجاج :

(أنا هو والله .. بذلك كانت سمتنى أمى)

وقيل أنه مرض بسرطان المعدة وكان هذا سبب وفاته والله أعلم .. وقيل أنه مات بمرض غريب حيث امتلأ بطنه بالديدان وما دل على ذلك أنه جيء له بالطبيب فأخذ قطعة من اللحم وربطها بخيط ثم سرحها فى حلقه وتركها ساعة ثم أخرجها فإذا هى وقد التصق بها دود كثير .. وقيل أن الله سلط عليه الزمهرير فى آخر أيامه فكان لا يشعر بالدفء أبداً مهما حاولوا معه .. قيل أنهم كانوا يشعلون الكوانين فيقربونها منه حتى تكاد تحرق جلده فلا يشعر بالحرارة ..

قام الحسن البصرى بزيارته فشكا إليه الحجاج من وجعه فقال له الحسن :

(قد كنت نهيتك ألا تتعرض إلى الصالحين فلججت)

فقال له :

(يا حسن .. لا أسألك أن تسأل الله أن يفرج عني .. ولكني أسألك
أن تسأله أن يجعل قبض روحى ولا يطيل عذابى)^(١)

وقد روى عنه أنه كان يقول فى أواخر أيامه :

(والله لئن كنت على ضلالة لبئس حين المفزع ولئن كنت على
هدى لبئس حين المجزع)

ثم قال ليزيد بن أبى مسلم :

(إذا مت فلا تكتم أمرى .. ومرو من ينادى بموتى وأخرجنى من
باب الزابى .. فإذا فرغت من دفنى فأجر الماء على قبرى ثم أثره
بالبقر وليكن الحفر عميقاً)

وكان كلما سمع بأحدهم يقول أنه لا ريب مصيره إلى النار كان
ينشأ شعراً فيقول :

(١) الوافى بالوفيات للصفدى - الجزء الحادى عشر - ص ٢٣٨

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا .. بأننى رجل من ساكنى النار
أيحلفون على عمياء ويحهم .. ما علمهم بعظيم العفو غفار
فلما أخبروا الحسن بما أنشأه قال :

(بالله إن نجا لينجون بهما)

و مات الحجاج قبل تسعة أيام من نهاية رمضان^(١) وعن عمر ناهز
أربعة وخمسون عاماً وقد ترك خلفه وصية قال فيها :

(بسم الله الرحمن الرحيم .. هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف
.. أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده
ورسوله .. وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك .. عليها
يحيى .. وعليها يموت .. وعليها يبعث)

وقد روى أن آخر كلماته قبل أن تخرج روحه إلى بارئها أنه قال :

(اللهم اغفر لى فان الناس يزعمون انك لا تفعل)

و بالرغم من أن الحجاج من المنطقى أن يحوز ثروة عظيمة بحكم
موقعه القيادى وكثرة فتوحات المسلمين فى عهده إلا أن الناس

(١) قيل قبل نهايته بأربع أيام وقيل فى شوال عام خمسة وتسعين هجرىاً

عندما تتبعت ميراثه بعد وفاته لم يجدوا عنده إلا ثلاثمائة درهم ..
ومصحفاً .. وسيفاً .. وسرجاً .. ورحلاً .. ومائة درع موقوفة لوجه
الله لاستخدامها في الغزو^(١)

يقول الأصمعي :

(ما كان أعجب حال الحجاج .. ما ترك إلا ثلاثمائة درهم)

لم يتم معرفة خبر وفاة الحجاج إلا عندما أشرفت جارية على
الناس وهى تبكى قائلة :

(ألا إن مطعم الطعام .. وميتم الأيتام .. ومُرمل النساء .. ومُفلق
الهام .. وسيد أهل الشام قد مات)

ثم أنشأت تقول :

(اليوم يرحمنا من كان يبغضنا .. واليوم يأمننا من كان يخشانا)

فأخذ منها الناس الخبر وطافوا به فى المدن حتى يعلم الناس أمر
وفاته فوصل الخبر إلى الحسن البصرى فسجد شكراً لله وقال :

(اللهم إنك قد أمتته فأمت عنا سنته)

(١) وقيل تسمائة درع قسمها إلى ستمائة لأهل العراق وثلاثمائة للترك

يقول حماد بن أبي سليمان :

(لما أخبرت إبراهيم النخعي بموت الحجاج بكى من الفرح)

أما عمر بن عبد العزيز لما وصله الخبر قال :

(ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدى إياه على حبه القرآن .. وإعطائه أهله عليه .. وقوله حين حضرته الوفاة : اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل)

أما عن أهل السجون فقد قال لهم زياد بن الربيع بن الحارث أن الحجاج على الأغلب سيموت من مرضه هذا وأنه لن يمر يوم كذا وكذا إلا وهو ميت فلم ينم أهل السجن فرحاً وجلسوا ينتظرون سماع نعى الحجاج ..

وقد أحصوا عدد من قتلهم الحجاج صبراً^(١) فوجدوهم مائة وعشرين ألف نفس .. وأحصوا من أسرهم الحجاج فوجدوهم واحد وثمانين ألف أسير وقد أطلقهم سليمان بن عبد الملك بعد توليه الخلافة في يوم واحد .. وأحصوا من أمر بهم الحجاج إلى السجن فوجدوهم ثمانون ألف سجين منهم ثلاثون ألف امرأة وكان منهم

(١) أى من قتلوا بعيداً عن ساحات المعارك

ثلاثة وثلاثون الف لم تجب عليهم أحكام بعد ..

انظر للاستزادة :

(*) البداية والنهاية لابن كثير - الجزء التاسع - ص ١١٧ : ١٣٩

(*) الكامل فى التاريخ لابن الأثير - ٥٨١/٤ : ٥٨٦/٤ - ص ٦٦١ : ٦٦٢

يقول ابن عبد ربه الأندلسى عن الحجاج فى كتابه العقد الفريد :

(وكانت فيه شهامة عظيمة .. وفى سيفه رفق .. وكان كثير قتل
النفوس التى حرمها الله بأدنى شبهة .. وكان يغضب غضب الملوك
.. وكان فيما يزعم يتشبهه بزياد بن أبيه وكان زياد يتشبه بعمر بن
الخطاب فيما يزعم أيضاً ولا سواء ولا قريب)

و يقول عنه ابن كثير فى البداية والنهاية :

(وبالجملّة فقد كان الحجاج نقمة على أهل العراق بما سلف
لهم من الذنوب والخروج على الأئمة وخذلانهم لهم وعصيانهم
ومخالفتهم والافتيات عليهم)

و يقول أيضاً :

(وقد كان ناصبياً يبغض علياً وشيعته في هوى آل مروان بنى أمية .. وكان جباراً عنيداً مقداماً على سفك الدماء بأدنى شبهة)

و يكمل ابن كثير فيقول :

(وقد روى عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر كما قدمنا .. فإن كان قد تاب منها وأقلع عنها وإلا فهو باق في عهدها .. ولكن قد يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه فإن الشيعة كانوا يبغضونه جداً لوجوه وربما حرفوا عليه بعض الكلم وزادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات .. وقد روينا عنه أنه كان يتدين بترك المسكر وكان يكثر تلاوة القرآن ويتجنب المحارم ولم يُشتهر عنه شيء من التلخ بالفروج وإن كان متسرعاً في سفك الدماء فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وساترها وخفيات الصدور وضماؤها)

و قال أيضاً :

(الحجاج أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء وكفى به عقوبة عند الله عز وجل .. وقد كان حريصاً على الجهاد وفتح البلاد وكان فيه سماحة بإعطاء المال لأهل القرآن فكان يعطى على القرآن

كثيراً ولما مات لم يترك فيما قيل إلا ثلاثمائة درهم والله أعلم)

و فى هذا فقد أنصف ابن كثير الحجاج فذكر عيوبه ومزايه ولكن
أعتقد أن أوقع ما قيل فى الحجاج وذكر حقيقته هو ما كتبه الإمام
الذهبي عنه حيث قال :

(كان ظلوماً .. جباراً .. ناصبياً .. خبيثاً .. سفاكاً للدماء ..
وكان ذا شجاعة .. وإقدام .. ومكر .. ودهاء .. وفصاحة .. وبلاغة
.. وتعظيم للقرآن)

ثم أكمل :

(فنسبه ولا نحبه .. بل نبغضه فى الله .. فإن ذلك من أوثق عرى
الإيمان .. وله حسنات مغمورة فى بحر ذنوبه .. وأمره إلى الله .. وله
توحيد فى الجملة .. ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء)^(١)

انتهت بهذا قصة كليب .. أبو محمد .. الحجاج بن يوسف
الثقفى بما تحويه من تناقضات يكاد يعجز القلم عن كتابتها .. فعلى
حسب ما وصلنى لا أعتقد أن هناك رجلاً واحداً فى التاريخ جمع
بين كل تلك الأضداد فى شخصه .. فهو الظلوم .. الجبار .. الخبيث

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي - الجزء الرابع - ص ٣٤٣

.. سفاك الدماء .. وهو اللجوج الحسود الحقود على حسب ما ذكر عيوبه بنفسه .. وهو أيضاً الحافظ للقرآن .. المجازى عليه .. المعظم له .. وهو الفاتح الذي ساهم في نشر الدين في المشرق كله تقريباً وبسببه أسلم ملايين البشر .. وهو الشجاع .. المقدام .. صاحب المكر والدهاء ..

هو الذي أصابت قذائفه البيت الحرام .. وهو الذي قتل وصلب عبد الله بن الزبير رضى الله عنه .. وهو الذي أهان أهل المدينة وآذى الصحابة الكرام .. وهو الذي قتل التابعين واستمرى قتل عشرات الآلاف دون سبب في كثير من الأحيان .. وهو أيضاً الذي وصلت فتوحاته إلى داخل حدود الصين .. ولم يعرف عنه أبداً أنه استولى على درهم واحد من المال العام بل وأثرى بأسلوبه الإدارى الدولة وطورها ونظم أمورها وافر أمناً لم تنعم بمثله الدولة الإسلامية إلا في عهده ..

الحجاج شخصية محيرة بشكل لا يمكن تصديقه ..

محيرة حتى بالنسبة لكاتب هذه السطور ..

الفهرس

٧.....المقدمة

الفصل الأول

- ١٣.....ولاية معاوية بن ابي سفيان وأخذ البيعة ليزيد
٢٢.....الحسين بن على .. الثائر الشهيد
٣٩.....معارضة عبد الله بن الزبير للحكم الوراثى
٤٩.....موقعة الحرّة
٥٩.....الهجوم على بن الزبير فى مكة
٦٤.....بنى أمية بعد وفاة يزيد

الفصل الثانى

- ٧١.....الحجاج طفلاً وصبياً وشاباً
٨٢.....إتصال الحجاج بعبد الملك بن مروان
٩٠.....الحرب على عبد الله بن الزبير

الفصل الثالث

- ١٠٥.....ولايته للحرمين الشريفين
١١٧.....ولايته للعراق
١٢٨.....الحجاج والصحابى أنس بن مالك

الفصل الرابع

- ١٣٩.....بداية ظهور الخوارج
١٤٦.....الحرب على الخوارج الأزارقة
١٥٤.....الحرب على الخوارج الصُفْرية

الفصل الخامس

١٧٥.....	ثورة عبد الله بن الجارود.....
١٨٦.....	ثورة الزنج.....
١٩٠.....	ثورة مُطَرِّف بن المغيرة.....
١٩٥.....	ثورة ابن الأشعث.....
٢٠٧.....	دير الجماجم وما تلاها.....
٢١٩.....	هلاك عبد الرحمن بن الأشعث.....
٢٢٦.....	الحجاج وتعامله مع الأسرى.....

الفصل السادس

٢٣٩.....	الفتوحات في عهده.....
٢٤٠.....	فتوحات آسيا الوسطى.....
٢٤٦.....	فتح بلاد السند.....
٢٥١.....	بناءه مدينة واسط.....
٢٥٥.....	إسهاماته في التنمية المجتمعية.....

الفصل السابع

٢٦١.....	مواقف من حياة الحجاج.....
----------	---------------------------

الفصل الثامن

٣٠٥.....	قتله للتابعي سعيد بن جبير رحمه الله.....
٣١٣.....	قالوا عنه.....
٣٢٤.....	وفاته.....